سيرة الرسول ﷺ

صور مقتبسة من القرآن الكريم

تأليف الأستاذ
محمد عزة دروزة

الجزء الأول

عني بهذه الطبعة ونظم صورها
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الانصاري

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمـد لله القـائل في محكم كتابه : « وإنك لتلقى القرآن من لدن حـكيم عليم » نزل الكتاب بالحـق على قلب محمد النبي الصادق الأمين ، ليكون هدى ونبراساً للبشرية يقودها إلى الخـير والسعادة بإذن الله الحـكيم الخبير ، ،

وصـلاة وسلاماً على هـادي الإنسانية ، وحامل لواء الحق ، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الهداة الذين حملوا الرسالة وأدوا الأمـانة ونصحوا الأمة إلى يوم الدين ، صلاة وسلاماً دائمين سرمدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ...

وبعـد :

فقـد شاءت إرادة الله لنـا ، أن يمتد بنا العمر إلى قرب مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، وأن يكون عمرنا وجيلنا في هذا الزمان الذي صدق فيه قول النبيّ ، ﷺ : (القابض فيه على دينه ، كالقابض على الجمر) هذا العصر الذي تميز بفتن كقطع الليـل المظـلم « يمسي الرجل مؤمنا ، ويصبح كافراً » .

إننا كدعاة إلى الله لم يكن ، والحمـد لله وحده ، ليجد الشيطان طريقه إلى قلوبنا قط ، ولم نيأس من روح الله ولا من رحمته ،

كيف لا وهو القـائل جل شأنه (إنا نحن نزّلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) وقد صدق الله وعده ، وأعز جنده ، وها نحن نرى في جميع آفاق المعمورة أنواراً تتلألأ ، ونجوماً تسطع كلها تبشر بنهضة إسلامية عارمة ، ستغير مجري تاريخ البشرية إن شاء الله في المستقبل القريب ، حيث تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

إننا ونحن جادون اليوم في العمل الدائب للاستعداد لمؤتمر السيرة والسنة النبوية الثالث ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، لا يسعنا إلا أن نستعرض كل أولٰئكَ الذين كتبوا في هذه السيرة المطهرة ، من قدامى ومحدثين ، وقد تناول الكل جوانب من السيرة ، وبعضهم أجاد ، والبعض عمل على قدر جهده ، ومن الكتاب المبرزين الذين كتبوا في سيرة الرسول ، ﷺ ، الأخ الشيخ محمد عـزة دروزة في كتابه القـيم :

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنيـة

الذي نقدمه إلى القراء الأكارم هدية متواضعة من إدارة الشئون الدينية بمناسبة إنعقاد مؤتمر السيرة في الدوحة عاصمة دولـة قطـر

والكتاب الذي نقـدمه إلى القراء ثمرة جهد كبير قام به المؤلف حفظه الله وأمده بالعون ، وقد نحا في كتابه هذا منحاً جيداً في

التاريخ ، ألا وهو ذكر الشواهد من القرآن الكريم مستعيناً في ذلك بذاكرة حافظة قوية وذهن وقاد وقد أجاد في عرض السيرة عرضاً كاملاً ، ثم جاء هذا العرض مدعماً بنظر ثاقب ، وفكر نير مؤمن يدل على سعة إطلاع مؤلفه وغزارة المادة ، والثقافة الدينية الكاملة التي يتمتع بها ، وما كان له أن يصل إلى هذه المرتبة ، بدون علم حباه الله إياه ، وتوفيق أمده به . ولقد كان الباعث على تأليف هذا الكتاب استكمال أبحاث بدأها عندما صدر كتابه الأول (عصر النبيّ عليه السلام وبيئته قبل البعثة) . وقد كان ذلك في أوائل عام ١٣٦٦ هـ . حيث وجد أن استكمال البحث العلمي في وضع كتاب في السيرة النبوية الشريفة مقتبساً من القرآن الكريم يعتبر عملاً ضرورياً وجديراً بالمتابعة والبحث . وذلك اقتناعاً ذاتياً ، دينياً بحتاً ، منه ومن كافة العلماء المسلمين المخلصين لدينهم ، بأن القرآن الكريم هو أصدق الكتب المشهودة قاطبة وهو أوعاها وأحفظها لما مر بالبشرية من أحقاب وحوادث خلدها رب السماء في كتابه المحفوظ ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ليكون الدليل القاطع على صدق القضية (ما فرطنا في الكتاب من شيءٍ) .

ولأن القرآن الكريم على لسان الخالق جل وعلا ، كان خير مصور لشخصية النبيّ ، ﷺ ، وليس هناك أبر ولا أصدق ، ولا أوفى بالكلام منه كما يقول المؤلف (لأنه يشف عما كان في الشخصية

النبوية الكريمة من قوي ومواهب جعلت صاحبها ، ﷺ ، موضع التكريم والعناية الربانية وأهلاً للاصطفاء بالرسالة العلوية ، ولأنه يطلعنا على الناحية الرائعة حقا من الظروف والأدوار التي تقلبت فيها الدعوة حتى انتهت إلى ذلك النصر العزيز والفتح المبين ، وحتى صارت كلمة الله هي العليا) .

على هذا الدرب سار المؤلف موفقاً في عمله القيم حتى خرّج إلى الدارسين والباحثين وطلاب المعرفة تحفةفريدة في نوعها ، خالية من المزالق ، بعيدة عن الإنحرافات والمهاوي التي يقع فيها بعض الكتاب الذين يتعرضون لسيرة النبيّ ، ﷺ، سواء عن حسن نية أو غير ذلك ، فجاء الكتاب بعيداً عن كل ذلك .

وقد كان هذا حافزاً لنا لاختياره لطبعه طبعة جيدة خاصة تقدم هدية من دولة قطر لطلاب العلم الحريصين على سيرة سيد الخلق بمناسبة إنعقاد المؤتمر الثالث للسيرة النبوية في الدوحة عام ١٤٠٠ هـ.

راجين من الله التوفيق والعون ، وآملين أن نكون بذلك قد ساهمنا في وضع لبنة في البناء الشامخ (سيرة النبيّ ، ﷺ) التي نعتز دائما بأن نكون جنداً عاملين في ميدانها ...

والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم النصير ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه

الدوحة في ١ـ١ـ١٤٠٠ هـ

عبد الله بن ابراهيم الانصاري

مدير الشئون الدينية

فصل
في شخصية النبي عليه السلام

يتألف هذا الفصل من المباحث الآتية :

١ — عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكيته وقرشيته .

٢ — شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ونشأته وسيرته قبل البعثة .

٣ — أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله .

٤ — حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية .

٥ — صور من اجتهادات النبي الشخصية ومانزل في صددها من القرآن . وصلة ذلك بالعصمة النبوية .

٦ — صور لسلوك المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم .

٧ — الوحي وأولياته .

المبحث الأول

عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكيته وقرشيته

تحويم المستشرقين حول عروبة جد النبي صلى الله عليه وسلم وخطورة دلالة القرآن على ذلك ـ المؤيدات القرآنية لمكية النبي صلى الله عليه وسلم وعروبته وقرشيته ـ موقف متشابه بين اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم والمستشرقين ورد القرآن الحاسم ـ دلالة قرآنية على قدم صلات القربى بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش ـ استدلالات على مكانة عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة ورفعة شأنها .

الصورة الأولى

إن تحويم بعض المستشرقين حول أصالة عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكيته وقرشيته ـ على رغم أن ذلك من الأمور اليقينية عند المسلمين ـ يجعل الاستدلال على ذلك من القرآن سديداً ، ويجعل له في الوقت نفسه معنى قويا وخالصاً ، لأن غير المسلمين ، والمستشرقين خاصة ، يعترفون بأن القرآن أصدق وأسلم مدوّنة وصلت إلينا من عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد ورد في بعض الروايات أن عبد المطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب، نشأ وترعرع في يثرب عند أخواله ، وأن عمه المطلب حمله وأتى به إلى مكة وقال لمن سأله عنه إنه عبد له ؛ ولقد ورد في بعض الروايات كذلك أن لوالد النبي أخوالا في يثرب كما كان لأبيه عبد المطلب ، وأنه كان يقضي كثيراً من أو[illegible] في زيارتهم ، ولقد مات في طريقه إلى إحدى هذه الزيارات ، كما ورد في بعض الروايات أن والدة النبي صلى الله عليه وسلم أخذت ابنها وهو طفل إلى يثرب لتزيره أخواله أو أخوال أبيه فيها ، وأنها ماتت في طريق عودتها من هذه الزيارة ، ولقد ندرت تسمية « عبد الله » عند العرب ؛ ولقد قيل عن هذه التسمية : إن العرب يسمون بها حينما يريدون أن يبقى الاسم الأصلي مجهولا ، أو أنهم يطلقونها على

صاحب الشخصية المجهولة ، وإزاء هذه الروايات والأقوال أطلق المستشرقون[1] لخيالهم العنان يستشفون ما وراءها من معان ومَغارٍ ومجهولات ، لا سيما أن في يثرب جاليات يهودية إسرائيلية ، والنبوّات السماوية إنما عرفت في هذا القبيل من البشر خاصة، وتساءلوا مشككين عما إذا كانت أصالة عروبة النبي صلى الله عليه وسلم وأبيه وجدّه ومكيتهم وقرشيتهم لا يصح أن تكون موضع اشتباه ، وعما إذا كان لا يصح أن يكون هناك اتصال دم وصهر واستعداد جنسي بين جدّ النبي صلى الله عليه وسلم أو أبيه وبين إسرائيليي يثرب ، ورأوا في تعدّد الروايات واختلافها وتغايرها ماجعلهم ينظرون إلى شجرة نسب النبي صلى الله عليه وسلم القريب منها والبعيد على أنها مأثورات دينية إسلامية قد صنعت بعد الإسلام ، ومن الغريب ألا يخطر ببالهم حين أثاروا هذه الشبهات أو أرادوا أن يثيروها أن العرب لو عرفوا مغمزاً في نسب النبي لوجهوه إليه ولذكره القرآن في معرض الردّ كما ذكر كل التهم والمغامز التي وجهوها إليه ، ومن الغريب كذلك ألا يخطر ببالهم أن ينعموا النظر ، أو لعلهم عجزوا عن إنعام النظر ، في الآيات القرآنية ليكفوا أنفسهم مؤونة هذه الحيرة أو هذا التشكيك والتحويم الذي يحلو لهم حول كثير مما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم والذي يساعدهم فيه ـ والحق يقال ـ ثغرات الروايات العربية الإسلامية .

الصورة الثانية

والآن نأتي إلى ذكر المؤيدات القرآنية :

أولا : في سورة محمد آية صريحة الدلالة على أصالة مكية النبي صلى الله عليه وسلم وهي هذه :

« وَكَأَيِّن مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ... سورة محمد ١٣

---

(١) اقرأ مثلا المبحث الطويل في الجزء الأول من كتاب كايتاني ـ ترجمة تركية ـ في نسب النبي صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : لقد تكرّر ورود تعبير : من أنفسهم ، ومنكم ، ومنهم ، في معرض الخطاب للعرب ولأهل مكة خاصة وفي ذلك توكيد لتلك الأصالة من جهة ولصلة النبي صلى الله عليه وسلم بالعرب بوجه عام من جهة أخرى ، كما ترى فيما يلي :

١ — رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ [1] . . .

البقرة ١٢٩

٢ — لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . .

آل عمران ١٦٤

٣ — لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ...

التوبة ١٢٨

٤ — وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ [2] . . .

النحل ١١٢ — ١١٣

ثالثاً : كذلك تكرّر وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأمي ، وهو الوصف الذي جاء في القرآن لغير الكتابي ، أو للعرب لأنهم غير كتابيين أيضا ، كما ترى في الآيات التالية :

١ — فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ...

آل عمران ٢٠

---

(١) هذه الآية من دعوات إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم أثناء رفعهما قواعد الكعبة ودعاء إبراهيم صلى الله عليه وسلم بأن يجعل مكة بلداً آمناً ، والسلسلة تدل بقوة على أنها في معرض توكيد صلة الأبوة بينهما وبين العرب .

(٢) جمهور المفسرين على أن القرية هنا هى مكة وأن الآية نزلت في ظروف ابتلائها بقحط ومجاعة فكان ذلك دلالة على عذاب الله لأن أهل مكة كذبوا الرسول الذى جاءهم وهو منهم .

٢ — ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ... الأعراف ١٥٧

٣ — هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ... الجمعة ٢

وهكذا تلتحم الصلة بين العرب والنبي صلى الله عليه وسلم في الجنسية أيضاً فوق التحامها بينه وبين مكة وأهلها .

ويحسن أن نقف قليلا عند آية الجمعة لنشير إلى مايلهم مضمونها ومضمون مابعدها من مؤيدات ، وإلى موقف لبعض اليهود فيه شيء من التشابه من ناحية مّا مع ماحام حوله بعض المستشرقين . ونورد أولا الآيات التالية التي جاءت بعدها :

« وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... الجمعة ٣ ـ ٦

فالآية السابقة وهذه الآيات تلهم بقوّة أن اليهود أنكروا نبوّة النبي لأنه من العرب الأميّين ، وهو أمر مخالف لما كانوا يعتقدون من اختصاص بني إسرائيل بالنبوّات من دون الناس ، فأكدت الآيات من جهة أن الله قد بعث في العرب رسولا منهم ليعلمهم ويهديهم هم وآخرين منهم من بعدهم أيضا ، وردّت من جهة ثانية على اليهود بأنه لاحرج على الله فهو صاحب الفضل يؤتيه من يشاء ، وندّدت من جهة ثالثة بهم بأسلوب لاذع لتكذيبهم بآيات الله ناسبة إليهم مناقضة التوراة وعدم رعايتها .

ويظهر أن هذا الموقف من اليهود قد تكرّر واستمرّ ، فتكرّر التنديد القرآني بهم بأساليب فيها وضوح أكثر ، كما ترى فيما يلي :

١ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ . بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ . . . البقرة ٨٩ — ٩٠

٢ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... البقرة ١٠١

٣ — وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ [١] لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ... البقرة ١٠٩

والاستنتاج الذي تؤدّي إليه الآية ٨٩ هو على ماذكره الرواة زعمهم على العرب قبل البعثة وقولهم إنه سيبعث نبيّ من العرب عندهم صفاته يكونون معه حزباً عليهم . وجملة « فلما جاءهم ماعرفوا » وجملة « من بعد ماتبين لهم الحق » تتضمنان إشارات تفسيرية تؤيد الروايات ، كما أن آية الأعراف ١٥٧ التي نقلناها قبل ، تتضمن تأييداً من ناحية أخرى ، إذ لا يمكن أن يكون محلا للريب ما تؤكده هذه الآية — من أن اليهود والنصارى يجدون صفات النبي صلى الله عليه وسلم عندهم — وهي تتلى جهرة ، فليس لهذا معنى إلا أن يكون مما قالوه ، وقرّروه ؛ والآيات صريحة في تعليل موقف اليهود وتناقضهم بأن ذلك إنما هو حسد وبغي ومكابرة .

وواضح أن التوكيد القرآني تجاه إنكار اليهود هو توكيد قرآني حاسم كذلك تجاه تحويمات المستشرقين حول موقف يماثله من ناحية ما .

رابعاً : لقد تكرر ورود كلمة « قوم » مضافة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في آيات مكية كما ترى فيما يلي :

---

(١) سياق الآيات في حق اليهود :

١ — وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ... الأنعام ٦٦

٢ — وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ الزخرف ٤٤

وفي آية في سورة إبراهيم تقرر أن الرسل لا يرسلون إلا بلسان أقوامهم ، وفي هذا ينطوي تقرير كونه منهم كما ترى فيها :

« وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ... إبراهيم ٤

ولقد تكررت التقريرات القرآنية بعروبة القرآن ، وبأن الله قد يسّره بلسان النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ليفهمه الذين خوطبوا الأول مرة وهم العرب ، كما ترى في الآيات التالية :

١ — إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ... يوسف ٢

٢ — فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا . . .

مريم ٩٧

٣ — نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ . . . الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٥

وهكذا تلتحم الصلة أيضاً من هذه الناحية بين عروبة النبي صلى الله عليه وسلم وكونه جزءاً من العرب ، ثم جزءاً من عرب مكة وقريشها بنوع خاص .

خامساً : في سورة الأحزاب الآية التالية :

« إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ . . . الأحزاب ٥٠

فهذه الآية تدل بصراحة على أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم في مكة أعمام وعمات وأخوال وخالات ، وأنه قد تزوج من بناتهم اللاتي كنّ في عداد المسلمين المهاجرين إلى يثرب . والمعروف اليقيني أنه لم يكن بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم هاشميات

أي من أسرته القريبة كما أنه لم يكن بينهن بنات أخوال وخالات قريبة مباشرة. وزوجاته القرشيات المهاجرات هن عائشة بنت أبي بكر . وحفصة بنت عمر وسودة بنت زمعة . وهند أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة . ورملة أم حبيبة بنت أبي سفيان . وأقرب القريبات إليه أم حبيبة لأن جدهما عبد مناف . وهو جده الثالث . أما الأربع الأخريات فإنما يلتقي بهن في أجداد أبعد . فيلتقي بعائشة التي هى من بطن التيم في جده (مرة) وبحفصة التي هى من بطن عدي في جده (كعب) وبسودة التي هى من بني عامر في جده (لؤى) ويلتقى بأم سلمة التي هى من بني مخزوم في جده (كلاب) . فهن والحالة هذه بنات عمومته من بعيد جداً إلا واحدة وهى أم حبيبة التي هى من بنات عمه من بعد غير بعيد ولقد كانت أم والده من بني مخزوم . وهم بطن أم سلمة فتكون من ناحية ما من بنات خالاته أو أخواله من بعيد غير بعيد[1] . ولعل بعض الأخريات يتصلن به من مثل هذه الناحية أيضا . لأن المصاهرة كانت واشجة بين بطون قريش .

وهكذا تبدو بنص القرآن صلة القربى بالعمومة والخؤولة غير المباشرتين ، وبالتالي صلة القربى القديمة التي قد تعود إلى عدة أجيال بين النبي صلى الله عليه وسلم ومختلف بطون قريش قائمة لاتحتمل مماراة . ولقد أشير إلى هذه الصلة إشارة قوية في إحدى آيات سورة الشورى وهى :

« قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ » الشورى ٢٣

فهى تدعو النبي إلى أن يقول لبطون قريش : إن وشائج القربى بينه وبينهم يجب أن تكون قرينة قاطعة لهم على أن دعوته إياهم إلى الدين فوق كل شبهة من مطمع أو أجر ، وإنما هى دعوة القريب قريبه إلى ما فيه الخير ، للمصلحة المشتركة والمودة المتبادلة ؛ ولقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه في صدر هذه الرواية . أنه لم يكن من بطن من بطون قريش إلا وله صلة قربى بالنبي صلى الله عليه وسلم[2] .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٢١ — ٣٢٣ .

(١) نعتقد أن هذا أو مايقاربه هو التأويل الأقرب إلى الحق من ذلك التأويل الذي يجعل الآية أمراً =

سادساً : لقد ورد في سورة الشعراء الآية التالية :

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ... الشعراء ٢١٤

والآية تتضمن – كما هو ظاهر – دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له في مكة عشيرة ، أو بطن خاص يلتحم به التحام القرابة العصبية المباشرة ، فوق ما يلتحم هذا البطن الخاص بوشائج القربى مع سائر بطون قريش . والقرائن القرآنية مضافة إلى أخبار السيرة والروايات ، تدل على أن هذا البطن الخاص كان ذا مكانة محترمة وجانب عزيز ، فقد اضطر كثير من القرشيين المسلمين إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة بسبب ما نالهم من اضطهاد قريش وذوي قرباهم لمتابعتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وعدم وجود من يحميهم وينصرهم ، وهو معنى أشارت إليه آية في سوة النحل هي :

« وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ... النحل ٤١

هذا في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعه غيره من رجالات المسلمين القرشيين لم يهاجروا ، وظل النبي يقوم بدعوته قوياً صريحاً عنيفاً في التنديد والتبكيت والهجوم والإنذار بلسان القرآن ؛ ومع الاعتراف بأن لتأييد الله له بروحه ، وخلقه العظيم ، واستغراقه في الدعوة دون مبالاة شيء ، أثراً كبيراً في ثباته في موقفه رغم ما كان يناله من كيد زعماء قريش ومكرهم ومؤامراتهم وأذاهم ، على ما سوف نذكره بعد – فإن مما لاريب فيه أن قوة عصبيته أيضاً كان لها أثر غير يسير في هذا ، كما كان ذلك شأن الذين تخلفوا عن الهجرة من رجالات المسلمين القرشيين .

= بمودة ذوى قربى النبي صلى الله عليه وسلم أجرا على هدايته للناس – هذا مع التسليم بواجب المسلمين باحترام آل النبي صلى الله عليه وسلم لكرامة انتسابهم إليه بقطع النظر عن الآية – ونعتقد أن ذلك التأويل إنما دعت إليه تلك الخلافات الحزبية الأولى ؛ على أنه لايلائم عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتسق مع آيات عدة ورد فيها الأمر للنبي بأن يعلن أنه لايسأل أحدا أجرا ، وإنما تذكر دعوته للناس حتى يهتدوا. اقرأ آيات الأنعام ٩٠ والمؤمنون ٧٢ والفرقان ٥٧ وسبأ ٤٨ والطور ٤٠ والقلم ٤٦ ؛ والخبر المروى عن ابن عباس مما يستأنس به على صحة تأويلنا كما أن تشابه الاستثناء في آيتي الشورى والفرقان يدعمه أيضا . وهذا هو رأى المفسر الطبري بعد أن أورد جميع الأقوال في تفسيره .

ومعلوم أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم كان يتولى سقاية الحاج، وأنه المقصود في المقايسة التي تضمنتها آية التوبة التالية :

« أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ... التوبة ١٩

وهذه المهمة التي كان يتولاها العباس ، واحدة من المهام العليا التي كان يتولاها رؤساء بيوتات قريش الرفيعة أو نبهاؤها ووجهاؤها ، أو بتعبير آخر هي عضوية في حكومة مشيخة الأشراف المكية ، وفي هذا دلالة قرآنية من ناحية ما أيضاً على ما كان لبطن النبي صلى الله عليه وسلم الخاص من عزة ومكانة[1] .

---

(١) ومن الروايات التي تكاد تصل إلى حداليقين في صحتها أن عم النبي أبا طالب زعيم بني هاشم والذي كان شقيق أبيه كان يقف إلى جانبه وينصره ويدافع عنه . وأن معظم بني هاشم وبني عبد المطلب كانوا يتعصبون له مع أنهم لم يكونوا مؤمنين . وأن رؤساء قريش كانوا يتحاشون أذية النبي بسبب ذلك . ولم يفكر في النزوح عن مكة إلا بعد موت أبي طالب . وقد اعتدى عليه هشام بن المغيرة المعروف بأبي جهل مرة فسارع عمه حمزة شقيق أبيه إلى الانتقام منه وضربه ثم أعلن إسلامه . ومما قاله ابن هشام عزواً إلى دين إسحق (إن المصائب إنما تتابعت على رسول الله بهلك خديجة التي كانت له وزير صدق على الإسلام وبهلك عمه أبي طالب الذي كان عضداً وحرزاً ومنعة له فنالت منه قريش من الأذى مالم تكن تطمع به في حياته) . (ج ٢ ص ٢٥ — ٢٦) .

المبحث الثاني

شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ونشأته وسيرته قبل البعثة

غلو بعض المسلمين في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم غلوا لاتبرره نصوص القرآن — بواعث الغلو — كفار العرب وشخصية النبي صلى الله عليه وسلم. طبيعة النبي البشرية في القرآن — عدم علمه من أمر نبوته شيئا قبل نزول الوحي عليه — مماثلته لسائر الأنبياء — كونه عرضة للأعراض البشرية المتنوعة — تحليلات واستدلالات قرآنية حول نشأته — مدى تعبير « ووجدك ضالا فهدى » — تعليق على مايردده بعضهم من أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم قومية — حفاوة القرآن بملة إبراهيم ومداها — اتباع ملة إبرهيم قبل البعثة وترجيح كون النبي صلى الله عليه وسلم منهم — اعتكافاته الروحية قبل البعثة وأثرها — تعبداته — مشاركته في بعض تقاليد الجاهلية — تنزهه عن فاسد الأخلاق وشائبة الشرك — صلته ببعض الكتابيين — رفاقه — معارفه المكتسبة — مدى جهد بعض العلماء في نفي ذلك وعدم وجاهته وجدواه — انقباضه وعدم فضوله — مقامه ورجحان عقله وخلقه في قومه — عدم بروزه في طبقة الزعماء — عدم معرفته الكتابة والقراءة — تنبيهات في صدد ذلك.

الصورة الأولى

من العجيب أن يكون في القرآن آيات كثيرة فيها الكفاية لرسم صورة صادقة لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وفيها قرائن وإشارات ودلالات عديدة تساعد على التعرف على نشأته وسيرته قبل البعثة ، ثم يعمد بعض المسلمين بل بعض علمائهم ، إلى تجاوز ذلك إلى ما لا تساعد عليه نصوص القرآن ، بل ما تتناقض معها .

فإذا كنت ممن تسنى لهم أن يسمعوا قصة من هذه القصص التي تتلى في حفلات المولد فقد سمعت ولا ريب نماذج من الغلو الذي يكاد يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم شخصية لا هوتية أو في نطاق اللاهوتية . ولقد وقع غير واحد من كتاب السيرة والشمائل وشراحها في هذا الغلو : سواء في سياق ذكر ما قبل نشأة الإنسان الأولى ، أو في سياق

ذكر نسب النبي صلى الله عليه وسلم وحمله وولادته وبشائره ، دون أن يكون لذلك أصل من قرآن أو سند من حديث صحيح ، أو دعامة من منطق معقول ؛ بل لم يرد في روايات السلف ومدونات السيرة القديمة أيضاً . ويبدو أن غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الإنسان الكامل في النبي صلى الله عليه وسلم الذى يتجلى في التميز في عظم الخلق ، وصفاء النفس ، وكبر القلب ، وقوة الإيمان ، والفناء في الله والمهمة العظمى التي اضطلع بها ، ورأوا أنه لابد أن يكون من لوازم نبوته واصطفائه أن تكون ثمة مقدمات وبشائر ، وإن كان فيها ما يخرج النبي صلى الله عليه وسلم عن النطاق الطبيعى للبشر أولا ولسائر الأنبياء ثانياً ، ويدخله في نطاق اللاهوتية أو ما في معناها ؛ وذلك حين يصفونه بأنه الأب الأكبر لجميع الموجودات ، وأنه خص بالاستخراج من ظهر آدم قبل نفخ الروح فيه لأنه هو المقصود من خلق النوع الإنسانى ، وأن جميع الكائنات من عرش ولوح وقلم وكرسي وسماوات وأرضين وإنس وجن وشمس وقمر وملائكة وجنة ونار قد خلقت من نوره ، وأن أحد أجداده ، إلياس ، كان يسمع تلبيته بالحج وهو في صلبه ، وأنه كان يعلم بأمر نبوته منذ كان في عالم الذر وبعد خلقته ، ويرى علائم ذلك في الشجر والحجر ، وأن أمه سمعت بشائر نبوته ورأت علائمها حين وضعته إلى آخر ذلك مما تجده في القسطلانى وشروحه ومختصراته وغيرها من كتب السيرة والدلائل والشمائل ، وغفلوا عن أن ذلك قد يذهب بحكمة الاصطفاء الربانى لبعض البشر التي انطوت في الجملة القرآنية :

« ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... الأنعام ١٢٤

الصورة الثانية

ومن الغريب والطريف معاً أن يكون مثل هذا الغلو في اعتقاد صفات النبوة هو الذي حمل طائفة من العرب على أن يجحدوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ويقفوا منه موقفا جموديا ، إذ تخيلوا أن النبي لا بد أن يكون فوق البشرية في القدرة على الخوارق

ومعرفة الغيب وتسخير الأكوان والخلود والصعود إلى السماء واستنزال الملائكة الخ ، فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم بشراً مثلهم يقرر بلسان القرآن مثليته البشرية ، ويرد عليهم حينما يطلبون منه الخوارق بأنه ليس إلا بشراً رسولا ، عجبوا وجحدوا ، وردد القرآن موقفهم وندد به في آيات كثيرة ، كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً . وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلآَّ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ... الإسراء ٩٠ — ٩٤

٢ — وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ . . .

الأنبياء ٧ — ٨

٣ — وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ... الفرقان ٧ — ٨

والآن نأتي إلى المؤيدات القرآنية .

الصورة الثالثة

فأولا : ما يتصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم .

إن النصوص القرآنية صريحة :

١ ـ بأن النبي صلى الله عليه وسلم بشر وأن بشريته مماثلة لبشرية الناس جميعا : كما ترى في الجملة القرآنية التالية :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ... الكهف ١١٠ وفصلت ٦

وقد أكد هذا المعنى في معرض الرد على الذين طلبوا الخوارق من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما جاء في آيات الأسراء ٩٠ ـ ٩٤ ، وفي معرض توكيد أن الأنبياء جميعا بشر كسائر الناس كما جاء في آيات الأنبياء ٧ ـ ٨ التي نقلناها آنفاً .

٢ ـ بأنه لم يكن يعلم من أمر نبوته شيئاً قبل نزول الوحي عليه كما ترى في الآيات التالية :

« قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... يونس ١٦

٣ ـ بأنه لم يكن بدعاً من بين الرسل ولم يكن في شخصيته ورسالته ووحي الله له غير ما كان في الرسل السابقين ، كما ترى في الآيات التالية :

ا ـ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ... آل عمران ١٤٤

ب ـ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ... النساء ١٦٢

ت ـ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ... يوسف ١٠٩

ث ـ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... الرعد ٣٨

ج ـ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ... الفرقان ٢٠

ح — قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ... الأحقاف ٩

وننبه خاصة إلى أن جل هذه الآيات إنما ورد ردّا على الذين جحدوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه بشر كسائر البشر ولأن شخصيته كسائر الشخصيات البشرية ؛ وهذا مما يدعم المعنى الذي نقرره .

٤ ـ بأنه لم يكن من جنس الملائكة أو المخلوقات العلوية ولم يكن يعرف الغيب وأنه عرضة للضرر والأعراض المتنوعة الأخرى كسائر البشر كما ترى في الآيات التالية :

ا — قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ... الأنعام ٥٠

ب — قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَآءَ ٱللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . . .
الأعراف ١٨٨

ت — وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ . . .
الأنبياء ٣٤

ث — وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ... المؤمنون ٩٧ ـ ٩٨

ج — لاَ يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ...
الأحزاب ٥٢

ح — يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ . . .
التحريم ١

خ — أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ...
الضحى ٦ ـ ٨

د — أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . . .

الشرح ١ — ٣

إذا كان أكثر هذه الآيات قد نزل لمناسبات حدثت بعد البعثة — إذ جاء بعضها في معرض الرد على تعجيز الكفار وتحديهم ، وبعضها في صدد ظروف النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية — فإن شمول دلالتها لشخصيته قبل البعثة من باب أولى ؛ كما هو المتبادر .

الصورة الرابعة

وثانياً : ما يتصل بنشأة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته قبل البعثة .

فأولا : أن آيات سورة الضحى ٦ — ٨ من أقوى وأوضح النصوص القرآنية في نشأة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته إلى مبدإ الوحي ؛ وقد نقلناها قبل قليل ؛ إذ تقرر الآيتان الأولى والثالثة :

ا — ما هو من البدائه المعروفة اليوم من أن النبي كان يتيما ، وأنه نشأ في حضانة رحيمة من جده ثم من عمه أبي طالب . وتعبير « فآوى » يتضمن تقرير هذه الحضانة بالصفة التي وصفناها والتي استمرت حتى انقلبت إلى حماية قوية من عمه كما يدل معنى «الإيواء» ولقد استعمل هذا التعبير في آيات أخرى تضمنت تقرير هذا المعنى ، كما ترى فيما يلي :

١ — وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .

الأنفال ٢٦

٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ...

الأنفال ٧٢

ب — أنه كان فقيراً فأغناه الله . وأخبار السيرة التي لا اختلاف في جوهرها ولا تناقض تذكر ظروف ذلك على ما هو معروف من صلة السيدة خديجة بنت خويلد رضى

الله عنها به عن طريق عمله لها في التجارة واقترانه بها نتيجة لهذه الصلة[1] .

وإذا كان ثمة شيء نذكره على هامش ذلك ؛ فهو ما نعتقده من أن هذه الصلة كانت فاتحة عهد جديد ، بل حادثاً حاسماً في حياة السيد الرسول صلى الله عليه وسلم كان له أكبر الأثر في الاتجاه النهائي الذي اتجه إليه ، وتهيأت به نفسه وقواه الروحية لتلقي الرسالة العظمى والنهوض بها ؛ إذ أغناه الله عن الضرب في الأرض في سبيل الرزق ، فاستطاع أن يتمتع في جانب السيدة بالحياة العائلية الهنيئة المطمئنة من جهة ، وأن يتفرغ من جهة أخرى بنفسه وقلبه وفكره وروحه للتدبر في ملكوت الله وآلائه ، والقيام برياضاته أو اعتكافاته الروحية ، فارغ القلب من هموم المعيشة وضروراتها . ولعلنا لا نتجوز إذا قلنا أن الإشارة القرآنية إلى هذا الحادث بالأسلوب الذي وردت به ، تتضمن تنويها أو بالأحرى تقريراً لاستحقاق الحادث للتنويه . وننبه على أن روايات السيرة لم تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بأي رحلة تجارية ، أو شغل نفسه بأي مشغلة دنيوية كسبية بعد اقترانه بالسيدة خديجة رضى الله عنها وكل ما ذكرته فهو أخبار رياضاته واعتكافاته ، ثم أخبار قليلة أخرى أهمها حادث التحكيم في وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة ؛ وفي هذا توكيد لصحة ما نقرره[2] .

---

(١) هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي وتجتمع هى والنبي في قصي . وكانت أرملة من زوج اسمه أبو هاله وكانت ذات مال تبعث الرجال مع القوافل ليتاجروا لها . فعرض أبو طالب عليها أن تستأجر محمدا فوافقت فخرج بمالها وربحت التجارة فتوثقت الصلة بينهما إلى أن انتهت بالزواج . وكان عمره حين تزوجها خمساً وعشرين وعمرها أربعين . وقد خطبها له عمه أبو طالب من عمها في رواية وأبيها في رواية وابن عمها في رواية .

انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٨ — ٢٠١.

(٢) خبر هذه الاعتكافات أو الرياضات الروحية ورد في حديث رواه البخاري عن عائشة أم المؤمنين سنورد نصه في مناسبة آتية . وقد ورد فيه مايفيد أنه حبب إلى النبي (ص) الخلاء فكان يتزود ويذهب إلى غار حراء للتحنث أى التعبد في أوقات معينة سميت في الحديث بالليالي ذوات العدد . وحين ينفذ زاده يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فيتزود ثم يعود إلى الغار إلى أن نزل عليه الوحى . الثابت اليقيني بنص القرآن أن الوحى القرآني الأول نزل عليه في ليلة من ليالي رمضان . والأحاديث الصحيحة تذكر أنها إحدى ليالى العشر الأخير منه أو ليلة السابع والعشرين منه . والمتبادر أن هذه الليالي هى الليالى التي كان يتزود للاعتكاف فيها والتي سميت ذوات العدد . ولقد روى الطبري في تاريخه (ج ٢ ص ٤٨) أي بعض الورعين من قريش كانوا يعتكفون في هذه الليالي للتعبد . وسيأتي بعد قليل شرح عن حادث التحكيم.

وإنه ليكفي المرأة العربية فخراً أن يكون للسيدة خديجة هذا الأثر العظيم في حياة السيد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذي استمر عظيما بعد بعثته أيضاً إلى أن توفاها الله وهو أثر نوهت به الأحاديث المروية وخاصة في بدأ بعثته ، وما كان من ثنائها عليه وتشجيعها له وتثبيتها إياه ، وإيمانها بكل ما أخبر به ، على ما سوف نشير إليه بعد ، ثم ما كان من تفجع السيد الرسول صلى الله عليه وسلم على وفاتها وأثرها في نفسه وفي سيرته فى أواخر العهد المكى .

أما الآية الثانية : أي « ووجدك ضالا فهدى » فإنها تقرر فيما نعتقد ، حالة ذات خطورة ودلالة كبيرتين في صدد نشأة النبي صلى الله عليه وسلم الروحية .

ولقد قال المفسرون : إن الآية تحتوي إشارة إلى حادث تيهان وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في طفولته أو في إحدى رحلاته ورووا في ذلك روايات ، كما قالوا : إنها تعني أنه كان غافلا عن الشريعة التي لا تتقرر إلا بالوحي الرباني ، أو أنه كان حائراً في أسلوب العبادة لله ؛ ونفوا عنه على أي حال أن يكون ضالا أي « مندمجاً » في العقائد والتقاليد الشركية . والنفس لاتطمئن إلى رواية تيهان النبي صلى الله عليه وسلم مضموناً وسنداً ، بل أنها ليست متسقة مع ماتضمنته الآية من منّ الله على النبي صلى الله عليه وسلم بأعظم أفضاله عليه ؛ وتفسير ضال « بحائر » يحمل معنى الآية على أن المقصود الحيرة في الطريق التي يجب أن يسار فيها إلى الله وعبادته على أفضل وجه ، وهو المعنى الذي نراه ويعضد ذلك :

١ — جملة « مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ » الشورى ٥٢

٢ — آيات الأنعام التالية :

« قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ... ١٦١ - ١٦٣

حتى لكأن هذه الآيات بمثابة شرح وتفسير لآية الضحى .

الصورة الخامسة

ولقد ذكرت ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم في القرآن مرات عدة بحفاوة عظيمة ،في آيات مكية ومدنية ، وفي صدد الجدل والخطاب مع العرب في مكة ومع اليهود في المدينة ، وفي صدد الدعوة إليها والتنويه بها وتقرير صفتها وماهيتها لذاتها أيضاً ، كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... البقرة ١٣٥

٢ — قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... آل عمران ٩٥

٣ — إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... النحل ١٢٠ ـ ١٢٣

٤ — وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ... الحج ٧٨

فهذه الآيات وأمثالها تلهم أن ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم التوحيدية الحنيفية ، كانت مما تتداوله الألسنة قبل البعثة ، وعنوانا على الملة المثلى لمعرفة الله وعبادته .

ولقد وردت روايات عديدة عن أفراد من العرب في مكة ويثرب تخلوا قبل البعثة عن تقاليد العرب الشركية ووحدوا الله ، ومنهم من تنصر بعد ذلك ، ومنهم من عبد الله

على ملة إبراهيم أو ماظنه ملة إبراهيم ، ومنهم من خرج ينشد اليقين عنهما . على ماذكرناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » ومما ورد في تلك الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لقى بعضهم قبل البعثة مثل : زيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل ، وأمية بن أبي الصلت ، وعبد الله بن جحش .

والذي نعتقده وهو ماوصلنا إلى استنتاجه وتقريره أيضاً في كتابنا الآنف الذكر ، ونرى أن الآيات القرآنية تلهمه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من هؤلاء الأفراد الذين أنفوا من تقاليد الآباء الشركية والجاهلية ، واعتنقوا فكرة الوحدانية وأخذوا يعبدون الله على ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم أو ماظنوه كذلك أو أخذوا يبحثون عنها ، ولم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية لما رأوا من انحراف أهلهما واختلافهم وتفرقهم شيعاً متنازعة ، وأنه كان كذلك منذ أن نضج شبابه ، وأن اقترانه بالسيدة خديجة رضى الله عنها ساعده على التفرغ لاتجاهه وحياته الروحية هذه التي كان من مظاهرها الرياضات أو الاعتكافات الروحية السنوية في رمضان وفي غار حراء خاصة على ماسوف يأتي بعد والتي كانت وسيلة من وسائل تصفية نفسه وتجلية ذهنه ، واستغراقه في آلاء الله وملكوته وعظمة كونه ووحدانيته والفناء فيه ، مع شيء من الحيرة وقلق النفس ، إلى أن خصه الله بفضله ، فاصطفاه دون غيره من أهل طبقته لما علمه فيه من مواهب عظمى جعلته أهلا للرسالة ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فصار من الحيرة والقلق إلى الهدى والطمأنينة والخطة الواضحة القويمة .

الصورة السادسة

هذا ، ونريد أن نشير إلى مايردده بعض القوميين من العرب من أن الرسالة المحمدية هي رسالة قومية ، أي أنها استهدفت النهوض بالأمة العربية وإصلاحها وتقويتها وتوحيدها الخ ؛ ومع أن في القرآن آيات تذكر مسئولية العرب عن الرسالة السامية التي شرفهم الله بها مثل :

١ — وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ... الزخرف ٤٤

٢ — وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... الحج ٧٨

فإن في تلك الدعوى في الحقيقة تجوزاً كبيراً ، وإن من الحق أن يقرر أن اتجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته كان دينياً منبعثاً من شعور ذاتي ، أو إلهام ، بما كان عليه العرب من سخف في العقائد الشركية والوثنية ، وانحراف عن سبيل الهدي الديني ، وأن رياضاته الروحية ، وانصرافه عن كل شيء ، واستغراقه في آلاء الله ، في الفترة التي سبقت اتصال وحي الله به ، قد كانت بسبيل ذلك في الدرجة الأولى ، وهذا مفسر لعمومية وإنسانية الدعوة القرآنية وطابعها الديني البارز ، وخاصة في القرآن المكي . ولعل في آية سورة يونس (١٦) التي نقلناها من قبل قرينة قرآنية حاسمة ، إذ تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي كان بعيداً عن أي نشاط وفضول ، ولم تظهر منه أي بادرة من دعوة عامة قومية أو دينية .

ولا يمنع هذا بطبيعة الحال القول إن الرسالة المحمدية قد استهدفت كخطوة أولى إنهاض الأمة العربية وتخليصها من جاهليتها وتوحيدها وطبعها بالطابع الإسلامي الذي أهلها لحمل مشعل الهداية للعالم .

الصورة السابعة

ثانيا : ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على كيفية تعبد النبي صلى الله عليه وسلم لربه قبل البعثة .

ولقد استدللنا في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » بآيات عدة ، مثل آيات البقرة ٤٣ و١٢٥ والأنفال ٣٥ وإبراهيم ٣٧ ومريم ٣١ والحج ٢٦ والإسراء ١٠٧ على أن أهل هـذه البيئة من العرب كانوا يعرفون أن الصلاة مظهر من

مظاهر العبادة لله أو الآلهة ، وأنهم كانوا يقومون بصلاة تعبدية ، وأن حالات القيام والركوع والسجود كانت معروفة وممارسة ككيفيات تعبدية عند العرب والكتابيين، وعند العرب أمام الكعبة بنوع خاص ؛ وبناء على هذا فإننا نستطيع أن نقرر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف هذه الكيفيات ، وأنه كان يمارسها جهراً عند الكعبة وفي خلواته كعمليات تعبدية قبل بعثته لله وحده تبعاً لاتجاهه الديني الذي ذكرناه آنفاً[1]

ثالثاً : إن آية الصوم :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ... » البقرة ١٨٣

صريحة بأن الصوم كعمل تعبدي كان معروفاً وممارساً عند أهل الكتاب الذين كان منهم في الحجاز عدد كبير ؛ ونص الآية يسوغ تقرير أن العرب أيضاً كانوا يعرفون الصوم كعمل تعبدي ديني أيضاً .

أما أنهم كانوا يمارسون ذلك أو يمارسه النبي صلى الله عليه وسلم فليس في القرآن ما يدل عليه ؛ غير أن هناك روايات وأحاديث يمكن أن يستأنس بها على وقوع ذلك ، ولقد ورد في البخاري حديث عن عائشة رضى الله عنها ذكر فيه أن قريشاً كانوا يصومون يوم عاشوراء في الجاهلية وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصومه أيضاً . وهو يوم تجديد أستار الكعبة[2] .

رابعاً : ليس في القرآن نص يمكن الاستدلال به على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤدّي قبل البعثة شعائر الحج ومناسك الكعبة من طواف واعتكاف واستلام وسعي ووقوف بعرفة ، أو أنه كان يقوم بالمناسك ويرعى الحرمات المتنوعة الأخرى كتقريب القرابين وتحريم الصيد والأشهر الحرم الخ الخ ؛ غير أن الآيات الواردة

---

(١) كان زيد بن عمرو أحد أفراد هذه الطبقة قبل البعثة النبوية يناجي ربه فيقول (لبيك حقا حقا . تعبداً ورقاً . عذت بما عاذ به إبراهم. أنني لك راغم . مهما تجشمني فإني جاشم . ثم يسجد) انظر أسد الغابة ج ٢ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩ .

(٢) انظر تفسير آيات الصيام في تفسير الخازن وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ـ ج ٥ ص ٤٠٦

في شعــائر الحج ومناسك الـكعبة المتنوعة تدل دلالة لا ريب فيها على أن جل مافي الإسلام من هذه الشعائر كان يمارسه العرب قبل البعثة ، فلما جاء الإسلام طهره من شوائب الشرك والوثنيـة على ماقررناه في كتاب عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة ، وبناء على هذا فإن مما يسوغ الجزم به أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم بمختلف شعائر الحج ومناسك الـكعبة قبل البعثـة مجردة من شوائب الشرك والوثنية تبعاً لاتجاهه الديني التوحيدي أيضاً ومما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام أن العرب كانوا يعزون هذه الشعائر والمناسك إلى ملة إبراهيم . وقد أيدت النصوص القرآنية ذلك في آيات عديدة مثـل آيات سورة الحج (٢٥ ـ ٢٦) وسورة البقرة ١٢٤ ـ ١٢٩ وسورة آل عمران (٩٥ ـ ٩٧) وقد كان النبي ممن ينشدون ملة إبراهيم ، ولـكنه كان على يقين أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ؛ فمن المعقول أن يكون قد مارس تلك الشعائر والمنـاسك منزهة عن تلك الشوائب .

الصورة الثامنة

خامساً : في القرآن قضية معينة متصلة بممارسة النبي صلى الله عليه وسلم لتقليد من تقاليد الجاهلية ، وهى قضية تبنيه لزيد بن حارثة[1] ، والمجمع عليه أن هذا التبني قد كان قبل البعثة .

أما النص القرآني الذى يتضمن تبني النبي صلى الله عليه وسلم لزيد فهو هذا :

---

(١) هو زيد بن حارثة بن شراحيل الـكلبي . وكان مملوكاً للسيدة خديجة رضى الله عنها فاستوهبه النبي (صلعم) منها وأعتقه . وجاء أبوه فخيره النبي بين البقاء عنده أو الذهاب مع أبيــه فاختار البقاء فتبرأ أبوه منه فأعلن النبي (صلعم) على ملأ الناس تبنيه له حسب العادة المعروفة فصار يدعى زيد بن محمد . وكان ذلك قبل البعثة . وظل يسمى بهــذا الاسم إلى أن أبطل القرآن تقليد التبني وتبعاته . وأمر بنسبة المتبنين إلى آبائهم في آية سورة الأحزاب الخامسة التي تقول (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) فصار يدعى زيد بن حارثة . وفي فصل التفسير في صحيح البخاري حديث عن ابن عمر جاء فيه ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمـد حتى نزل القرآن (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) انظر أيضاً : تفسير آية الأحزاب في تفسير البغوي والطبرسي وانظر أسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلاً مُّبِيناً . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ... الأحزاب ٣٦ ـ ٣٧

وهناك آية أخرى تنفي أبوّة النبي صلى الله عليه وسلم لزيد جاءت بعد قليل من هذه الآيات وهى :

« مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ... الأحزاب ٤٠

والآيات تحتوي قرائن قوية على أن قضية زيد متصلة بالنبي صلى الله عليه وسلم وتبنيه ، وأنها بسبيل إبطال هذا التقليد وآثاره التي فصلناها في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ، والتي منها حرمة نكاح مطلقة أو أرملة المتبني أسوة بحرمة نكاح مطلقة الابن من الصلب أو أرملته .

وإذا لم يكن في القرآن ما يستدل به على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمارس قبل بعثته تقليداً آخر من التقاليد العائلية والاجتماعية التي كانت جارية في بيئته فإننا نرجح، إن لم نقل نجزم ، قياساً على ممارسته هذا التقليد وتقاليد الحج المتنوعة ، أنه كان يمارس غير هذه وذاك أيضاً .

وفي أخبار السيرة خبر اشتراك النبي صلى الله عليه وسلم في حرب الفجار حيث كان يهيىء السهام ويعطيها لبعض أعمامه وهو فتى ، وخبر اشتراكه أو شهوده عقد حلف

الفضول ، وخبر تحكيمه في أمر وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة عند تجديد بنائها الخ الخ[1] .

على أن من الواجب أن ننبه إلى أن ثناء القرآن على أخلاقه في آيات مبكرة جدا في النزول وهى آيات سورة القلم :

« نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... ١ — ٤

يدل دلالة حاسمة على أنه لم يكن يتورط في عادة أو تقليد جاهلى ينبو عنه الذوق السليم والخلق الكريم ولا يتسق مع انصرافه إلى الله وحده واعتكافاته ورياضاته الروحية ، من مثل أكل الميتة وشرب الخمر ومقارفة الزنا والقمار وتقريب القرابين للأوثان . والاشتراك في حفلات وطقوس عبادتها وتكريمها الخ الخ .

---

(١) في هذه الجملة ثلاثة أخبار . وهذا موجز فيها :

١ — حرب الفجار التي شهدها النبي كانت بسبب عدوان وقع في منطقة الحرم . والكلمة تعني ذلك . وكانت بين قريش وبعض حلفائهم من ناحية وبين بعض قبائل قيس بن عيلان من ناحية . وهناك حديث مروي عن النبي (صلعم) ذكر فيه أنه حضر هذه الحرب مع عمومته ورمى فيها بأسهم وقال وما أحب أني لم أكن فعلت . وكان عمره إذ ذاك نحو عشرين سنة . (ابن سعد ج ا ص ١٠٩ — ١١٠) .

وفي رواية ابن هشام عن هذا الخبر أن النبي قال : كنت أنبل على أعمامي أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها . (ج ١ ص ١٨٦) .

٢ — حلف الفضول . بعد أن انتهت حرب الفجار المذكورة اجتمع بعض زعماء بطون قريش في دار أحدهم عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه . وشهد النبي الاجتماع وروى عنه أنه قال (ماأحب أنلي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حمرالنعم وإني أغدر به . وقد تحالفت هاشم وزهرة وتيم أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحرصوفة . ولو دعيت به لأجبت وهو حلف الفضول . (ابن‌سعد ج ١ ص ١١٠ — ١١١) .

٣ — حادث التحكيم . تعرضت الكعبة لسيل شديد صدعها فاتفق زعماء قريش على هدمها وتجديد بنائها . ثم اختلفوا على من يضع الحجر الأسود — وهو حجر صواني لامع كان من تقليدالعرب أنه نزل‌من السماء وأنه هدية سماوية مقدسة فتبركو به ووضعوه في ركن الكعبة تعظيما له وكانوا يقبلونه أو يلمسونه أو يومئون إليه كلما طافوا بالكعبة في مكانه حتى كادوا يقتتلون . ثم اقترح بعضهم تحكيم أول داخل إلى الحرم فكان محمداً فارتاحوا وهتفوا إنه الأمين وكان قد اشتهر بهذا النعت وحكموه فوضع الحجر في ثوب وطلب إلى زعماء قريش أن يمسكوا بأطرافه ويرفعوه معاً إلىأن بلغ مكانه فوضعه فيه بيده فأرضى بتدبيره الحكيم الجميع . (ابن هشام ج ١ ص ٢٠٤ — ٢١٤ وابن سعد ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٩) .

الصورة التاسعة

سادساً : في سورة النحل آية تحكى دعوى بعض الكفار أن شخصا أجنبيا معينا كان يعلم النبي ، وترد هذه الدعوى ، وهى هذه الآية :

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ... ١٠٣

والآية تنفي التعليم الذي أراد ناسبوه في ادعائهم جحود نزول الوحي الرباني بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، غير أنها لا تنفي اتصالا ما بينه وبين أحد أفراد الجالية الأجنبية كما هو ظاهر ؛ والمتبادر أن الجاحدين لم يكونوا ليقولوا ماقالوه لو لم يروا أو يعرفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتردد على شخص من أفراد هذه الجالية في مكة هو أهل علم وتعليم ديني ، وله وقوف على الكتب الدينية السماوية . ولقد أورد المفسرون في سياق هذه الآية رواية مفادها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتردد فعلا على نصراني غير عربي اسمه جبر كان يشتغل بالحدادة ، وأنه كان يستمع أحياناً إلى مايقرأ من تلك الكتب[1] . وليس من المستبعد — إن لم نقل من المرجح — أن يكون هذا الاتصال بقطع النظر عن اسم الشخص وصنعته ، قبل البعثة ، ثم امتد إلى مابعد البعثة ، وأن يكون الشخص المنسوب إليه تعليم النبي ممن آمن به وصدق برسالته واندمج في دعوته ، وكان ممن تشير إليهم الآيات المكية الكثيرة التي تستشهد على صحة الرسالة النبوية بهم وتذكر فرحهم بما أنزل الله على النبي صلى الله عليه وسلم وإيمانهم به ، مثل آيات القصص ٥٢ — ٥٣ — والأسراء ١٠٧ — ١٠٩ التي نقلناها في مناسبة سابقة ، ومثل الآيات التالية :

---

(١) انظر تفسير الآية في تفسير الطبري والزمخشري . وقد ذكرت الروايات أسماء أخرى في هذا السياق منها اسم عائش أو يعيش غلام حويطب بن عبد العزى وكان صاحب كتب وعلم . ومنها اسم بلعام وكان حداداً نصرانياً وكان النبي يمر عليه ويقف عنده أو يدخل إلى محله على مرأى من المشركين .

١ — ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ . . .
الأنعام ٢٠

٢ — وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ . . .
الأنعام ١١٤

٣ — وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ... الرعد ٣٦

سابعاً : في سورة الفرقان آية تحكي كذلك دعوى بعض الكفار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعين في نظم القرآن بقوم آخرين ، كما ترى :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ... ٤

والآية إنما تنفي كذلك دعوى الاستعانة ولا تنفي اتصالا أو صحبة بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من الناس ، كما أن تعبير « قوم ءاخرون » يلهم أن المنسوب إليهم أكثر من واحد والذي يتبادر إلى الذهن أن الكفار لم يكونوا ليقولوا ماقالوه مما حكته الآية لو لم يروا أو يعرفوا أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم حلقة أو رفاق يجتمعون إليه ويجتمع إليهم ويتحدثون في الأمور الدينية . وليس من المستبعد ـ إن لم نقل من المرجح ـ أن هذا كان قبل البعثة ثم امتد إلى مابعدها ، وأن يكون من هؤلاء الرفاق أفراد من الجالية الكتابية الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واندمجوا في دعوته ، وممن كانت تعنيهم تلك الآيات المكية . وقد ذكرت الروايات أسماء عدد من هؤلاء بين المسلمين السابقين كسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي رضى الله عنهم . ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه صديق النبي صلى الله عليه وسلم الصدوق قبل البعثة ، وكان دائم الاتصال به على ما ذكرته الروايات المتعددة ، وكان أول من آمن به من الرجال ، وكان بعض كبار الصحابة مثل عثمان وسعد وسعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبى عبيدة رضوان الله عليهم كذلك من المؤمنين السابقين ، وكانوا من فتيان قريش

النبيين الذين يكتبون ويقرأون ، فلا يبعد أن يكون هؤلاء وغيرهم ممن لم نذكر من السابقين الأولين من فتيان قريش أيضاً ـ من هذه الحلقة أو هؤلاء الرفاق .

الصورة العاشرة

ثامناً : في القرآن بعض آيات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان غافلا قبل نزول القرآن عليه كما ترى في الآية التالية :

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَٰفِلِينَ يوسف ٣

وأن الله قد علمه ما لم يكن يعلم كما ترى في الآية التالية :

« وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ... النساء ١١٣

وأنه لم يكن يتلو قبل القرآن من كتاب ولا يخطه بيمينه ؛ وقد سيق هذا للتدليل على عدم وجاهة ارتياب الجاحدين في صحة التنزيل والوحي الرباني كما ترى في الآية التالية :

« وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ... العنكبوت ٤٨

فهذه الآيات وأمثالها قد حملت على ما يبدو بعض علماء المسلمين على نفي الاكتساب العلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، بل على بذل الجهد في هذا النفي وتوكيده وهذا ما جعلنا نتعرض لهذا الأمر في هذه النبذة؛ لأن له صلة وثيقة بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته قبل البعثة .

ونحن لا نرى حكمة أو ضرورة تحمل هؤلاء العلماء على نفي الاكتساب العلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبذل الجهد في هذا النفي ، كما أننا لا نرى هذه

الآيات تتعارض مع صحة القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد اكتسب معارف كثيرة مما كانت تحتويه الكتب الدينية وغيرها من مبادىء وأسس وتشريعات وقصص ومما كان يدور على ألسنة الناس من مثل ذلك ، كتابيين كانوا أو غير كتابيين ، بسبب تلك الاتصالات التي تلهم وقوعها الآيات القرآنية ، وبسبب الرحلات التي أجمعت الروايات على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قام بها ، وبسبب طبيعة وجوده في بيئة تلم إلماماً غير يسير بهذه المعارف ؛ وكل ما في الأمر أن هذه الآيات هى بسبيل توكيد صحة الوحي الرباني والتنزيل القرآنى ، والتنبيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قد فكر قبل الوحى والتنزيل بالدعوة أو أمّل بأن يكون هو الذي اصطفاه الله ورآه أهلا لوحيه وتنزيله مما يمكن أن تكون الآيات التالية قد أرادت تقريره كما ترى فيها :

١ — قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [1] ... يونس ١٦

٢ — وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . .

القصص ٨٦

٣ — وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا . . .

الشورى ٥٢

ولقد أثبتنا بالاستدلالات القرآنية في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » أن أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا على اتصال بالأمم الكتابية وغير الكتابية عن طريق المستقرين منهم في الحجاز وعن طريق الرحلات المستمرة

---

(١) تتضمن الآية فوق ذلك إشارة إلى أنه لم يبدر منه قبل نزول القرآن بادرة دعوة أو سعى في سبيلها حتى يكون للجاحدين مسوغ لاتهامه بافتراء القرآن ونسبته الدعوة إلى الله مؤخراً .

إلى البلاد المجاورة ، وأن كثيرا من أخبارهم ومعارفهم وعقائدهم ومقالاتهم وأحوالهم قد تسربت إلى العرب وشاهدوا مشاهدها التاريخية والمعاصرة ، وليس من الطبيعي ولا من المعقول أن يبقى النبي صلى الله عليه وسلم في عزلة أو غفلة عن هذا كله ؛ وإذا كان من الحقائق التي لا يصح المماراة فيها أن الله قد علم النبي بوحيه وتنزيله أموراً متنوعة كثيرة كان غافلا عنها هو وقومه ، فإن ذلك لا يقتضي أنه كان غافلا عن كل ما حوله من أمور وما يدور في بيئته وعلى ألسنة معاصريه من كتابيين وغير كتابيين وعرب وغير عرب من أنباء وقصص وظروف وحالات ؛ فإن هذا يناقض طبائع الأشياء .

ولقد يقال إن في القرآن آيات قررت أن النبي صلى الله عليه وسلم وقومه لم يكونوا يعلمون ما جاءت به القصص القرآنية ، مثل الآيتين التاليتين :

١ — « تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ... هود ٤٩

٢ — « ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ... يوسف ١٠٢

غير أننا لا نرى هذا مما ينقض ما قلناه أو يتعارض معه ؛ فهناك آيات كثيرة أخرى فيها مؤيدات على أن العرب لم يكونوا غافلين أو جاهلين لكثير مما كانوا يسمعونه من قصص القرآن وأخبار الأنبياء والأمم الغابرة وأحوالهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ... الأنفال ٣١

٢ — « بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ... الأنبياء ٥

٣ — فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَ لَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ... القصص ٤٨

٤ — وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ... العنكبوت ٣٨

٥ — وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١) . . .

الصافات ١٣٧ ــ ١٣٨

فآيتا هود ويوسف لا تقرران شمول نفي علم النبي وقومه بكل قصة أو خبر قرآني قبل نزول القرآن ، وإنما هما بسبيل قصتي نوح ويوسف صلى الله عليهما وسلم اللتين جاءت الآيتان عقبهما ، فمن الجائز أن يكون في القصتين بعض المعاني أو المواقف الدقيقة التي غفل عنها النبي صلى الله عليه وسلم والسامعون ، وأن تكون الآيتان إنما عنتا ذلك ، لاسيا أن قصتي نوح ويوسف صلى الله عليهما وسلم من القصص الواردة في سفر التكوين من أسفار التوراة بإسهاب ، وقد كانت التوراة متداولة بين أيدي الكتابيين وخاصة اليهود الذين كان منهم جاليات كبيرة مستقرة في الحجاز كما هو معروف ؛ وليس مما يصح فرضه أن تكون القصتان برمتهما مجهولتين جهلا تاماً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرهما من القصص القرآنية الواردة في التوراة .

ومعلوم أن في القرآن إشارات إلى أمور كثيرة جدا مما كان عليه الناس في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ودائراً فيها من شؤون وظروف وحالات دينية واجتماعية وأخلاقية ومعاشية ومعارف وأنباء تناولها القرآن بالذكر جدلا وعظة وتعليما وتنديداً وإصلاحاً وتشريعاً وحظراً وإباحة ، ولا يقول أحد بطبيعة الحال إن هذه الأمور جاءت في القرآن جديدة ، أو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أو يمكن أن يكون في غفلة أو عزلة عنها

---

(١) يعني قوم لوط وأطلالهم المدمرة في طريق القوافل التجارية الحجازية .

قبل بعثته ، وكثير منها متصل بتاريخ وأحوال وتقاليد وظروف عربية وغير عربية ، وليس هناك فرق فيما نعتقد في المدى بين الحالتين .

الصّورة الحادية عشرة

تاسعاً : أن في الفقرة الثانية من آية يونس (١٦) التي نقلناها منذ قريب تدليلا لأهل مكة أو لزعمائهم على أن الدعوة النبوية والتنزيل القرآني من أمر الله ووحيه ، إذ لو كانت الدعوة من عند النبي صلى الله عليه وسلم لبدت منها بوادر قبل بعثته أيضاً ، على حين أن شيئاً من هذا لم يبدر منه في السنين الطويلة السابقة التي قضاها بين قومه ، ففي هذا التقرير صورة لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته من انقباضه وعدم تدخله فيما لا يعنيه وعدم ابتداره الناس بأى شأن متصل بعقائدهم وتقاليدهم الدينية . والفقرة القرآنية تنطوي على تذكير زعماء مكة بهذه الصورة النبوية في الحقبة الطويلة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، والتي نعتقد أنه قضاها في الاعتكافات والرياضات الروحية ، وخاصة منذ نضج شبابه وسكون نفسه بالطمأنينة العائلية ، وإغناء الله له عن الضرب في الأرض ابتغاء الرزق على ما ذكرناه قبل .

ونظن أننا في غنى عن القول بأنه لا تعارض بين هذه الصورة وما ذكرناه في الفقرتين السابقتين ، من ترجيح تردده على بعض الكتابيين ، ووجود حلقة رفاق له يجتمع إليهم من الكتابيين وغيرهم ، وجريان الحديث بينه وبينهم في أمور دينية وثقافية متنوعة ؛ فهذه دائرة ضيقة وخاصة كما هو واضح ، بل قد تكون حلقة من حلقات اعتكافاته ورياضاته الروحية .

عاشراً : في سورة « المؤمنون » الآية التالية :

« أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ... ٦٩

وقد جاءت في سياق التنديد بكفار قريش على تكذيبهم وجحودهم وعدم

تدبرهم فيما جاءهم ورميهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون أو مخالطة الجن له كما ترى فيما يلي :

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ... ٦٨ — ٧٠

والسؤال في الآية (٦٩) استنكاري ، للتنديد بالكفار على تجاهلهم للنبي صلى الله عليه وسلم مع أنهم يعرفونه حق المعرفة ، ويتضمن تعبير « يعرفوا » معاني عديدة كما تلهمه روح الآية ؛ أي أنهم يعرفونه بالعقل الراجح ، والأمانة والصدق ، وبعدم الفضول والتدخل فيما لا يعنيه ، وبحبه الخير ومكارم الأخلاق واشتهاره بهما ، وبانقباضه عن الشرور والمنكرات والفواحش ومواقف التهم ؛ لأن التنديد بالكفار لم يكن ليستحكم إلا على تجاهلهم مثل هذه الصفات السامية التي يعرفونها فيه تمام المعرفة من قبل .

وفي كل هذا صور عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته من أحوال وأخلاق معروفة ، ومكانة محترمة بسببها . ولقد روت روايات السيرة المعتبرة حادث تحكيم زعماء قريش النبيّ صلى الله عليه وسلم في الخلاف على وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة ، وأنهم كانوا يسمونه الأمين ، وإن قوة الصورة التي تتضمنها الآية لتلهم بأن هذا الحادث صحيح ، كما تلهم أن تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بهذه التسمية العظيمة صحيحة أيضاً .

الصورة الثانية عشرة

حادي عشر : في سورة الزخرف الآية التالية :

« وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ... ٣١

وقد تضمنت الآية حكاية حنق الزعماء وعجبهم لعدم نزول القرآن على عظيم من

عظماء مكة والطائف ، واختصاص النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الشرف الرباني . ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ على أنه كان معروفا غير نكرة على ماذكرناه في الفقرة السابقة ، وعلى أنه كان من بطن ذي مكانة محترمة وعصبية عزيزة على ماذكرناه في فقرة قبلها ـ لم يكن من الزعماء البارزين في بيئته ، وأن هذا كان من أسباب وقوف زعماء قريش منه موقف الاستكبار والأنفة ، ترفعا عن اتباع شخص ليس له زعامة توجب الطاعة وتبرر الاتباع ، فقد كان للزعامة أثر ودور قويان في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم. وعصره قبل البعثة كما ذكرنا ذلك في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيئته ، ولقد رددت آيات أخرى هذه الأقوال والمعاني وردّت عليها كما ترى :

١ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... الأنعام ١٢٣ — ١٢٤

٢ — وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ... الفرقان ٤١

٣ — وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا . ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ... فاطر ٤٢ ـ ٤٣

٤ — أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ... صٓ ٨

ونظن أننا في غنى هنا أيضا عن التنبيه إلى أن عدم بروز النبي صلى الله عليه وسلم في مجال الزعامة ، وما ورد في آية الفرقان من حكاية استهزاء الكفار به ، لا يتناقض مع ماقلناه في الفقرات السابقة من أنه كان معروفاً برجاحة العقل ومكارم الأخلاق ، ومن أن عشيرته الأقربين كانت ذات مكانة محترمة وجانب عزيز ، فليس ضروريا أن يكون كل معروف بكرم الخلق ورجاحة العقل ، أو كل فرد من عشيرة ذات مكانة

في المجتمع ، زعيما عظيما بارزاً كما لا يخفى . ولعل هذا ما استهدفت تقريره الآية التي تلت آية الزخرف التي نقلناها وهي :

« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ... ٣٢

إذ ردّت على الزعماء الذين أبدوا العجب لاختصاص النبي صلى الله عليه وسلم من دونهم بالرسالة — مع أنهم الزعماء النافذون المطاعون إذا أمروا ، والمستجابون إذا دعوا — ردا حاسما بأن هذه أعراض دنيوية ، وبأن أمر النبوة رحمة ربانية خاصة منوطة بمؤهلات عظمى لا تمت إلى تلك الزعامات والأعراض الدنيوية بسبب ، وهو ماقررته آيات الأنعام أيضاً بسبيل الردّ عليهم كما هو ظاهر .

ثاني عشر : إن آية العنكبوت ٤٨ التي نقلناها تضمنت نصاً صريحاً على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتب أو يقرأ قبل بعثته ، وصيغة الآية تدل على أن هذا الأمر لم يكن يجهله قومه ، إذ تساق في معرض التدليل على صحة الوحي والتنزيل الرباني وفي سورة الفرقان آية أخرى قد تكون مؤيدة للنقطة الأخيرة خاصة وللنقطة الأولى أيضاً وهي :

« وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا... ٥

فتعبير « تملى عليه » بمعنى : تتلى عليه ، وتعبير « اكتتبها » بمعنى استكتبها[1] والقول حكاية عن الكفار ، أي أنهم كانوا يقولون : إنه كان يستكتب قصص الأمم السابقة ويستمع إلى من يتلوها عليه صبحاً ومساء حتى يحفظها ثم يقصها على أنها وحي من الله ، وهذا يؤيد أنه كان لا يقرأ ولا يكتب ، وأن زعماء مكة كانوا يعرفون ذلك .

(١) اقرأ تفسير الطبري والكشاف لآية الفرقان .

وننبه أولاً إلى أن هاتين الآيتين هما اللتان تفيدان أن النبي لم يكن يقرأ أو يكتب لا كلمة « الأمي » التي وصف بهـا في آيتي الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ اللتين نقلنـاهما في مناسبـة سابقة ، إذ إن هـذه الـكلمة قد استعملت فيهما كما استعمل جمعها في الآيات القرآنية الأخرى[١] بمعنى غير كتابي وغير كتابيين ، وصفـاً للعرب الذين هم ليسوا أهل كتاب .

وثانياً إلى أن آية العنكبوت إنما تنفي معرفة القراءة والـكتابة عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثتـه ؛ ولقد وردت روايات تفيد أنه كان بعد بعثته يكتب اسمه ، وأنه محـا كتابة معينة بيده في أثناء مفاوضات صلح الحديبية وكتابة عقد الصلح[٢] . وبقطع النظر عن سند ومضمون تلك الروايات فليس من المستبعد أن يكون قد تعلم القراءة والـكتابة بعد بعثته ، كما أن الآية لا تنفي ذلك ، غير أن هذا ، إن كان وقع ، قد ظل فيما نعتقد في دائرة محدودة لا تعدو كتابة الاسم أو قراءة بعض الجمل ، لأنه لو تعدى هذه الدائرة لأثر في الروايات والأحاديث على الأقل .

وثالثاً لقد رأينا بعض المستشرقين[٣] يحاول البرهنة على أنه من غير المعقول ألا يكون النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً كاتباً على حين قد احتوى القرآن على معارف كتابيـة كثيرة ، وكان كثير من فتيان قريش من أمثاله وفي مثل سنه يقرأون ويكتبون ؛ بل قد رأينا بعضهم يزعم أنه كان يكتب ويقرأ وإنما كان يحاول كتمان ذلك عن النـاس وعن أصدقائه الذين يعرفون ذلك فيه . ومع أننا لا نرى كبير شيء في كتابة النبي صلى الله عليه وسلم وقراءته وعدمهما ، كما لا نرى إلمامه بذلك أو عدمه ينقص من عظمة شأنه على

---

(١) يمكن استثناء آية البقرة ٧٨ لاحتمال دلالة « الأميين » فيها على معنى الضعفاء في القراءة والـكتابة أو الجهال .

(٢) روى الطبري في تاريخه ج ٢ ص ٢٨٢ أن النبي صلى الله عليـه وسلم أملى عَلَيّ علي رضى الله عنه عقد الصلح وهو : (هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله) فقال مفاوض قريش : لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك ! فقال لعلي : امح رسول الله ، فقال : لا والله لا أمحوك أبداً ، فأخذ رسول الله الورقة وليس يحسن يكتب فـكتب مكان رسول الله : محمد .

(٣) كايتاني في بحث الخط العربي ونشأته .

ماسوف نبينه بعد قليل ، فإننا نرى ذلك الزعم غير سليم وغير مستقيم ، وخاصة بالنسبة لما قبل البعثة تجاه صراحة آية العنكبوت التي كانت تتلى على النـاس وعلى أصـدقائه الأدنين الذين يرون صدقه وأمانته وإخلاصه من المقدسات التي تعلو فوق كل مظنة والتي يقوم عليها إيمانهم برسالته ؛ فلا يعقل بأي حال أن تنطوي آية قرآنية على نفي شيء يعرفون عكسه ، كما لا يعقل بأي حال أن يحاول النبي صلى الله عليه وسلم كتمان أمر مثل هذا عن الناس وعن أصدقائه وهم يعرفون صفته ، وليس من الضروري أن يكون قارئاً كاتباً لأن أمثاله ولداته قارئون كاتبون ؛ إذ من الممكن أن يكون عدم قراءته وكتابته بسبب ظروف حياته الخاصة ، إذ تيسر لرفاقه ولداته مالم يتيسر له ، وهو اختلاف طبيعي ونعتقد أنه هو الواقع .

أما الدعوى بأن ما اكتسبه النبي صلى الله عليه وسلم من معـارف كثيرة كتابية وغير كتابية وتاريخية وجغرافية واجتماعية وكونية ودينية تتوقف على معرفته الكتابة والقراءة ، فمنشؤها في نظرنا أن الباحثين ينظرون بعين الحاضر وعقله أكثر مما ينظرون بعين زمن مضى منذ أربعة عشر قرنا وعقله في بيئة مثل بيئة الحجاز بنوع خاص . وقليل من التفكير يكفي لتبين الغلو في هذه النظرة ؛ فلا مطابع ولا مكاتب ولا وراقة ولا كتب منتشرة متيسرة ، وكل ما هنالك بعض كتب ورسائل وصحف دينية مكتوبة على الأعم الأغلب بغير اللغة العربية ، وفي نطاق محدود جداً . ومن المعقول جدا أن يكون الاعتماد في مثل هذه الظروف على الذاكرة الواعية : وليس بدعاً ولا غريباً أن يكون السماع والحفظ هما طريق اكتساب المعارف التي اكتسبها النبي صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته وبعدها — إن لم يكن اكتسابه بالوحي الرباني — ومثل هذا غير نادر الوقوع في كل زمان ومكان إلى اليوم ، ومن الأولى أن يكون هو الأكثر حـدوثاً في عصر النبي صلى الله عليـه وسلم وبيئته .

ورابعاً ما دام اكتساب المعارف ليس متوقفاً على القراءة والكتابة لا سيما في ذلك العصر وتلك البيئة ، وما دامت المعارف الكثيرة التي تعلمها النبي صلى الله عليه

وسلم بطريق الوحي والتنزيل الرباني لا تتعارض مع احتمال ، بل حقيقة ، اكتسابه كثيراً من المعارف المتنوعة عن غير طريق الوحي لا سيما قبل بعثته ، فإننا لا نرى في عدم كتابة النبي صلى الله عليه وسلم وقراءته ما يحاول أن يراه بعض علماء المسلمين أيضا للتدليل على دعوى أنه لم يكتسب شيئاً من المعارف اكتساباً خارج نطاق الوحي ، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها ، لأن في هذا غلوا لا نرى له محلا ولا إليه ضرورة في صدد كرامة النبي صلى الله عليه وسلم وعظمة شأنه وقدره ، فوق ما فيه من التناقض مع طبائع الأشياء على ما ذكرناه من قبل بشيء من الإسهاب . ولقد يتوهم متوهم أن فى آية العنكبوت نفسها ما ينقض قولنا هذا ، و نحن لا نعتقد ذلك ؛ لأن الآية بسبيل التدليل على صحة الوحي الرباني بالقرآن والتنديد بجاحدي ذلك ؛ والمعارف التي يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد اكتسبها شيء ، وأسلوب الكتب السماوية التي كانت تتداولها الأيدي شيء ، والوحي القرآني فى طابعه وأسلوبه وطريقته ومداه وروحانيته المستولية النافذة شيء آخر . وكأنما تقول الآية : لو كنت تقرأ وتكتب ولم يكن القرآن وحى الله لكان في أسلوبه ومداه ونظمه وطريقته كالكتب المعروفة المتداولة ، ولكان للجاحدين المبطلين أن يجدوا سبباً للارتياب . ولا تعارض البتة فيما نعتقد بين هذا وبين ما قررناه مدى ومعنى .

المبحث الثالث

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله

في القرآن من وصف أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله مايغني عن التزيد — تجاهل المستشرقين والمبشرين لنصوص القرآن وتمسكهم بالروايات ومدى ذلك — العبرة في موقف النبي صلى الله عليه وسلم من هجمات كفار العرب — تحليلات واستدلالات في صدد أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة — مدى ثناء القرآن على خلقه العظيم في آيات مبكرة — لين جانبه وعدم فظاظته وغلظته — رأفته وحرصه — حياؤه — حزنه لعدم اهتداء قومه ومغزاه — بطولته في ميادين الحرب — استغراقه في مهمته وتعاليه عن مباهج الحياة — جرأته على الزعماء ومعناها — صدقه وأمانته — معرفته لحدوده وإخلاصه — صلة مابين أخلاقه بعد البعثة بأخلاقه قبلها — أخلاقه وفضائله الأخرى — تفنيد ما نسب إليه من الجنون والسحر والشعر والكهانة والافتراء .

الصورة الأولى

في القرآن آيات كثيرة جداً من شأنها أن تساعد على إعطاء صورة مشرقة قوية وصادقة لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله ، تغني عن كثير من المبالغات التي يعمد إليها بعض المسلمين على غير ضرورة وعلى غير سند وثيق ، كما أن من شأنها أن تكون ردا حاسما وقويا على الموقف المنكر الذى يقفه سفهاء المبشرين ، ومغرضو المستشرقين من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله ، إذ يتجاهلون أو يغفلون عما في القرآن في نصوص وتقريرات ، ويتمسكون دونها بالروايات التي كثيراً ما تكون مخترعة أو مدسوسة أوضعيفة ، أو يشوهونها أو يحملونها ما لا تحتمل فينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأخلاق والصفات والأعمال المعيبة أو المريبة أو المسفة ، أو يعزون إليه التناقض بين الأقوال والأفعال وخاصة في العهد المدنى ؛ في حين أن في القرآن من الآيات ما فيه كل المقنع لمن لم يختم الله على قلبه بما كان عليه السيد الرسول عليه السلام من

الصميمية والرحمة والصدق والبساطة والتجرد والزهد والاستغراق في الله والتزام المثل الأعلى وإعطاء القدوة الحسنى لذلك كله ، وتبليغه كل ما كان يوحى إليه من الآيات التي احتوت المؤاخذة والعتاب واللوم على ما كان يبدو منه من تصرفات اجتهادية تخالف ما في علم الله أنه الأولى ، وفيه ما يحمل كل منصف من غير المسلمين إذ يقرأ تلك الآيات - بل إذ يقرأ القرآن كله - على اليقين بعظمة النبي صلى الله عليه وسلم كل العظمة ، لا سيما حين يطلع على الصورة القرآنية الصادقة القوية التي تضمنت قصة ما كان من نضال بينه وبين الجاحدين ، وحكاية ما كانوا يتقولونه عليه ، وينسبونه إليه من مثل تلك الأقاويل والنسب ، وما كان يرد عليهم القرآن من الردود الساحقة المفحمة ؛ ثم اليقين بما يمكن أن يدل عليه ذلك النضال في أدوار الدعوة المختلفة من قوة شخصية ، وما كان له من نصاعة بيان وسلامة منطق وسطوع حجة وإخلاص وبساطة مشرقة أخاذة .

الصورة الثانية

وإنه لمما يذهل الإنسان ويثير فيه أشد العجب أن يكون القرآن في متناول كل شخص ، وفيه ما فيه من الدعوة القوية إلى الله وحده منزها عن كل شائبة ، وتوطيد الإيمان والاحترام لجميع أنبيائه وكتبه ، وفيه ما فيه من الحض على كل مكرمة أخلاقية واجتماعية وإنسانية ، والتشنيع على الظلم والإثم والباطل والفواحش ما ظهر منها وما بطن والحث على السلم والسلام . والبر بكل مسالم ، ومراعاة العدل والحق في كل موقف وجعلهما فوق كل اعتبار ، والدعوة بالموعظة والحكمة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى ، وفيه ما فيه من حكاية مواقف أهل الكتاب وخاصة النصارى وفيهم القسيسون والرهبان وما كان منهم من خشوع وخضوع وتصديق واندماج ، حينما لقوا النبي صلى الله عليه وسلم واستمعوا له وشاهدوا أعلام نبوته الصادقة - ثم يكون من هؤلاء الناس الذين يزعمون أنهم داعون إلى الله وهادون إلى

سبيله ومبشرون بملكوته وحاضون على المحبة والسلام ، وأنهم القيمون على الحضارة الإنسانية والآداب الإنسانية والحرية الإنسانية ـ يكون منهم هذا الجحود وهذا التجاهل وهذا الحقد وهذا الإقذاع في النيل من شخصية من بلغ هذا القرآن وتخلق بأخلاقه وقام بدعوته ، وتحمل في سبيل ذلك راضيا مطمئنا مالا يتحمله إلا أولو العزم الجبار والإيمان الفياض . ومهما يبلغ الحقد في الناس من العمق والشدة ، فإنه ليكون من البشاعة في أقصى درجاتها أن يكابر بعض الناس في إيمان هذه الشخصية الكريمة الطاهرة وقوة عقلها وعمق صدقها ونبل خلقها وإخلاص قلبها .

الصّورة الثالثة

وإنه لمن العجيب الذى يزيد في غثاثة موقف هؤلاء أن يكون كفار العرب قد وجهوا إلى صاحب الرسالة نفسه وفي حياته كل تهمة ، ورموه بكل فرية ، ونسبوا إليه كل نسبة على أوسع مدى مما يوجهه هؤلاء ويرمونه به وينسبونه إليه ، كالكذب والافتراء والاستعانة بالغير والأخذ عمن سبق والتعلم والجنون والسحر والشعر والكهانة ، مما حكاه القرآن ، وأن يصمد لهم صموداً باهراً ، وأن يرد عليهم بلسان الوحى القرآني كل ما يتهمونه به وينسبونه إليه ردا قوياً مفحما ولاذعاً ، وأن يستمر في دعوته ثابت الجنان ، قوى الإيمان ، إلى أن صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى الدنيا ، وإلى أن اندمج فيها أكثرية العرب الساحقة بما فيهم أولئك الذين كذبوا وماروا وجحدوا ونسبوا إليه ما نسبوا إذ لم يعد في إمكانهم المكابرة والمماراة وقد رأوا هُم أيضاً من أعلام النبوة ما رأى من سبقهم إلى الإيمان من عرب وكتابيين ، ولسانهم يردد ما حكاه القرآن عنهم .

« رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا (١)

(١) الآية ١٠ من سورة الحشر

من العجيب أن يكون ذلك شأن العرب ثم يأتي أولئك السفهاء والمغرضون اليوم ليكرروا ما قيل من حديث مملول ويعيدوا ما كان من أكاذيب ممجوجة قد هدمها القرآن هدماً ساحقاً .

« يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ . هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ »[1] ٣٢ — ٣٣

الصورة الرابعة

والآن نأتي إلى المؤيدات القرآنية :

(١) إن الآيات القرآنية الواردة في صدد أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله متنوعة الأساليب والمناسبات ، فمنها ما هو فى معرض التنويه والتخصيص في الخطاب ، ومنها ما هو في معرض أحداث السيرة النبوية في عهديها المكي والمدني . والآيات لا تفرق بين ما قبل البعثة وما بعدها كما لا تفرق بين عهدي مكة والمدينة ؛ وكثير مما هو في معرض أحداث السيرة إنما هو في صدد مواقف النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ، وبالتالي فى صدد ما ظهر منه بعد البعثة من أخلاق وفضائل ومواقف .

غير أن هناك أولاً تنويهاً وثناء نزل مبكراً جداً في أوائل ما نزل من القرآن : وهو آية القلم .

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... » ٤

كما أن هناك آية مكية نزلت في أواسط العهد المكي تضمنت حكمة الله في اصطفائه رسله ، في معرض الرد على زعماء قريش وتخص النبي صلى الله عليه وسلم في الدرجة الأولى ، وهي آية الأنعام :

---

(١) الآيتان ٣٢ — ٣٣ من سورة التوبة .

« وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... ١٢٤

فهاتان الآيتان يمكن أن تكونا تعبيرين قويين لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ومواهبه واستعداداته الروحية والذهنية بوجه عام وبالنسبة إلى ما قبل البعثة في الدرجة الأولى ، كما أنهما يصح أن تكونا مسوغين قويين للقول بأن الأخلاق والفضائل النبوية التي أشارت إليها الآيات القرآنية في مناسبات أحداث السيرة راجعة في الأصل إلى هذه الأخلاق والمواهب والاستعدادات التي نضجت في النبي صلى الله عليه وسلم قبل اتصاله بوحي الله وقبل أن يتلقى رسالته وآياته .

والإطلاق في الآيتين يعني سعة الشمول من دون ريب ؛ وليس من وصف يمكن أن يكون أقوى وأصدق وأوسع مدى مما فيهما . فتعبير « الخلق العظيم » يشمل كل عمل وميزة وعادة ومظهر يتصل بخلق شخصي أو اجتماعي أو إنساني أو عائلي ، ويطبعه بطابع العظمة والسمو والتميز كما لا يخفى . ولعل فيما روى في حديث البخاري من أقوال السيدة خديجة رضى الله عنها حين عودته من غار حراء بعد نزول الوحي عليه لأول مرة : « والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[1] ـ شيئاً من بيان هذا الخلق العظيم الذي وصف به النبي في أوائل آيات القرآن في معرض التثبيت وبعث الطمأنينة ، كما تدل على ذلك الآيات السابقة لآية القلم وهي :

« نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ .

(١) جاء في هذا الحديث أن النبي (صلعم) حينما عاد إلى خديجة لأول مرة بعد نزول الوحي وقص عليها مارآه وسمعه قال لها إني خشيت على نفسي فقالت له كلا والله لا يخزيك الله ... الخ) وهناك حديث رواه الطبري في تاريخه ج٢ ص ٤٧ ـ ٤٨ جاء فيه أنه قال لها (إني خشيت أن أكون شاعراً أو مجنوناً فقالت له أعيذك بالله من ذلك ياأبا القاسم . ما كان الله ليصنع بك ذلك مع ما علم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك وصلة رحمك) .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . ١ - ٧

ومقام الرسالة من الرفعة والعظمة لا يسامي ويقتضي من المؤهلات الشخصية والخلقية والعقلية والروحية مالا يمكن أن يوجد إلا فيمن وصلت فيه هذه المؤهلات إلى الكمال ، والتعبير الوارد في آية الأنعام تقرير رباني بأن النبي صلى عليه وسلم قد وصل إلى الذروة من عظمة الخلق وقوة الروح وصفاء النفس وكبر القلب ورجاحة العقل ، فاستأهل بذلك أن يكون موضع اصطفاء الله ورسالته لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ولأن نقول لك إن السيد الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الذي وصلت بهأخلاقه وروحه وعقله وفضائله ومواهبه إلى ذروة الكمال الإنساني ـ أقوى وأعظم بكثير من أن نقول إنه خلق قبل الأكوان وإن الأكوان قد خلقت لأجله وإنه أبوها الأكبر الخ ؛ لأن هذه الأقوال إلى مافيها من تعارض مع طبيعة الأشياء ونصوص القرآن ، فيها إيهام بأن له صفة جزئيـة إلهيـة جعلته منذ الأزل في هـذه الصفات والأخلاق ولم يكتسبهـا اكتساباً كما يكتسب الناس أخلاقهم وفضائلهم .

الصورة الخامسة

(٢) في سورة آل عمران الآية التالية .

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... ١٥٩

فهذه الآية تقرر ما كان عليه النبي صلى الله عليه رسلم من دماثة الخلق ولين الجانب وحسن المعـاشرة ، والتنزه عن فظاظة الخلق وغلظ القلب . وهذه أخلاق كريمة عظيمة كانت دون ريب من عوامل نجاحه في مهمته العظمى ، وفيما كان من تفاني أصحابه في سبيله وفنائهم فيه ، وانضواء الناس إلى دعوته ورايته في النهاية كما تلهمه الآية نفسها .

(٣) في سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ... ٦١

وهذه الآية وردت في معرض حكاية أخلاق المنافقين ومواقفهم وأقوالهم والردّ عليها، حين قالوا إنه أذن ، أي سريع الاستماع والتصديق ، فصدّقت الآية الوصف ثم فسرته ، فهو سريع الاستماع والإجابة لكل شيء أو قول فيه خير المؤمنين ، قوي الإيمان بالله والاعتماد عليه ، قويّ الركون إلى المؤمنين المخلصين والاعتماد عليهم أيضا ، قوي الاعتقاد بحسن نياتهم ، وهو بهذه الصفات رحمة لهم ؛ وهكذا احتوت الآية وصف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من خلق رضي وقلب نقي وسريرة طيبة ورغبة شديدة في خير المؤمنين وعظم ثقته بحسن نياتهم .

(٤) في السورة نفسها الآية التالية :

« لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ... ١٢٨

وهذه الآية تصور أقوى تصوير ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من رحمة ورأفة وبر وحرص شديد على مصلحة قومه والمؤمنين ، وشعور بما يلم بهم من آلام وما ينالهم من مشاق ، وما يلقى من جهد وعنت في سبيل إزالة آلامهم وتخفيف مايشق عليهم . ومما لا ريب فيه أن هذه الأخلاق الكريمة كانت هي أيضا من أقوى عوامل نجاحه وتفاني أصحابه في سبيله وفنائهم فيه وانضواء الناس إلى دعوته ورايته في النهاية .

(٥) في سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ (١) وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا

(١) نضجه ، أي لا تنتظروا نضجه في البيت .

مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ ٱلْحَقِّ ... ٥٣

وقد تضمنت الآية تنويها بخلق من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الحياء والصبر على مايؤذي نفسه من أصحابه ، وتجنبه كسر قلوبهم وجرح عواطفهم . وهذا من أعظم الأخلاق وأكرمها وخاصة في الدعاة الهداة .

(٦) في سورة الكهف وطه والشعراء وفاطر الآيات التالية :

١ — فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ (١) نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ... الكهف ٦

٢ — طه . مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ... طه ١ — ٢

٣ — لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ... الشعراء ٣

٤ — أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ... فاطر ٨

فهذه الآيات تشير إلى ما كان يطرأ على النبي من غم وهم وحزن وشدة من جراء مواقف قومه من الدعوة وعدم استجابتهم لها واهتدائهم بهديها . وهذا من أعظم الأخلاق وأكرمها ، وهو متصل بما قررته آية التوبة ١٢٨ من خلق الحرص الشديد على مصلحة قومه وهدايتهم ورأفته عليهم .

وهناك آيات عدة تلهم روحها أن من مقاصدها تهدئة روع النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته عما يجده — بسبب عناد قومه وجحودهم وعدم اهتدائهم — من هم وغم حرصا على خيرهم ومصلحتهم ونجاتهم وإسعادهم مما هو متصل بالخلق الذي تضمنتة الآيات السابقة ، ونكتفي من هذه الآيات بما يلي :

١ — وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ

---

(١) مهلك أو قاتل .

أَوْ سُلَّماً فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ... الأنعام ٣٥

٢ — وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ... يونس ٩٩

الصّورة السّادسة

(٧) في جملة آيات سورة آل عمران في وقعة أحد وردت هذه الآية :

« إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ . . .

١٥٣

وقد تضمنت الآية وصف الموقف حينما دارت الدائرة على المسلمين وانهزموا وثبت السيد الرسول صلى الله عليه وسلم وحيداً أو كالوحيد في ميدان المعركة غير مبال بما كان، حتى ظن أنه من جملة القتلى كما ذكرت ذلك آية أخرى في السورة نفسها : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » لولا أن بعض أصحابه سمعوا دعاءه فأسرعوا إليه والتفوا حوله ، وكان موقفه وثباته سبب استمساك المسلمين شيئاً ما . وفي الموقف صورة رائعة لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من شجاعة وثبات جنان في مواقف الشدة وميادين الكفاح والقتال .

ومن هذا الباب موقفان آخران للنبي صلى الله عليه وسلم أشارت إليهما الآيات القرآنية؛ أحدهما : موقفه يوم حنين الذى ذكر في سورة التوبة في الآيات التالية :

« وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ... ٢٥ — ٢٦

إذ تضمنت أن السيد الرسول صلى الله عليه وسلم كان على رأس الفئة القليلة التي ثبتت في الميدان عند ما انهزم أكثر المسلمين وكادت تدور عليهم الدائرة ؛ وقد روت الروايات هذا كما روت أن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم كان يهتف بالمنهزمين ويرتجز : أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب .

وثانيهما : موقفه في وقعة الأحزاب التي ذكرت بعض مشاهدها ونتائجها آيات من سورة الأحزاب إذ جاء أمر عظيم تزلزل منه المسلمون كما ذكرته هذه الآيات :

« إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيداً ... ١٠ — ١١

وقد اغتنم المنافقون الفرصة فشمتوا ودسوا وثبطوا ، كما ذكرت ذلك هذه الآيات:

« وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُوراً . وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ... ١٢ — ١٣

فكان النبي صلى الله عليه وسلم قطب الرحى في هذا الموقف العصيب ، إذ ثبت ثبات الجبال ، رابط الجأش مطمئن النفس ، فكان في ذلك الأسوة الحسنة التي دعا القرآن المسلمين إلى التأسي بها في هذه الآية التي جاءت في سياق وصف الوقعة ، والتي تعني في الدرجة الأولى موقفه فيها :

« لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً ... الأحزاب ٢١

على أن من الحق أن نذكر أن صورة بطولة النبي صلى الله عليه وسلم وثبات جنانه ورباطة جأشه في ميادين الجهاد ليست في القرآن مقصورة على هذه الوقعات الثلاث ، بل هي

قوية البروز في جميع المواقف الجهادية التي تضمنتها سور القرآن كما يلمس ذلك في سور البقرة والنساء والأنفال والتوبة والمجادلة والحشر والممتحنة والصف، إذا ما أنعمنا النظر في آياتها الجهادية ونفذنا إلى روحها، وسوف نستعرض هذه الآيات في فصل الجهاد فنكتفي هنا بهذه الإشارة .

الصورة السابعة

(٨) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا. وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ... ٢٨ - ٢٩

وهذه الآيات تعرف بآيات التخيير ، وتروى في سبب نزولها رواية مفادها أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم طالبنه بزيادة النفقة والاستمتاع بمتع الحياة بأوسع مايستمتعن ، وألحن عليه حتى أثرن غضبه . وروح الآيات تؤيد هذا السبب لاسيما أنها قد جاءت بعد الإشارة إلى ما كان من استيلاء المسلمين على أموال يهود بني قريظة وديارهم وأرضهم، إذ يلهم ذلك أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم طالبن بما طالبن ، بعد أن رأين أنّ الله قد فتح على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين هذا الفتح العظيم ، فأثار هذا في نفسه ألماً وغضباً أدى إلى أن يهجرهن شهراً وأن يعتزلهن وأخذ يعيش في مخدع وحده كما جاء في روايات السيرة أيضاً على اختلاف لا تأثير له في جوهر الموقف .

والآيات تتضمن في الحقيقة تعليما وتوجيهاً ربانيين ، غير أنها وخاصة ظروف نزولها تلهم أنها تأييد رباني لما اعتلج في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من مضاضة وألم لموقف نسائه الذي من شأنه أن يعوقه عن أداء ماعليه من واجب ، وعن حمل ماعلى كاهله من أعباء عظمى ، لتعارض ذلك مع مايطلبن . وفي القرآن أمثلة كثيرة لمثل هذا التأييد الرباني نذكر منها ماتضمنته إحدى آيات تحويل القبلة هذه :

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ... البقرة ١٤٤

وفي هذا الذى تلهمه آيات التخيير صورة رائعة جداً من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم تتجلى في عيافه عن زينة الحياة الدنيا ومباهجها ، واستغراقه في مهمته العظمى وفنائه فيها ، وتقديره تعارض تلك مع هـذه ، وتخيير نسائه بين رضائهن معه على ماتطمئن به نفسه ولا يتعارض مع مهمته وخلقه ، وبين انصرافهن عنه وتركه يتفرغ لأعباء واجبه الأكبر . وهى من أعلى ماوصلت إليه أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من ذرى . وكانت دون ريب من عوامل نجاح الدعوة الإسلامية ، كما أنها في الوقت نفسه أقوى ردّ على سفهاء المبشرين ومغرضي المستشرقين الذين حاولوا النيل من أخلاقه الكريمة في نسبتهم حب الدنيا ومباهجها وشهواتها إليه ، مع ما كان منه من استغراق في الدعوة وابتعاد عن ذلك في مكة . وتبدو قوة الرد حينما يلاحظ أن الآيات قد نزلت في أواسط العهد المدنى وبعد أن تمكن من القضاء على أعدائه اليهود وخضد شوكة المنافقين ورد عادية الأحزاب الذين غزوا يثرب بقوى هائلة لم يجرءوا بعدها على معاودة الكرة .

الصورة الثامنة

(٩) في القرآن آيات كثيرة جدا تتضمن ردوداً عنيفة قاسية على زعماء قريش وسادتهم وكبرائهم وأغنيائهم وطغاتهم كالآيات التالية :

١ — كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ ... العلق ١٥ — ١٩

٢ — وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ . أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ... القلم ١٠ — ١٦

٣ — وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ . نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ . ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ... الهمزة ١ — ٩

٤ — تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ . وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ... المسد ١ — ٦

مما كان ينبعث منه الشرر ، ويوجه به إلى وجوههم لطمات داميات بالوعيد والتقريع والتحدي . وقد عبرت آية في سورة الحج عن أثر ذلك كله فيهم كما ترى :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ... ٧٢

وفي اعتقادنا أن صرخات النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات وتوجيهها إلى زعماء القوم وطغاتهم ، وعدم مبالاته بقوتهم وضعفه ، وكثرتهم وقلته ـ لاسيما أنها من أوائل مانزل حين كان المشركون في عنفوانهم وقد كان منهم ما كان من اضطهاد كثير ممن آمن به وتابعه اضطهاداً أودى بحياة بعضهم ، وأدى إلى افتتان بعضهم ـ لتمثل خلقاً عظيما من أخلاقه الشريفة ، وهو الجرأة فى الحق وعدم خشية أحد فيه .

الصورة التاسعة

(١٠) وفي القرآن آيات عدة تحتوي عتابا أو لوما على ما كان يبدو منه من تصرف خلاف الأولى في علم الله ، وما كان يعتلج بنفسه من خلجات لم يكن يطلع عليها غيره ، مثل الآيات التالية :

١ — مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... الأنفال ٦٧ — ٦٨

٢ — مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ... التوبة ١١٣

٣ — فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ

أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ... هود ١٢

٤ — وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذاً لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ... الإسراء ٧٣ — ٧٥

٥ — آية الأحزاب ٣٧ التي نقلناها قبلاً .

٦ — عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ . أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰٓ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ . أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ... عبس ١ — ١٠

ففي تبليغ هذه الآيات يتجلى في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم الصدق والأمانة في أعلى درجاتهما ؛ ولقد روى عن عائشة رضى الله عنها حديث جاء فيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم لو كان كاتماً لشيء من وحي الله لكان كاتماً آيات الأحزاب ؛ مما يمت إلى مانحن في صدد تقريره .

(١١) كذلك هناك آيات عدة تحتوي أوامر للنبي صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه والاعتراف بحدوده والوقوف عندها مثل الآيات التالية :

١ — آيتي الأنعام ٥٠ والأعراف ١٨٨ اللتين نقلناهما قبلا .

٢ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... يونس ١٥

٣ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ... الشورى ٢٤

٤ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . . .
الأحقاف ٨

ففي هذه الآيات وفي تبليغها يتجلى كذلك من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى درجاتها ، الإخلاص والشعور بواجب الوقوف عند مايجب الوقوف عنده من حدود فضلاً عما يتجلى فيها من قوة توكيد اتصال الوحي الرباني به وعمق الشعور واليقين به .

ولقد يقال إن مرجع ماجاء خاصة في الفقرات ٨ ـ ١١ في صدد تبليغات النبي صلى الله عليه وسلم للفصول والآيات القرآنية ، عصمة النبي التي مظهرها الرئيسي التبليغ التام للقرآن وواجب الرسل الذي لا تتحقق صفتهم إلا به ، والذي عبرت عنه آية في سورة الأحزاب وهى :

« ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ ٱللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللهَ ... ٣٩

ثم ذلك الإيمان العميق المستولي على كل مشاعره ، والذي جعله يفنى في الله والدعوة إليه كل الفناء ، ويرتفع إلى ذرا العظمة والقوة الروحية ، فيستوي عنده الغنى والفقر ، والشبع والجوع ، واللذة والألم ، والراحة والتعب ، وينتفي من نفسه كل خوف من غير الله ، وكل حساب لغير الله ، وكل تردد في سبيل الله ، وتتضاءل في نظره عظمة العظماء ، وهيبة الكبراء ، وعنجهية الأحساب والأنساب ، وعصبية الأنانية والذات . وهذا حق لايحتمل أى شك ، غير أن مما لاشك فيه كذلك أن تحلي النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأخلاق التي قلنا أنها تتجلى في هذه التبليغات ، أمر طبيعي حتى يصح أن يكون أهلا للاصطفاء الرباني الذى قررت سداه الجملة القرآنية : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، وموضعاً للثناء العظيم الذى عبرت عنه الجملة القرآنية هذه : «وإنك لعلى خلق عظيم » .

الصّورة العاشرة

(٢) وإذا كنا قد عرضنا الآيات التي عرضناها بسبيل التنويه بما تدل عليه من أخلاق وفضائل معينة في النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس معنى هذا أن الأخلاق والفضائل النبوية محصورة في هذا النطاق ، وإنما ذكرناها لأنها وردت بسبيل التخصيص فقط . ففي القرآن آيات كثيرة جدا منبثة في مجموعاته بل في جميع سوره تقريباً انبثاثا يجعلنا في غنى عن عرض أمثلة منها ، احتوت تنويها بمتنوع الأخلاق الفاضلة الإنسانية والشخصية والاجتماعية والمعاشية ـ من صدق وعدل وبر وأمانة والتزام حق ، واعتدال وإحسان وصلة رحم ، ولين جانب ووفاء عهد ووعد ، ورحمة للضعيف ومساعدة للمحتاج ونصرة للمظلوم، وصبر وأمر بالمعروف ودعوة إلى الخير وتواص بالحق والرضاء به وعدم اللجاج فيه والكرم والإنفاق لله والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هى أحسن ، والتعاون على البر والتقوى والرغبة في السلم والمسالمة الخ ـ وحثا عليها وثناء على المتصفين بها وتبشيرهم . وهناك آيات كثيره أيضاً منبثة في مجموعات القرآن بل في جميع سوره تقريباً احتوت تنديداً بمتنوّع الأخلاق السيئة والخصال المذمومة ـ من كذب وظلم وبغي وإثم ، وقتل نفس وارتكاب فاحشة ، وانتهاك عرض وإفك وزور ، وعربدة سكر وإسراف وتبذير وخيانة ونكث وعذر وخديعة ، وقطع رحم وحرمان محتاج ، وأكل أموال الناس بالباطل وجبن وشح وأمر بمنكر ، وغلظة قلب وفظاظة خلق وتناقض بين القول والعمل ، ورياء ومنّ ومكابرة وانتقام باغ الخ وتحذيراً منها وإنذاراً للمتصفين بها. ولقد أثر عن عائشة رضى الله عنها حديث فيه جواب لمن سألها عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم أنها أخلاق القرآن[1] : وهو جواب فيه كل الحق والصدق والبداهة ، فإن من الحق والمعقول أن القرآن مانوه وأثنى وحث على خلق إلا والذي أوحى إليه به أشد الناس اتصافاً به قولاً وعملاً ، وأنه مانداد ونهى عن خلق إلا والذي أوحى إليه

---

(١) روى مسلم عن زرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام أنه سأل عائشة رضى الله عنها عن خلق النبي، صلعم، فقالت : كان خلقه القرآن (انظر تفسير الكشاف ج ٤ ص١٧٦).

به أشد الناس اجتناباً له ونفرة عنه قولا وعملا ؛ والمصداق القرآني لهذا ثناء الله العظيم عليه وحث الناس على اتباعه وإطاعته والاقتداء به :

١ — قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... آل عمران ٣١

٢ — مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ... النساء ٨٠

٣ — لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ : التوبة ١٢٨

٤ — وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ... الحج ٦٧

٥ — وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... المؤمنون ٧٣

٦ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ... الأحزاب ٤٥ ـ ٤٦

٧ — وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... الشورى ٥٢

٨ — وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... القلم ٤

وأي مماراة في هذا من غير المسلم مهدومة لا تمت إلى أي معنى من معاني المنطق والعقل والإنصاف ، لأن عظمة النبي الهادي ، ونجاح الرسول الداعي إنما يقومان بهذا ، وبهذا فقط ، فهو الأسوة التي يتأسى بها المهتدون به ، والقدوة التي يقتدي بها المستجيبون له ، ولا يتحقق هذا إلا إذا اتصف بأحاسن مابشر به ، واجتنب كل ماندد به ونفر عنه ، ولقد نجحت الدعوة النبوية أيما نجاح فاستجاب له عدد غير يسير من العرب والقسم الأكبر من غير العرب والكتابيين الذين كانوا في مكة أولاً ، وبكل رضاء واندفاع وفناء ، واستجاب له عدد عظيم من العرب وعدد آخر من غير العرب والكتابيين الذين كانوا في المدينة ثانياً وبكل رضاء واندفاع وفناء ؛ وليس من شك في أن هذا النجاح إنما كان لما شاهده المستجيبون من أعلام النبوة الصادقة وجماع صفات الخير والفضيلة في

شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يحتمل أي شك أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أول من قدر وأصدق من طبق آية البقرة :

« أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ... ٤٤

وأول من استجاب لأمر ربه ووحيه في آية الزخرف :

« فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ ... ٤٣

ومن هذا الباب آية سورة هود هذه .

« فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ١١٢

وآية سورة الشورى هذه .

« فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ... ١٥

وأي رواية تتضمن ماقد يتناقض مع هذا فهى دون ريب كاذبة أو مفتراة أومدسوسة أو محرفة .

الصورة الحادية عشرة

هذا ؛ وقد يكون مما يتصل بهذا البحث النظر فيما كان يوجهه كفار العرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من تهم وعلل عقلية وروحية وخلقية على ماحكاه القرآن عنهم ، كالجنون والكذب والافتراء والسحر والكهانة والشعر .

والذى نعتقده أن التصدي لتفنيد هذه التهم والعلل من نافلة القول ؛ فحكايتها في القرآن – إلى مافيه من الدليل الناصع على خلق الصدق والأمانة الذى تجلى في تبليغها وتدوينها – أقوى دليل على كذبها وزيفها ، لا سيما أن القرآن لم يكتف بحكايتها بل

تولى تـكذيبها وتزييفها وردها إلى وجوه قائليها ردا قويا عنيفاً في كل مناسبة حكاها عنهم وكفى بذلك تكذيبا وتزييفا . غير أن ترديد سفهاء المبشرين ومغرضي المستشرقين لبعضها وخاصة ابتلاء النبي صلى الله عليه وسلم بالصرعة يجعل قول كلمة في هـذا الموضوع مفيـداً ؛ فوق أنه قد خطر لنـا بعض الخواطر المستلهمة من القرآن رأينـا المنـاسبة صالحة لتسجيلها .

نحن نعلم أن ترديد هؤلاء لابتلاء النبي — صلى الله عليه وسلم بالصرعة قد استنتج استنتاجا من بعض روايات ذكرت ما كان يطرأ على النبي صلى الله عليه وسـلم حينما يوحى إليه أحيانا من حالة جهد وغيبوبة وتصبب عرق ، غير أن الروايات التي حكت ذلك ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حينما تنفرج عنه أزمته يستدعي كاتبه ليملي عليه القرآن الذى أوحى إليه به ، أو يجيب على مايكون قد وجه إليه من سؤال ، كما ترى في النصوص التالية :

١ ـ حديث في البخاري أن صفوان بن يعلي بن أمية أخبر أن يعلي كان يقول : ليتني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يتنزل عليه ! قال : فبينما النبي صلى الله عليه وسلم بالجعرانة وعليه ثوب قد أظل فيه معه ناساً من أصحابه ، إذ جاءه أعرابى عليه جبة متضمخ بطيب فقال : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعد أن تضمخ بالطيب ؟ فأشار عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى يعلي بيده أن تعال ، فجاء يعلي فأدخل رأسه ، فإذا النبي صلى الله عليـه وسلم محمر الوجه يغط كذلك ساعة ثم سرى عنه فقال : أين الذي يسألني عن العمرة آنفاً ؟ فالتمس الرجل فأتى به ، فقال : أمّا الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات ، وأما الجبة فانزعها ثم اصنع كما تصنع في حجك .

٢ ـ من حديث بخاري قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

٣ ـ من حديث بخاري عن زيد : فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي ،

فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي ، ثم سرى عنه فأنزل الله « غير أولي الضرر » وأمرني بكتابتها[١] .

٤ ــ في مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه : سألت النبي صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحي ؟ فقال : أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسي تقبض .

وليس لمنصف متدبر أن يصل باستنتاجه إلى تلك النتيجة التى زعموا من هذه الأحاديث .

أما ما كان من نسبة الكفار الجنون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإن الآيات التي حكت ذلك عنهم تلهم أنهم لم يكونوا يقصدون بها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مريضاً مخبول العقل أو مبتلى بصرعة ، وهى الصفات التي تلازم المريض بالجنون . وهو ما لا يعقل عنهم في حد ذاته ، وهم يرونه يتلو الآيات القرآنية الرائعة في بلاغتها ونصاعتها وقوتها ؛ والتي كانت تنفذ إلى أعماقهم رغم مكابرتهم على ما ذكرته الروايات العديدة[٢] ؛ وإنما كانوا يقصدون رمي النبي صلى الله عليه وسلم بغرابة الأطوار والشذوذ فيما يدعو إليه ويبشر به وينذر ، على ما تعود الناس أن يرموا بمثل ذلك من يتصدى لدعوة جديدة أو يبدي رأياً أو يقول قولا أو يخبر خبراً غير مألوف في المجتمع الذى يعيش فيه ؛ وهذا واضح كل الوضوح فى الأمثلة الآتية :

١ ــ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ . لَّوۡمَا[٣] تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ... الحجر ٦ ــ ٧

---

(١) هذا الحديث في سياق رواية نزول آية «لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » حيث روى أن فقرة « غير أولي الضرر » لم تنزل أولاً وكان ابن أم مكتوم الضرير حاضراً فقال : يارسول الله أنا ضرير ! فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الوحى ، ثم نزلت الفقرة

(٢) في الجزء الأول من ابن هشام ص ٢٨٥ حديث طويل عن استماع نفر من زعماء قريش للقرآن وتأثيره فيهم ، وكذلك في الجزء نفسه ص ٢٦٥ حديث طويل عن استماع عتبة بن ربيعة للقرآن وانبهاره به .

(٣) لوما : بمعنى هلا .

٢ — أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّالَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ... المؤمنون ٦٨ — ٧٠

٣ — إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ... الصافات ٣٥ — ٣٦

٤ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ... سبأ ٧ — ٨

٥ — وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ... القلم ٥١ — ٥٢

الصورة الثانية عشرة

وأما ما كان من نسبتهم إليه الشعر والسحر والكذب والكهانة والاستعانة بالغير فالآيات التي تحكى هذا عنهم تلهم حيناً إنهم كانوا يعنون ما يقولون وحيناً أنهم كانوا يقولون ذلك على سبيل المماراة واللدد وقصد الإنكار أو الاستنكار كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ... هود (١) ٧

٢ — وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ... النحل (٢) ١٠٣

---

(١) بقصد الاستنكار والمماراة .

(٢) في هذا يعنون مايقولون حقيقة وقد ردت الآية عليهم .

٣ — لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ... الأنبياء (١) ٣

٤ — بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ... الأنبياء (٢) ٥

٥ — وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ... ص (٣) ٤

٦ — وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ... القمر (٤) ٢

ومهما يكن من أمر فالردود القرآنية كاسحة ساحقة لا يمكن لذي عقل ومنطق وإنصاف من غير المسلمين أن يماري أو يكابر في قوة نفوذها ومداها وروحانيتها وصدقها وهدمها لما ينسبونه إليه هدماً تاماً كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ... الأنعام ٩٣

٢ — قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ... يونس (٥) ٧٧

٣ — فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ . . . يونس (٦) ٨١ ـ ٨٢

٤ — إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ... النحل ١٠٥

---

(١) في هذا يعنون السحر حقيقة ، وفي الآية رد عليهم ووصف لهم بالظلم .

(٢ و ٣) بقصد المماراة والاستنكار .

(٤) في هذا يعنون السحر حقيقة ، وفي الآية رد على مايبدو منهم من مكابرة .

(٥ و٦) حملة القرآن على السحر ولو من باب الحكاية تتضمن تزييف نسبة السحر إلى النبي صلى الله عليه وسلم

٥ — هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ . وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَ يَفْعَلُونَ ... الشعراء [1] ٢٢١ ـ ٢٢٦

٦ — قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ . قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ . . .

سبأ [2] ٤٦ ـ ٤٩

٧ — آية الشورى ٣٤ وآية الأحقاف ٨ التي نقلناهما قبل

٨ — فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ . وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . . .

الحاقة ٣٨ ـ ٤٨

٩ — فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ . ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ . وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ . مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ... التكوير ١٥ ـ ٢٦

---

(٣) تزييف نسبة الشعر جاءت هنا في صورة حملة على الشعراء ، وهذه بلاغة قرآنية .

(٤) يكلفهم أن يفكروا في الأمر منفردين بعيدين عن تهويش المهوشين وحينئذ يتضح لهم الحق ويعرفون في قرارة أنفسهم حقيقة الرسالة النبوية والانذار النبوي .

المبحث الرابع

حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية

صور القرآن لحياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية تصحح كثيراً من الأغلاط المستقرة ـ مدى تعدد زوجات النبي واحتفاظه بعدد أكبر من المحدد ـ تنظيم القرآن لزواج النبي وعلاقاته الزوجية ومداه ـ تعليق على موقف المبشرين والمستشرقين في هذا الموضوع ـ مدى وصف زوجات النبي بأمهات المؤمنين ـ مدى إشارة القرآن إلى هبة المؤمنات أنفسهن للنبي ـ ضنك معيشة النبي البيتية ودلالته ومداه ـ اختصاصات قرآنية بزوجات النبي ومسئولياتهن ومداه . مدى عبارة أهل البيت ـ قضية زواج النبي ... من مطلقة متبناه وتحليلات قرآنيـة في صددها ـ عدم التـكلف في دخول بيوت النبي وتنظيم القرآن له ومداه ـ مدى حجاب بيوت النبي وزوجاته تنظيم القرآن لخروج نساء النبي والمسلمين ومداه ـ صور لمكايدات نساء النبي وغيرتهن ـ حديث الافك ومداه وأثره ـ مدى الحملة والتقريرات القرآنية فيه ـ ذرية النبي صلى الله عليه وسلم ـ حجرات النبي ـ مسجده ومجلسه ـ تعليق على خبر خوخات الصحابة عليه ـ مستلهمات قرآنية عن وقت وفاة النبي ونجاحه العظيم في مهمته السامية .

الصورة الأولى

في القرآن آيات كثيرة تتضمن صوراً عديدة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية . والذي ينعم النظر فيها يرى أن في بعض الصور المستقرة في الأذهان ، والمستندة إلى الروايات أغلاطاً لا تتسق معها .؛ وقد استغل بعض ذوي الهوى هذه الروايات التي يحتمل أن يكون كثير منها مدسوساً ومحرفاً استغلالا غير نزيه ، وكان يكفي أن تتعارض مع النصوص القرآنية ليظهر الحق واضحاً جليا .

وفيما يلي نعرض هذه الصور :

الصورة الثانية

(١) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَـكَتْ يَمِينُكَ مِمَّـآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَافَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَـكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِـكَيْلَا يَـكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَافِي قُلُوبِـكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً . لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَامَلَـكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ... ٥٠ ـ ٥٢

فهذه الآيات تلهم أنها نزلت بعد آية النساء الثالثة التي اعتبرت محددة لما يجوز للمسلم جمعه في عصمته من الزوجات بأربع وهى :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَاطَابَ لَـكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَامَلَـكَتْ أَيْمَـٰنُـكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ (١) ...

وقد ذكرت روايات السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع في عصمته حين نزول الآيات تسع زوجات بعقد : خمس منهن قرشيات وهن عائشة وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وسودة . وأربع عربيات وهن زينب بنت جحش الأسدية وجويرية المصطلقية وزينب بنت خزيمة وميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعة . أما ملك اليمين فكان عنده اثنتان هما صفية النضرية الإسرائيلية ومارية القبطية رضى الله عنهن جميعاً .

---

(١) بمعنى ألا تجوروا .

وهناك رواية أن آية الأحزاب (٥٢) نزلت متأخرة ، وأن الآيتين ٥٠ ـ ٥١ نزلتا على حدة ، وليس من ريب في أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلق ولم يتزوّج بعد الآية (٥٢) . ولما كان هناك رواية تذكر أنه تزوج في أثناء عمرة القضاء وهى العمرة التي أداها في السنة التالية من صلح الحديبية أي فى السنة الهجرية الثامنة فتكون الآية (٥٢) إذا صح أنها نزلت على حدة قد نزلت بعد هذه العمرة ، أما إذا كانت الآيات الثلاث قد نزلت دفعة واحدة فتكون قد نزلت في السنة الثامنة ، وتكون آية النساء قد نزلت أيضاً في الظرف نفسه ولكن قبل هذه الآيات فاقتضت الحكمة تنزيلها لتنظيم حالة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية ـ بمالها من صلة بمدى وتحديد آية النساء .

ومهما يكن من أمر فآيات الأحزاب قد استهدفت : (١) استثناء النبي صلى الله عليه وسلم من التحديد الذي ورد في آية النساء : (٢) تحريم زواج جديد عليه (٣) تنظيم علاقاته الزوجية أو صلاته الجنسية بأزواجه .

والنقطة الأخيرة مستلهمة من مضمون الآية (٥١) ، إذ تكاد توحي بأنها تتضمن تعليماً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يتصل اتصالا جنسيا في وقت واحد بأربع من أزواجه ، وتخوله أن يبدل ويغير في هذا الاتصال فيرجي أي يؤجل مؤقتاً من يشاء ثم يعود إلى من يبتغي ممن عزل وأجل منهن ؛ بل نكاد نقول إن هـذا القصد ظاهر في مضمون الآية ظهوراً قويا .

وهناك مبرر قوي لهذا المعنى وهو عدم احتمال خروج النبي صلى الله عليه وسلم عن روح التشريع القرآني العام مما هو متصل بأخلاقه الشريفة التي نوهنا بها في البحث السابق . ولقد روى الزمخشري في كشافه رواية ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عاشر بعد هذه الآيات أربعاً فقط من نسائه وهن : عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضى الله عنهن ، وأرجأ خمساً . وفي الرواية شيء مما يتسق مع ما قررناه من ملهمات الآية (٥١) ، وإن كنا نرى الآية أوسع مدى إذ جعلت عملية الإيواء والإرجاء والعزل والمراجعة شاملة لجميع زوجات النبي صلى الله عليه وسلم لتقر أعينهن ولا يحزن ويرضين

بما آتاهن كلهن ؛ ولهذا نرجح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يطبق هـذه العملية على الجميع .

والروايات مجمعة على أن المسلمين الذين كانوا يجمعون في عصمتهم أكثر من أربع نساء قد طلقوا من شاءوا من الزوائد واحتفظوا بأربع . ويبدو أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم خفن هذا المصير الذى يفوّت على المطلقات منهن كرامة الزوجية النبوية وكرامة أمومة المؤمنين التي كرمهن الله بها في آية الأحزاب هذه :

« ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ... ٦

والتي يرجح أنها نزلت قبل الآيات ٥٠ ـ ٥٢ من السورة ؛ فحزن وقلقن[1] ، فاقتضت الحكمة الربانية استثناءهن من التحديد مع تنظيم صلات النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية بهن تنظيما يتسق مع روحه .

والآية (٥٢) ذات مدى آخر ؛ فإنها حرمت على النبي صلى الله عليه وسلم الزواج ولم تجعل العدد الذي في عصمته أساساً ، بحيث حظرت عليه أن يطلق إحدى زوجاته ليأخذ مكانها غيرها التزاما للعدد كما هو جائز في حق سائر المسلمين الذين يحق لهم أن يحتفظوا في عصمتهم بأربع زوجات ، وليس عليهم إلا مراعاة العدد المحدد . بل حرمت عليه الزواج لو كان مات جميع نسائه بعد نزولها .

ولقد أبدأ بعض المستشرقين والمبشرين وأعادوا في زيجات النبي صلى الله عليه وسلم هذه ، وقالوا : إنه قد سنّ لنفسه قانونا ينقض القانون الذى سنه لسائر المسلمين ، كما تطاولوا عليه بسبب عدد النساء اللاتي تزوج بهن أو جمعهن في عصمته ، ولقد رد كتاب المسلمين على هذا وذاك ردوداً متنوعة وجيهة ، منها أن النبي صلى الله عليه وسلم في تعدد زوجاته لم يكن شاذاً عن بيئته أو عن الطبيعة البشرية ، وأن لجل زيجاته ظروفاً غير

---

(١) هناك حديث يذكر أن سودة رضى الله عنها إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أفصحت للنبي عن رضاها بالتنازل عن حقها في المعاشرة ، ورجته عدم تطليقها وتفويت مانالته من شرف الزوجية النبوية . انظر تفسير آيات سورة الأحزاب في تفسير البغوي .

دواعي الرغبة الجنسية إذ توخى في بعضها تكريم صاحبيه أبي بكر وعمر رضى الله عنهما بابنتيهما عائشة وحفصة رضى الله عنهما ، وفي بعضها توثيق الرابطة بين الإسلام وبعض القبائل كزيجته بجويرية ابنة رئيس بني المصطلق ، وفي بعضها تكريم الزوجات المهاجرات اللاتي فقدن أزواجهن في هجرة الحبشة وجبر نفوسهن كزواجه من أم حبيب بنت أبي سفيان ، وأم سلمة وسودة وزينب بنت خزيمة رضى الله عنهن لا سيا أن نصف زوجاته كن من المتقدمات في السن وأولات أولاد ممن تقل الرغبة الجنسية عادة فيهن .

وجوهر ومدى الردود صحيحان كل الصحة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يرى أنه في حاجة إلى تشريع خاص به مناقض للقانون العام — ونحن نستعمل التعبير مساجلة — لولا أن هناك ظروفاً قاهرة ، وكان بإمكانه أن يستغني عن المتقدمات في السن وذوات البنين وغير الجميلات لو كانت دواعي المسألة هى الرغبة الجنسية فحسب ، فلا يضطر إلى تشريع خاص به ؛ وقد كان تنظيم الصلات كما جاء في الآية (٥١) حاسما في أمر هذه الرغبة ومبرراً لاستبقاء الجميع في العصمة النبوية . وفي الآية رد مفحم أخر على الغامزين .

هذا ؛ وبمناسبة وصف زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بأمهات المؤمنين نقول : إن هذا الوصف تكريمي فقط ، وأنه لم يترتب عليه أن يكون لهن حقوق الأمهات الإرثية على المؤمنين ، ولا حرمة نكاحهن ؛ بدليل أن هناك نصاً آخر على حرمة نكاحهن كما ترى في هذه الآية .

« وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً ... الأحزاب ٥٣

وبدليل النص على أن محارمهن الذين يجوز لهم أن يدخلوا عليهن بدون استئذان هم آباؤهن وأبناؤهن وأخواتهن وأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن فحسب ، كما جاء في آية أخرى من سورة الأحزاب وهى :

« لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَا أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ... ٥٥

وأخيراً نشير إلى جملة « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها » إذ تنطوي على صورة من صور زواج النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة به ، فهو فوق أنه كان يخطب نساءه ويمهرهن جرياً على العادة المعروفة ، كان بعض النساء المؤمنات يعرضن أنفسهن عليه هبة[1] . ومما لا ريب فيه أن هذا إنما كان قصد التشرف بالصلة به والحرص على نيل الكرامة العليا في الزوجية النبوية ، وقد أباح الله له الاستجابة لمن شاء منهن تقديراً لهذه الرغبة المخلصة في نيل شرف هذه الزوجية الكريمة . ولعل في هذا ما يؤيد ما كان من حزن نسائه وقلقهن من احتمال الفراق ، وما كان من حكمة الله ورحمته بهن بالإبقاء .

الصُّورة الثالثة

(٢) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً . وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً . يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً . وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحاً نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً . يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي

---

(١) اختلفت الروايات في شخص المرأة التي وهبت نفسها للنبي . وأوثقها أنها ميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعه . وأنها عرضت نفسها بالذات وفي رواية عرضتها أمها على النبي يوم زار الكعبة في السنة التالية لصلح الحديبية وقد أمهرها عباس عم النبي صلعم بأربعمائة درهم (انظر تفسير الطبري والبغوي) .

فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً . وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً . وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ... ٢٨ ـ ٣٤

ولقد جعلنا الآيتين الأوليين من هذه الآيات موضوعاً خاصا في بحث أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وقلنا في صدد ذلك مافيه الكفاية .

غير أن فيهما وفي الآيات التالية لهما صوراً متصلة بهذا المبحث غير تلك الصورة الأخلاقية النبوية .

فأولا : أن الآيتين الأوليين تدلان على أن معيشة النبي صلى الله عليه وسلم فى بيوته كانت ضنكا على ما أيدته الروايات الكثيرة ؟ وكان نساؤه يتحملنها على مضض فلما رأين أن الله قد أفاء عليه أموال بني قريظة على ماذكرته الآيات السابقة لهاتين الآيتين طالبنه بالتوسعة فكان هذا التخيير الذى جاء مؤيداً ومردداً لما عرا النبي صلى الله عليه وسلم من غضب وانزعاج بسبب رغبة نسائه في الاستمتاع بمباهج الدنيا وشعوره بأن هذا مما لا يتناسب مع مهمته العظمى ، ومما قد يعوقه عن حملها أو التفرغ لها وهذه الظروف تسوغ القول بأن العيشة الضنك التي كان يعيشها النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن لقلة ذات اليد والعجز عن التوسعة مطلقاً ، بدليل أنها ظلت كذلك طيلة حياته ، وإلى مابعد أن امتلأ بيت مال المسلمين بالفيء والغنائم .

وثانياً : أن الآيات التالية للآيتين الأوليين جاءت استطراداً على ماهو المتبادر ، لتنبيه نساء النبي صلى الله عليه وسلم إلى مركزهن وواجباتهن ومسئولياتهن الكبيرة بسبب مانلنه من شرف الزوجية النبوية ؛ كأنما أريد بها التنبيه إلى مايجب عليهن فهمه وإدراكه ؛ فعقاب ماقد يقترفنه من ذنب بسبب ذلك الشرف وثواب ما يبدو منهن من حسنات وخضوع وطاعة مضاعفان ، وقد جعلهن هذا الشرف في مستوى خاص بهن بحيث صرن قدوة للناس ، وترتب عليهن واجبات أخلاقية وسلوكية وتعليمية كبيرة تتعلق

بما لهن من صلة بالمؤمنين والمؤمنات وبأهداف المهمة النبوية ، وخُصصن بالعناية الربانيـــة في رفعة القــدر وقصد الإبعاد عن الرجس والتطهير لأنهن صرن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولقد جعلتهن الآية الأخيرة مرجعاً من مراجع الناس في أمور الدين لأنهن ألصق الناس بمن تنزل عليه آيات الله وحكمته وأكثرهم فرصة وقرباً لسماعهـا وتلقيها وفهمها[1] ، ومن هنا أيضاً جاء هذا المستوى الخاص الذى جعل لهن ، وهـذه المضاعفة في العقاب والثواب ، وهـذا التنبيه على عدم الضعف في القول وإطماع مرضى القلوب في التساهل والغفلة في ذكر أوامر الله وحكمته وآياته التي تتلى في بيوتهن وهـذا الأمر بالقرار في بيوتهن وعدم الجنوح إلى التبرج واللهو . ولقد احتوت كتب الحـديث شيئاً كثيراً عهن ـ وخاصة عن اللاتي عمرن منهن طويلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ـ في صدد سنن النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته ، كأثر من آثار هذه التلقينات والأعبـاء التى قررتها الآيات . هذا ، ونص الآيات وبخاصة عبارة أهل البيت لا تدع مجالا لتردد ما في أنها قد قصد بها نساء النبي صلى الله عليـه وسلم اللاتى هنّ أهل بيته ، وفي توسيع مدى هذه العبارة إلى أبعد من ذلك شيء غير يسير من التجوز ، كما أن صرفها عن نساء النبي صلى الله عليه وسلم هو في منتهى التنـاقض والغرابة ولقد تـكرر هذا التعبـير في سيـاق قصص الأنبياء ، وكان المقصود به الزوجـة في كل مرة كما ترى في الآيات التالية :

١ ـــ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ... هود[2] ٧٣

---

(١) مما يساق على هذا حديث رواه الترمذي بسند صحيح عن أبي موسى قال (ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما) التاج : ج ٣ ص ٣٣٨ .

(٢) الخطاب لزوجة إبراهيم عليـه السلام . ولقد ورد في حديث رواه البخاري ومسلم والترمذي عن النبي صلعم في صورة الوليمـة التي أولما في مناسبة زواجه من زينب أنه كان يخرج إلى حجرات زوجاته حينما ظل بعض المدعوين يسمرون في بيته فيقول لهن السلام عليـكم أهل البيت ورحمـة الله (انظر فصل التفسير في كتاب التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج ٤ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

٢ — وَهَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ . إِذْ رَءَا نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَاراً ...
طه ٩ ـ ١٠

٣ — إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْـلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَاراً سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ . . .
النمل ٧

٤ — قَالَ لِأَهْـلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ . . .
القصص ٢٩

الصّورة الرابعة

(٣) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلاً مُّبِيناً . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً . مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً . ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيباً . مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً . . .
٣٦ ـ ٤٠

وهـذه الآيات نزلت على ما أجمعت عليه الروايات في صدد زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضى الله عنها مطلقة دعيه أو متبناه زيد بن حارثة رضى الله عنه .

ولقد روى بعض الرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم مال إلى زينب بعد زواجها من زيد لما رآه من مفاتنها ، وأنها شعرت بذلك فأخذت تكايد زوجها ، وأن هذا شعر بالأمر فأراد تطليقها ليتسنى للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها . وتمسك المبشرون والمستشرقون بهذه الرواية ، وأضفوا عليها معاني خيالية ، وأخذوا يبدون ويعيدون ويتطاولون بالباطل على الأخلاق النبوية .

ولقد كانت الرواية موضوع نقد ونقاش قديماً وحديثاً ، فاستبعدها بعض المفسرين القديمين واستنكروها وقالوا إنها مدسوسة ، وتناولها الكتاب الحديثون لينزهوا النبي صلى الله عليه وسلم عما قاله بعض ذوي الهوى . ولم نر أحداً فيما اطلعنا عليه أنعم النظر في نصوص الآيات نفسها إنعاما وافيا مجرداً عن الروايات وأقوال المفسرين والمؤولين مع أن فيها صراحة تساعد على فهم الموضوع فهماً صحيحاً وتضع الأمر في نصابه الحق ، ومع أن القرآن هو السند الأوثق والمستلهم الأقوى .

ففي الآيات تعليل صريح بأن تزوج النبي مطلقة متبناه هو لإبطال تقليد حرمة زواج المتبني بمطلقة المتبنى ورفع الحرج عن المؤمنين في تزوج مطلقات أدعيائهم أو أبنائهم بالتبني . ونعتقد أن هذا التعليل هو مفتاح الحادثة كلها . فقد كانت العادة قوية راسخة ، ولم يجرؤ — على مايبدو — أحد على نقضها بعد أن عابت آيات الأحزاب ٤ — ٦ عادةالتبني وأمرت بإبطالها ، وهي هذه :

« وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ . ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ[1] ... »

(١) في الفقرة الأخيرة هذه نسخ لتوارث المتبنين والأبناء بالتبني أيضا إذ جعل التوارث بين ذوي الأرحام فحسب .

فألهم الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم على إبطال هذه العادة بنفسه في زينب . ولعل زينب التي رضيت التزوج من زيد الذى كان يدعى زيد بن محمد ، قد انبثق في نفسها شيء من التكبر عليه وأحست معنى من معاني عدم التكافؤ بينها وبينه حينما أبطلت الآيات التبني فصار يدعى زيد بن حارثة ، ويعتبر مولى من موالي المسلمين الذين ليس لهم نسب يباهون به ، وانبتت صلته الأولى بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان تغير نظرة زينب إلى زوجها وموقفها منه مزعجاً له ومبعثاً لشكواه ، وداعياً له للتفكير في طلاقها فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر والتحمل مع ماقام في نفسه بإلهام الله أن يتزوج بها إذا طلقها ليبطل بنفسه هذه العادة الجاهلية الراسخة ويكون قدوة لغيره . والعتاب الرباني في الآيات مصبوب على تردده في الإقدام على تنفيذ ما ألهم الله خشية انتقاد الناس وحياء منهم ؛ وقد تضمنت الآيات توضيح الأمر ، فليس عليه من حرج في تنفيذ ماألهمه الله إياه ، وهذه سنة الله في أنبيائه إذا اختارهم لتبليغ رسالاته وجعل لهم إبطال وإلغاء وتعديل وإثبات ما اقتضت حكمته من عادات وتقاليد ، وأوجب عليهم الإقدام وعدم خشية أحد غيره في ذلك : ولعل مفهوم الآية الأولى يدل على أن نقض هذه العادة لم يصعب على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، بل صعب على زينب أيضاً إذ كانت تعد نفسها كأنها زوجة ابنه ، والناس يعدونها كذلك ولم يكونوا قد تأثروا بعد بما كان من معابة آيات الأحزاب الأولى ٤ ـ ٦ لهذه العادة ؛ فاحتوت الآيات ما احتوته من عبارات قوية بسبيل الحض على الرضاء بما أمر به الله ورسوله وعدم عصيانه ، وزينب وزيد رضى الله عنهما كانا يعرفان بطبيعة الحال أن التقليد لا يسمح بتزوج النبي منها ، وهذه نقطة مهمة من شأنها أن تهدم ركناً من أركان الرواية ومادار حولها هدماً ساحقاً ، وأن تجعل الجزم سائغاً بأن زيداً إنما أراد تطليقها لأسباب غير أسباب تيسير تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بها وبأن مايمكن أن يكون قد بدا من زينب من سلوك مزعج لم يكن إلى هذا الأمر بسبب .

وفوق ماقلناه نقرر استيفاء لمقتضيات الجدل أن إثبات الحادث في القرآن مع ما فيه

من عتاب شديد أكبر برهان على أنه لم يكن في سياقه شيء ما يمس كرامة النبي صلى الله عليه وسلم ونزاهته وتصرفه ؛ وكل الأمر هو ما كان من تردده في تنفيذ إلهام رباني فيه إبطال عادة جاهلية ، ولقد جاءت الآية الأخيرة مقوية للتعليل ، وانطوت على تدعيم حاسم لما قلنا إنه مفتاح الحادثة كلها ، فما كان محمد أبا أحد من الناس حتى يحرم عليه نكاح مطلقة دعيه زيد ويسبب هذا قيلا وقالا فوق مافي عمل النبي من رفع للحرج عن المؤمنين في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً .

وقد كررنا تعبير الإلهام لأن الآيات تدل على أن الحادث قد وقع بغير وحي قرآنى، وأنها قد نزلت بعد وقوعه ، وتدل كذلك على أن الحادث سبب قيلا وقالا فوق ما كان من تردد النبي صلى الله عليه وسلم وخشيته حديث الناس ووقوع ماتوقعه من ذلك فعلا ؛ فنزلت الآيات للرد على المنتقدين وتأييد النبي صلى الله عليه وسلم في تصرفه والدفاع عنه، إلى عتابه على ما كان من تردده . ومثل هذا تكرر في القرآن كثيرا . ومن الأمثلة عليه سورتا الأنفال والفتح اللتان نزلتا بعد حادثي بدر والحديبية ، وتضمنتا تأييداً للنبي صلى الله عليه وسلم في تصرفه . ولعل آيات الأحزاب ٤ ـ ٦ التي أبطلت عادة التبني وآثارها هى التي ألهمت النبي صلى الله عليه وسلم التفكير في إبطال حرمة نكاح مطلقة المتبنى إتماما لهدم العادة نهائيا ، وهذا يعلل فيما يتبادر لنا ماتضمنته الآيات ٣٦ ـ ٤٠ من اعتبار الفكرة إلهاما أو أمراً ربانياً ومن عتاب النبي صلى الله عليه وسلم على تردده وخشية الناس فيه .

وأخيراً نرى أن ننبه إلى أمر ، وهو ما يمكن أن يوهمه عتاب الله للنبي صلى الله عليه وسلم لإخفائه في نفسه ما الله مبديه وخشيته الناس والله أحق أن يخشاه ، من مناقضة لما استدللنا عليه ونوهنا به في المبحث السابق من خلق جرأة النبي صلى الله عليه وسلم في الحق . ولسنا نرى في هذا الموقف تناقضاً ولا مغمزاً ؛ فالأمر متصل بخصوصية من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية أولا ، وليس فيه وحى قرآني صريح ثانيا ، وكان مرجع التردد الذي بدا منه اجتهاديا لاحتمال حدوث رد فعل قد يؤثر تأثيرا ما في أوساط المسلمين

والعرب فيما نعتقد ثالثاً ، ولم يلبث النبي صلى الله عليه وسلم مع ذلك أن تغلب عليه وأقدم على ما ألهمته فطرته رابعاً . وما كان العتاب إلا على لحظة التردد الاجتهادي الذي هو خلجة نفسية كانت خلاف الأولى الذي في علم الله وحسب .

الصّورة الخامسة

(٤) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَـٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ... ٥٣ ـ ٥٤

وقد روى عن سبب نزول القسم الأول من الآية الأولى أنها نزلت يوم زفاف النبي صلى الله عليه وسلم على زينب ، إذ دعا المسلمين إلى الوليمة فانتظروا نضج الطعام ولم ينصرفوا بعده وأطالوا المكث في الحديث والسمر على الرغم مما بدا من النبي صلى الله عليه وسلم من ضيق ؛ وروى عن سبب نزول قسم الحجاب من الآية أن عمر رضى الله عنه ظل يلح على النبي صلى الله عليه وسلم أن يحجب نساءه حتى نزل ، وروى عن سبب نزول الفقرة الأخيرة منها أن أحد المسلمين قال لأتزوجنّ بعائشة رضى الله عنها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم عنها !

والرواية الأولى متسقة مع روح الفقرات الأولى من الآية فإن لم تكن هذه الرواية

صحيحة بنصها فلا بدّ أن تكون قد وقعت مناسبة مماثلة لها . والرواية الثانية تذكر أن عمر رضى الله عنه كان يودّ حجب نساء النبي صلى الله عليه وسلم فلا يختلطن بالناس ولا يخرجن بارزات أو سافرات ، وفحوى النص القرآني لا يؤدي إلى هذا عند إنعام النظر فيه ، ولقد جاء في الرواية الأولى أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أخبر بانصراف الناس من بيته وعاد ، أمر حالا بضرب الستار ـ وهو الحجاب ـ على الباب ومنع خادمه أنس بن مالك رضى الله عنه من الدخول وتلا الآية ، والنفس تطمئن أكثر إلى أن حادث وضع الحجاب على الباب هو المقصود وأنه متصل بالحادث الأول ؛ وعلى كل حال فليس الحجاب هنا هو نقاب الوجه كما هو مستقر في بعض الأذهان .

ومع أن الآيات قد نزلت لأسباب خاصة فإن الممكن الاستدلال بها على أن المسلمين كانوا يدخلون إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بإذن وبلا إذن ، وبدعوة وبغير دعوة ، وينتظرون نضج الطعام إذا كانوا مدعوين إلى طعام ، ويقضون الوقت في السمر والحديث ، وأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن يحضرن مجالسهم ، وأن هذا كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ويضايقه ولكنه كان يستحيي أن يجبههم بالمنع ؛ والراجح أن هذا كان شأن المسلمين عامة فيما بينهم أيضاً ، جرياً على مألوفهم ، أو بالأحرى على مألوف العرب الذى تلهمه آيات سورة النور (٢٧ ـ ٣١ و٥٨ ـ ٦٠) على ماسوف نذكره في مناسبة أخرى ، مع احتمال أنهم كانوا يكثرون منه بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم وبيوته ، لأنه صار فيهم الهادي المرشد ، والزعيم الجامع ، والمعلم الواعظ ، والقاضي والمفتي ، وصارت بيوته مثابتهم؛ لأنها بيوت الأمة العامّة ، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم كان في الوقت نفسه يكثر دعوة المسلمين إلى الطعام في بيته ، ولقد استفاضت الروايات بأنه كان كثيراً ما كان يطعم الذين كانوا يعتكفون في مسجده من فقراء المسلمين وغربائهم والمتعطلين عن الكسب منهم .

والذي تلهمه روح الآيات ونصوصها أن ما كان يؤذي النبيَّ صلى الله عليه وسلم هو إطالة المكث في بيوته والدخول إليها بلا إذن وفي غير الأوقات المناسبة ، لا سيما أن

البيوت فيما نرجح لم تـكن تحتوي على مرافق تستطيع زوجاته فيها التمتع بحرياتهن ؛ وأن الآيات هى بسبيل تنظيم هذا الأمر ، مع استثناء محارم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم الأدنين وملك اليمين والنساء . وليس في الآيات نص صريح يحظر دخول المسلمين إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بعد الاستئذان والإذن ولحاجة غير تناول الطعام ؛ وقد تعددت الروايات التي تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأذن لمن شاء من المستأذنين بالدخول عليه في بيوته ؛ وليس في الآيات كذلك نص صريح يحظر اجتماع المسلمين من غير المحارم بنساء النبي صلى الله عليه وسلم على الطعام أو غيره وفي بيوته بعد الاستئذان والإذن والدعوة أو في خارجها ولو لحاجة غير تناول الطعام ، وإن كانت روح الآيات أميل إلى الحظر ، وعلى كل حال ففي الآيات صورة لما كان الأمر عليه وما صار إليه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم البيتية وصلة المسلمين بها .

الصورة السادسة

(٥) في سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ... ٥٩

ورواية النزول تذكر أن النساء كنّ يخرجن لقضاء حاجتهن بزي واحد حرائر وإماء وكان بعض الرجال يتعرضون لهن بدون تفريق ؛ فأمرت الآية حرائر المسلمين بإسبال الجلباب للتفريق بينهن وبين غيرهن .

وقد جاء بعد هذه الآية ثلاث آيات يرجح أن يكون لها صلة بها وهى :

« لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟

وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً . سُنَّةَ ٱللهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً ... ٦٠ ـ ٦٢

وقد تدل الآيات على أن المنافقين ومرضى القلوب والأخلاق لم يكونوا يتورعون عن إدارة ألسنتهم في أعراض النساء وإشاعة الشوائع عنهن ، وإسماعهن بذيء الكلام وفاسقه ، فأنذرتهم الآيات هذا الإنذار القاصم ، هذا مع احتمال أن يكون الإنذار بسبب ما كان يلقاه نساء المسلمين من الأذى الذي أشارت إليه الآية (٥٩) وما كان يبدر من هذه الفئات من بذاءات وغمزات بصورة عامة .

والآية (٥٩) عامة الشمول ، وإنما سلكناها في هذا المبحث لأنها ذكرت نساء النبي صلى الله عليه وسلم وبناته ، ولأنها تبعا لذلك أدمجتهن في الصورة التي تنطوي فيها .

وننبه إلى أن في الآية إلهاماً تشريعياً آخر ؛ وهو أن الأحكام التي احتوتها آيات الأحزاب ٢٨ ـ ٣٤ و ٥٣ ـ ٥٥ التي نقلناها من قبل ، هى خاصة بزوجات النبي صلى الله عليه وسلم دون سائر نساء المسلمين ؛ فلما اقتضت الحكمة أن يكون حكم عام أو تعليم عام للجميع ذكرن مع سائر النساء . على أن الآيات المذكورة تحتوي في حد ذاتها شيئا من الصراحة في هذا المعنى أيضا :

الصورة السابعة

(٦) في سورة التحريم الآيات الآتية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ ٱللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ

ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ . إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ... ١ ـ ٥

وقد روى المفسرون في سياق هذه الآيات روايات عدة على اختلاف بينها في الوقائع والأسماء ، ومنها ما يجعل مناسبة آيات الأحزاب (٢٨ ـ ٣٤) التخييرية متصلة بها ، بل ومنها ما يذكر أن بعض الحديث الذى أسرّ به النبي صلى الله عليه وسلم متعلق بالخلافة من بعده .

وخلاصة الرأي الأقرب إلى الصحة من غيره من أسباب نزول الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطيل المكث عند زوجته زينب ويشرب عسلا ، فتواطأت عائشة وحفصة على الكيد لها ، واتفقتا على أن تقولا له إن رائحته رائحة مغافير ، وهو صمغ حلو الطعم غير طيب الرائحة يمتصه النحل ، فلما قالتا له ذلك أو قالته إحداهنّ قال : بل شربت عند زينب عسلا ! فقالت له : لعل العسل جنى العرفط ؛ وهو الشجر الذى يخرج منه الصمغ. فحلف أو وعد بألّا يعود إليه ، وطلب ممن حلف أمامها أن تكتم القصة ولكنها لم تكتمها ، وأخبرت بها زميلتها ، ففشا الحديث فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وحلف ألّا يقرب زوجاته شهراً ، وهجرهنّ حتى قيل إنه طلقهنّ ، ثم سكت عنه الغضب عند تمام الشهر ونزلت الآيات . وهناك رواية تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع بمارية في بيت حفصة ، فلما علمت استرضاها بيمين ألّا يقرب مارية واستكتمها الخبر ، ولكنها أفشته لعائشة[1] .

ومهما يكن من أمر الروايات فالآيات تحتوي صورة حادث بيتي وقع بين النبي صلى

(١) الرواية الأولى من مرويات البخاري ومسلم والترمذي انظر التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج ٤ ص ٢٣٩ .

الله عليه وسلم وبعض زوجاته ، وأنه قد وقع بسبب الغيرة النسائية ، وأن اثنتين منهما كانتا متآمرتين فيه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أحب أن يتصرف في الحادث تصرفاً فيه مسايرة ومراضاة ، فاستغلت إحداهما هذا الموقف الكريم منه وأفشت ما حدثها أو ما وعدها به ، وأن هذا آلمه وحزّ في نفسه حتى هم بتطليق نسائه ثم أوحى الله إليه بالآيات التي اكتفى فيها بالتنديد والإنذار . أما ما حرمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه باليمين فمن الصعب الجزم به ، فمن المحتمل أن يكون العسل أو قرب مارية مدة ما أو ما كان من حلفه بهجر نسائه شهراً ؛ ونحن نرجح أن يكون أحد الأمرين الأولين أو ما يماثلهما ، لأن الآية تنص على أن النبي صلى الله عليه وسلم حرّم على نفسه ما يحل له ، وأنه حرّمه مرضاة لأزواجه ؛ وننبه إلى أن تحريم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحل الله له ليس بمعنى جعل الحلال حراماً ، وإنما بمعنى حرمان نفسه ما هو حل له مما ليس غريباً في الحياة البشرية .

الصورة الثامنة

(٧) في سورة النور الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَّوْلَآ[1] إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ . لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن

(١) هي وغيرها في الآيات بمعنى : هلا .

تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَاتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ... ١١ ـ ١٩

وموضوع الآيات هو ما عرف في السيرة النبوية بحديث الإفك عن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها . وخلاصة القصة على ما رواه البخاري ومسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم استصحب عائشة في إحدى غزواته على عادته في استصحاب إحدى نسائه معه ، وأن الجيش في العودة نزل منزلا فذهبت عائشة لحاجتها ثم فقدت عقداً لها فتأخرت في البحث عنه فلما رجعت وجدت الجيش قد رحل بهودجها إذ حمله الموكلون به يظنون أنها فيه ، فجلست مكانها أملا أن تفتقد فيرسل في أثرها ، وكان أحد المجاهدين متأخراً ؛ فلما وقع نظره عليها أناخ بعيره فركبته ولحقت بالجيش . وقد كان تأخرها وقدومها مع المجاهد وسيلة لظن بعض المسلمين والمنافقين السوء ، وقد استغل رئيس المنافقين « أبيّ » الحادث استغلالا قبيحاً فتولى إشاعته والخوض فيه واتسعت دائرته بالتناقل حتى أثر ذلك في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، واتفق أن مرضت عائشة فرأت من النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من الجفاء لم تعهده ، فاستأذنت وانتقلت إلى بيت أبيها ؛ ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يزورها فقد ظل منقبضاً جافياً حتى أنه أخذ يشاور أخصاءه في أمرها ؛ وقد شكا على المنبر ما ناله من أذى من الخوض في الحديث ، ولقد جرى كل هذا دون أن تدري عائشة منه بشيء إلى أن عرفت ذلك اتفاقا بعد نحو شهر ، فكبر همها وبكت كثيراً لما في الحديث من إفك قبيح وما كان له من أثر وذيوع . وقد تحدث إليها النبي صلى الله عليه وسلم أخيراً في مجلس من بيت أبيها وعلى مسمع من أبويها طالبا إليها أن تقول شيئاً وأن تستغفر الله إن كانت ألمت بذنب ، فتكهرب الجو وأخذتها الأنفة أن تبرىء نفسها معلنة طمأنينتها إلى أن الله لابد أن يبرئها . وقد أخذ الوحي النبي صلى الله عليه وسلم في المجلس ، فلما انفصل عنه تهلل وجهه وهتف بعائشة مبشراً ثم تلا الآيات .

ومع أن الآيات ليست بسبيل حكاية القصة ، شأنها في ذلك شأن ماورد في القرآن من أحداث السيرة ، فإنها تحتوي بعض الدلالات المتسقة مع المروي إجمالا ، كما أن فيها دلالة على ما كان للحادث وظروفه من آثار مزعجة ومؤذية ، ومستوجبة للنقد والتنديد ، لا سيما ما كان من غفلة جمهور المسلمين عما فيه من إفك ظاهر وكيد بين كان يجب أن يدركوه بداهة حينما سمعوه ، لأن الذين قيل في حقهم أرفع وأطهر من أن يتورّطوا فيه ، وما كان في سلوكهم من بواعث الألم النفساني في النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة وذويها، وفيها كذلك نقد أو عتب على من يتصل الحادث بهم شخصياً بسبب سكوتهم أوحيرتهم أو اختلاج نفوسهم باحتمال صحته ، إذ كان يجب أن يدركوا الأوّل وهلة مافيه من كذب وبهتان ، وأن يعلنوا هذا في الحال .

ولعل مايحمل عليه التنديد بالساكتين الغافلين أو الحائرين المترددين من جمهور المسلمين أو الأخصاء ، وعلى انتقاد موقفهم ، بيان مافي الحديث من إفك بديهى ، وأنه لا يمكن أن يصح في العقل ، أولا : أن تقترف زوجة النبي صلى الله عليه وسلم إثما خطيرا مثل الذى نسب إليها ، وهى ابنة أول بيت في الإسلام بعد بيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي مرتبة سامية من الكرامة عند الله والمسلمين تمنعها منه بداهة ، وهى مع ذلك زوجة النبي التي كانت تعتقد أن وحي الله متصل به وأن الله لا يخفى عليه شيء . وثانيا : أن يجرؤ مسلم على التعرض لزوجة النبي صلى الله عليه وسلم وفيه ذرة من إيمان بالله ورسوله . والحق أنه من الغريب ألا تكون هذه الحجة وروح الآيات مقنعة لكل ذى عقل ببراءة عائشة وتنزهها ، وأن يكابر أحد في ذلك مكابرة ما ، ونعتقد أن إعارة الروايات كل الاهتمام ، والغفلة عن التمعن في نصوص الآيات وروحها ، والأهواء الحزبية التي كان مبعثها الفتنة الهوجاء بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه ــ من أسباب ما كان حول هذا الحادث من قيل وقال ، وروايات جعلت بعض ذوي الهوى يستغلونه استغلالا مغرضاً كما استغله المنافقون ومرضى القلوب في زمن النبي ؛ والآية الأخيرة قوية التعبير عن هذا المعنى ؛ إذ تدل على أن فئة كانت هنالك تتعمد إشاعة الفاحشة وأخبار السوء عن المسلمين المخلصين ، وهي

التي خاضت في الحديث وتولت كبره ، ولقد جاء بعد قليل من الآيات آية أخرى متصلة بذلك وهي :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... ٢٣

الصورة التاسعة

(٨) إن رواة أسباب نزول سورة الكوثر .

« إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ » .

قالوا : إن بعض بغاة الكفار وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأبتر تعييراً له ، لأنه لم يعش له أولاد ذكور ، فنزلت السورة تندد به من جهة ، وتبشر النبي صلى الله عليه وسلم بماله من قدر عظيم عند الله من جهة أخرى .

وروايات السيرة المتعددة التي بلغت مبلغ اليقين تخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رزق أولاداً ذكوراً من السيدة خديجة رضى الله عنها زوجته الأولى ، ومن أمته مارية رضى الله عنها ، ولكنهم لم يعمروا إلا قليلا . ولقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم التاع أشد اللوعة عند ما مات إبراهيم بن مارية في يثرب . وروح السورة تلهم أن تعيير النبي صلى الله عليه وسلم بالأبتر قد حزّ في نفسه كثيرا ، وقد يكون في هذا مايدل على أن عدم تعمير أبنائه الذكور كان شديد الأثر فيه . ولقد ذكر بعض الكتاب أن مما يمكن أن يخطر بالبال أن يكون زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة وصفية وجويرية وميمونة ومارية رضى الله عنهن وكلهن فتيات بسائق الرغبة في الأولاد الذكور ، ولا يخلو هذا من بعض الوجاهة فيما نرى .

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم تبنى قبل بعثته : زيد بن حارثة رضى الله عنه وهو فتى صغير ، وكان عبدا لخديجة رضى الله عنها فاستوهبها إياه وأعتقه وتبناه . فليس

مما يستبعد أن يكون هذا التبني بسبب من عدم تعمير أولاده الذكور من السيدة خديجة رضى الله عنها .

والقرآن ينص بصراحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له بنات بلغن مبلغ النساء ، وذلك في آية الأحزاب (٥٩) ، والأخبار اليقينية أن بناته من السيدة خديجة أيضاً ، وأن السيدة فاطمة رضى الله عنها منهن هى التي خلفت ذرية ، وأن الثلاث الأخريات ، زينب زوجة الربيع بن العاص ، ورقية وأم كلثوم زوجتي عثمان بن عفان رضى الله عنهما بالتوالي ، قد متن بلا ذرية .

الصّورة العاشرة

(٩) في سورة الحجرات الآية التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . .

٤ ـ ٥

ورواية سبب النزول تذكر أن وفدا من البادية جاء ليرى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ؛ فلما لم يجده أخذ يناديه من وراء حجراته بأصوات عالية حتى أيقظه من قيلولته .

والآية الأولى مع ماروى سببا لنزولها تدل على أن بيوت النبي صلى الله عليه وسلم كانت حجرات متلاصقة في طرف مسجده ، بحيث كان المسجد منها كأنه ساحة أمامها . وهذا مؤيد بالروايات التي بلغت مبلغ اليقين .

الصّورة الحادية عشرة

والمناسبة سانحة لقول كلمة بشأن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ومجالسه فيه ، فقد كان المسجد على ماذكرته الروايات المتواترة ساحة مسوّرة بأربعة أضلاع ، وفي أحد

أركانها حجرات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن هذه الساحة كانت مكان صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين كما كان بها مجلسه معهم للوعظ والقضاء والفتيا واستقبال الوفود وحل المشاكل والمداولة في شؤون المسلمين المتنوعة ، وكان بعضها مغطى بسعف النخل وقد أقيم السقف على أعمدة من جذوع الشجر ، وصنع له نجار في أخريات سنيه درجتين من خشب للإشراف من فوقهما على المسلمين قاعدا وقائما وهما اللتان يسميان منبره الشريف .

ولقد جاء في سورة المائدة في صدد شهادة أوصياء من يموت غريباً ، إشارة إلى استماع شهادتهم بعد الصلاة ، وهي في هذه الآية .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ... ١٠٦

إذ احتوت الآية تعليما بعقد مجلس قضائي بعد الصلاة ، وهذا بالنسبة للظرف الذي نزلت فيه هو في الغالب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ليعقد المجلس في مسجده بعد صلاته بالناس حيث يكونون شهوداً . وفي هذا قرينة أو بالأحرى دلالة على ماذكرناه آنفاً وتواترت به الروايات .

ولقد جاء في سورة البقرة آية فيها حث على المحافظة على الصلاة الوسطى وهي .

« حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ... ٢٣٨

والجمهور على أنها صلاة العصر ، حتى أن في موطأ الإمام مالك حديثين عن عائشة وحفصة رضى الله عنهما أنهما أمرتا ناسخاً ينسخ مصحفين لهما أن يكتب جملة « صلاة العصر » بعد جملة « الصلاة الوسطى » ، ولعل ذلك من قبيل التفسير . ولقد روى أن

النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس إلى أصحابه بعد صلاة العصر ، فمن السائغ أن يقال إن إطلاق كلمة الصلاة في آية المائدة إنما كان لأن وقت مجالس النبي صلى الله عليه وسلم للقضاء والوعظ وحل المشاكل المتنوعة كان معروفاً ، ولعل اختصاص الصلاة الوسطى التي هى صلاة العصر بالحث على المحافظة عليها هى لبعث اهتمام المسلمين لشهود هذه المجالس . والحق أن وقت العصر هو الملائم لهذا بسبب قيظ النهار ومشاغل الناس فيه .

ولقد جاء في سورة المجادلة الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ... ١١

والآية تتضمن تأديباً عاماً مستمر التلقين ، وقد قال جمهور المفسرين والرواة : إن المجالس المذكورة هى مجالس النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا وجيه من ناحية نزول الآيات لظروف ومناسبات حاضرة ثم تكون تشريعاً وتعليما مستمرين . وعلى هذا فالآية تلهم أن المسلمين قد تأثروا بالحث على شهود الصلاة الوسطى لشهود مجالس النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ، وأنهم كانو يتسابقون إليها حتى ليصعب على المتأخرين أو الشيوخ أو المرضى أو الضعفاء أن يجدوا مكاناً . فاقتضت الحكمة تأديبهم بهذا الأدب الذى ينطوي على التطييب والوعد الحسن في الوقت ذاته .

ولقد جاء في سورة المجادلة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ١٢ ـ ١٣

وقد روى أكثر من رواية في سبب نزول الآيتين ، منها : أن الناس سألوا النبي فأكثروا حتى ثقل عليه ذلك فأراد الله أن يخفف عنه فأمرهم بتقديم صدقة بين يدي أسئلتهم .

ومنها : أن الأغنياء كانوا يغلبون الفقراء على مجالس النبي صلى الله عليه وسلم فثقل ذلك عليه وعليهم فنزلت الآية الأولى فكانت فرجا لهؤلاء ومشقة على أولئك وقلت مراجعة الأغنياء للنبي فلم تلبث أن نزلت الآية الثانية بنسخ الأولى .

وصيغة الآيتين تدل على أن كلا منهما نزلت لحدتها على ماجاء في الرواية الثانية ، غير أننا غير مطمئنين لجميع ماجاء في هذه الرواية ولا الرواية الأولى ؛ لأن هذا غير منسجم مع مهمة الرسول وطبيعة أخلاقه على مانعتقد ، والذي يتبادر لنا أن المسلمين كانوا يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم في غير المجالس العامة المعينة أيضا ويستفتونه في مشاكلهم الخاصة ، ومنهم من كان يطلب منه خلوة أو مجلساً خاصاً من أجل ذلك ، وهذا هو مفهوم تعبيري « ناجيتم ، ونجواكم » اللذين ينطويان على معنى المسارّة ، وأن هذا قد كثر فاقتضت حكمة التنزيل أن يفرض رسم على الأغنياء منهم لتصرف حصيلته في أمور المسلمين العامة كما تدل عليه تسميته بالصدقة ، فثقل ذلك على هؤلاء وقالوا: إن الزكاة كافية ،فاقتضت الحكمة العدول عنه في الآية الثانية .

ومهما يكن من أمر ففي الآيتين صورة لما كان يعقده النبي صلى الله عليه وسلم من مجالس أو خلوات خاصة لمن يطلب من المسلمين ، بسبيل الاستماع إلى مشاكلهم الذاتية وحلها أيضا .

الصورة الثانية عشرة

هذا ولقد ذكر المفسرون في سياق تفسير فقرة جاءت في آية سورة النساء (٤٣)وهي « إلا عابري سبيل » أنه كان لبعض أصحاب رسول الله أبواب (خوخات) مفتوحة على المسجد النبوي ، وكان ساكنو البيوت يضطرون إلى العبور منها ، فرخص لهم . ونحن

نتوقف في قبول هذا الخبر لتعارضه مع رواية بناء أسوار المسجد ، ونميل إلى القول بأن الترخيص القرآنى إنما كان لسكان بيوت النبي صلى الله عليه وسلم . نقول هـذا ونحن نعرف أن هناك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر فيه بإغلاق خوخات المسلمين عن مسجده إلا خوخة أبي بكر رضى الله عنه ، فهل أقام أصحاب رسول الله مساكنهم من وراء سور المسجد بعد إنشائه ثم فتحوا خوخات لهم في هذا السور ، سؤال نحار في جوابه ، ولا نمنع أنفسنا من استغراب الأمر لبعده عن الاحتمال ، ونخشى أن يكون لما كان من مشادة بين أهل السنة والشيعـة حول الخـلافة النبوية أثر ما في هذا الخبر ، ففى الروايات المروية أسباب لنزول بعض الآيات . وفي الأحاديث المسندة أو المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ـ كثير من هذا الباب[1] .

الصورة الثالثة عشرة

ليس في القرآن بطبيعة الحال شيء عن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولـكن هناك روايات في صدد سورة النصر وغيرها تتصل بتعيين وقت هذه الوفاة .

فهناك رواية تفيد أن آخر ما نزل من القرآن هو الجملة القرآنية : « اليوم أكملت لـكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لـكم الإسلام ديناً » من آية المائدة الثالثة ، وأنها نزلت في حجة الوداع النبوية في السنة الهجرية العاشرة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يلبث بعدها ألا أشهرا قلائل .

وقد توقفنا في تفسيرنا عن قبول هذه الرواية ونبهنا إلى بعدها ، لأن الجملة بعض آية طويلة لها صلة وثيقة بمطلع السورة وبالآيات التي تليها ، ولأن كلمة « اليوم » التي اتخذت دعامة على ما يبدو للرواية قد تـكررت في الآية الخامسة من السورة التي لم يقل أحد إنها نزلت مع تلك الجملة .

---

(١) هناك حديث عن زيد بن أرقم عن النبي (صلعم) أنه قال (سدوا هذه الأبواب إلا باب علي) وهذا الحديث لم يرد في مسانيد الأحاديث الصحيحة ، ومن رواته ميمون الذي يضعفه بعض علماء الحديث (انظر مجمع الزوائد ج ٩ ص ١١٤) أما الحديث الذي يروى أمر النبي بعدم إبقاء غير باب أبي بكر فقد رواه البخاري ومسلم والترمذي . (انظر التاج . ج ٣ ص ٢٧٣) .

وهناك روايات عن آخر ما نزل من القرآن ليست وثيقة من جهة وليس معها قرينة زمنية متصلة بوقت وفاة النبي صلى الله علية وسلم من جهة أخرى . غير أن هناك رواية تذكر أن سورة النصر وهي :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً » .

قد نزلت قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، بل تذكر أنها آخر السور القرآنية نزولا ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الفطنة من المسلمين قد استشعروا منها انتهاء مهمته وقرب وفاته[1] . وروح آيات السورة ومدى مضمونها من جهة والقرينة الزمنية بقدوم وفود العرب ومبايعتهم النبي صلى الله عليه وسلم ودخول الناس في دين الله أفواجاً في السنتين التاسعة والعاشرة من الهجرة ـ إذ ثبت بالتواتر الذي بلغ مبلغ اليقين أن النبي مات في ربعها الأول[2] ـ من جهة أخرى ـ تؤيد هذه الرواية أكثر من غيرها فإن السورة ـ وإن كانت تضمنت كلمة «الفتح» التي ذهب المفسرون أن المقصود بها مكة ـ قد جاءت بسبيل التذكير أولا ، واحتوت الآية الثانية من السورة إلى ذلك إشارة إلى المشاهد التي تمثلت في سيل الوفود المتدفق من أنحاء الجزيرة على المدينة ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام بعد انهدام السور الذي كان يحول بين عامة العرب وبينه بوقوف مكة موقف الجاحد المناويء له ثانياً : وقد بدأت هذه المشاهد في العام التاسع وامتدت إلى العام العاشر ، وطبيعي أن ذكر هذه المشاهد إنما كان عقب حدوثها أو على الأقل عقب ما يصح أن يكون مفهوما واقعيا للآية الثانية ، ولذلك نرجح الرواية التي تذكر أن سورة النصر هي آخر السور نزولا حتى ولو لم تكن آخر الآيات القرآنية

---

(١) في حديث رواه البخاري والترمذي وأحمد أن ابن عباس قال: إن هذه السورة علامة أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد روى الزمخشري في الكشاف أن هذه السورة نزلت بمنى في حجة الوداع وهي آخر ما نزل من السور .

(٢) كانت وفاته صلى الله عليه وسلم ليلة الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة على المشهور .

نزولا ؛ وأنها نزلت في أوائل السنة الهجرية العاشرة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يلبث أن توفي قرير العين بالنجاح الباهر الذي يسره الله له فيما ندبه له من رسالته الربانية ، وبانتشار كلمة التوحيد والإسلام في مختلف أنحاء الجزيرة ، وانفتاح الآفاق الأخرى أمامها ، وتوطيد سلطانها ، وفي اجتماع العرب في كيان عامّ بعد أن كانوا شيعاً ، وفي انفساح المجال أمامهم بعد الحياة الاجتماعية والاقتصادية الضيقة ، وفي إتمام دوره السياسي والاجتماعي والتشريعي العظيم إلى جانب دوره الديني والروحي ، وهو الدور الخالد على اختلاف الدهر وتعاقب الأيام والذي يفترق فيه عن أدوار النبيين والرسل من قبله ، إذ كانت أدوارهم إما دينية وروحية ، وإما قومية ومحلية تحقيقاً للدعوة التي أمره الله بها في هذه الآيات :

١ — ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ... الأعراف ١٥٧ — ١٥٨

٢ — يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ. يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... المائدة ١٥ — ١٦

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ... الأحزاب ٤٥ — ٤٦

ومستحقا لما اختصه الله به من الصلوات والبركات :

« إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ... الأحزاب ٥٦

فيستجيب إليها أتباعه الذين يعدون بمئات الملايين مرات عدة كل يوم ومنذ ألف وثلاثمائة عام ونيف هاتفين مرات عدة في اليوم الواحد وفي مشارق الأرض ومغاربها : اللهم صل وسلم وبارك عليه .

المبحث الخامس

صور من اجتهادات النبي الشخصية أو الملهمة

وما نزل في صددها من القرآن . وصلة ذلك بالعصمة النبوية

في القرآن آيات عديدة تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقدم على أمور ويعتزم عزائم باجتهاد منه أو بإلهام رباني ثم يتنزل وحي قرآني فيه إقرار وتأييد أو عقاب وتثريب مما ينطوى فيه صور هامة في صدد السيرة النبوية الشخصية والوحى القرآني معاً .

ومن الأمثلة على النوع الأول وقعة بدر . فإن سورة الأنفال التي تضمنت بعض مشاهد وشؤون هذه الوقعة قد نزلت بعد انتهاء الوقعة على ما هو متفق عليه . والمفسرون يروون[1] أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه (هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله تعالى أن ينفلكموها) وأن العير لما نجت وشاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الاشتباك بالقتال مع الجيش القرشي الذي جاء للدفاع عن العير وشجعه زعماء الأنصار على الأقدام استبشر وسر وقال (سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني احدى الطائفتين العير أو قريش . والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم) ثم نزلت سورة الأنفال بعد انتهاء الوقعة فيها تأييد لذلك حيث جاء فيها هذه الأيات فيما جاء :

« كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ . يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ . وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ

---

(١) انظر تفسير سورة الأنفال في تفسير الطبري والبغوي والطبرسي وابن كثير والخازن .

لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ . لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ... ٥ ـ ٨

وهكذا يكون خروج النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إلى بدر والوعد الرباني الذي أخبر به إلهاماً ربانيا .. ثم تأيد بالوحى القرآني .

ومن هذا النوع كذلك خروج النبي صلى الله عليه وسلم على رأس أصحابه إلى مكة بقصد زيارة الكعبة في السنة السادسة للهجرة بناء على رؤيا رآها واعتبرها أمراً أو إلهاماً ربانياً . ولما انتهى أمر الخروج بانعقاد الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش وهو صلح الحديبية واستغرب بعض أصحاب رسول الله عدم تمام الزيارة التي أخبر النبي بها ونزلت سورة الفتح تضمنت إحدى آياتها تأييدا للرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم هكذا :

« لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا . هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ... ٢٧ ـ ٢٨

ومن النوع الثاني قرار النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ الفداء من أسرى بدر فعوتب على ذلك قرآنا في آيات سوة الأنفال هذه :

« مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٦٧ ـ ٦٩

ومن ذلك استغفار النبي والمؤمنين لبعض أقاربهم من موتى المشركين فعوتبوا على ذلك قرآنا في آيات سورة التوبة هذه :

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ. وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ... ١١٣ ـ ١١٤ (١)

ومن ذلك إذن النبي صلى الله عليه وسلم للذين استأذنوه من المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك فعوتب على ذلك عتاباً رقيقا . . في آيات سورة التوبة هذه :

« عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ. لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ... ٤٣ ـ ٤٥

ومن ذلك عبوسه حينما جاء إليه الأعمى مسترشداً لئلا يشغله عن حديثه مع زعيم مشرك فعوتب على ذلك قرآنا . . في آيات سورة عبس هذه :

« عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ . أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ . أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ... ١ ـ ١٠

ومن ذلك ما اختلج في نفسه من رغبة في مسايرة المشركين في بعض رغباتهم أو في التردد من تلاوة بعض ما أنزل الله عليهم في ظرف أزمات نفسية فعوتب على ذلك قرآنا في آيات سورة هود والإسراء هذه :

١ — فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ

---

(١) النص يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رأوا في استغفار إبراهيم لأبيه المشرك أسوة فقلدوه فنبهتهم الآية إلى الحق في ذلك .

أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . . .

هود ١٢

٢ — وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذاً لَأذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً . . .

الإسراء ٧٣ ـ ٧٥

ومن ذلك تحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه بعض ما أحله الله له وهو أنه حلف على نسائه في ظرف من الظروف فعوتب على ذلك عتاباً رقيقاً . . في آيات سورة التحريم هذه :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ...

١ ـ ٢

ولقد ذهب بعض المفسرين[1] في مدى تفسير آيات سورة النجم هذه :

« وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ...

١ ـ ٤

إلى أنها تشمل كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل ديني ودنيوي . وإلى أنها من الدلائل القرآنية على العصمة النبوية . مع أن هذا يتعارض بنوع خاص مع النصوص القرآنية التي فيها عتاب ولوم للنبي صلى الله عليه وسلم على بعض ما صدر منه مما أوردناه آنفاً كما هو المتبادر . وآيات سورة النجم منسجمة كل الانسجام مع بقية سياقها الذي جاء فيها إلى آخر الآيات الثماني عشرة كما ترى فيها :

---

(١) انظر تفسير سورة النجم في تفسير النيسابوري والطبري والخازن .

« عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ . مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ . أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ . وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ . إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ... ٥ ـ ١٨

ومجموعة هذه الآيات في صدد توكيد صحة ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم من مشهد روحاني شاهده بالقوة التى اختصه الله بها كما هو واضح بقوة من نصها وروحها . بحيث يكون صرف الآيات الأربع الأولى منها إلى غير ذلك أو تشميلها لغير ذلك تجوزاً كبيراً .

ولسنا نرى مساساً بالعصمة النبوية من هذه الناحية ولا من ناحية تلك الاجتهادات التى عوتب عليها في القرآن . فالاجتهادات التي عوتب عليها ليست ذنوبا يمكن أن يكون صدورها من النبي مناقضاً للعصمة التي يجب الإيمان بها فيه . وإنما هى خلاف لما هو الأولى في علم الله المغيب عنه فيما لا وحى فيه . والعصمة الواجب الإيمان بها ليست هى التي تجعل النبي يمتنع عليه أن يصدر منه أى فعل أو قول أو اجتهاد في مختلف شؤون الحياة والناس قد يكون فيه الخطأ والصواب وخلاف الأولى الذي في علم الله والذي لا ينكشف له إلا بوحي مما لا يمكن أن ينتفي عن الطبيعة البشرية النبوية المقررة في القرآن ولكنها التي تجعله يمتنع عن أى إثم أو جريمة أو فاحشة أو مخالفة للقرآن قولا وفعلا . . وعن كتم أي شيء أوحي به إليه أو تحريفه وتبديله نتيجة لما وصل إليه بنعمة الله وفضله من كمال الخلق والروح والعقل والإيمان والاستغراق في الله الذي جعله أهلا للاصطفاء الرباني .

المبحث السادس

صور لسلوك المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم

تناول هـذا المبحث صوراً مشرقة عن مواقف المسلمين من النبي في العهد المـكي وتفانيهم في اتباعه وتعظيمه ودلالة هـذه المواقف ـ تنوع مواقف المسلمين في الاحتشام والتأدب في مجالس النبي ـ صور مشابهة أخرى ـ موقف بعض المسلمين من تشريع صدقة النجوى ـ مواقف غير مستحبة تلهمها بعض الآيات ـ توطيد القرآن لطاعة النبي ومدى ذلك ـ انعـدام المواقف السلوكية غير المستحبة إزاء النبي في العهد المـكي وكثرتها في العهد المدني وتعليل ذلك .

الصورة الأولى

في القرآن آيات تأديبية وتعليمية كثيرة في صدد سلوك وآداب المسلمين نحو النبي كما فيه آيات تنويهية فيها ثناء على ما كان يبدو من المسلمين المخلصين من تفان وإخلاص وطاعة له ، فرأينا أن نعقد لها هذا المبحث لأنها تنطوي على بعض الصور المتصلة بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية ما ، وننبه إلى أن ما نعرضه هنا هو غير ما انطوت عليه آيات أخرى من صور لسلوك المنافقين أو سلوك المسلمين من الدعوة إلى الجهاد وظروفه إذ يأتي هذا وذاك في فصليهما الخاصين .

الصورة الثانية

(١) أوردنا في نهاية المبحث السابق الآية (١٥٧) من سورة الأعراف . وقد احتوت صورة مشرقة من تفاني المسلمين في العهد المكى في النبي صلى الله عليه وسلم ونصره توقيره واتباع وصاياه والنور الذى أنزل معه ؛ وهذه الصورة كما تلهمه الآية تشمل الكتابيين ، بل إن الآية تـكاد تـكون فيهم لولا فقرتها الأخيرة التي احتوت تعميما للذين آمنوا .

وينطوي في هذه الصورة وصف رائع لما كان من تأثر المسلمين الأولين بالنبي صلى الله عليه وسلم ونور نبوته الساطع وأعلامها الصادقة ، ويقين الكتابيين منهم بأنها منطبقة على ما يجدونه عندهم من أوصاف وإشارات للنبي الموعود والهادي المنتظر ، انطباقا يظل خالد الشهادة على كر الدهور (١) .

(٢) في سورة الزمر الآيات التالية :

« وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ... ١٧ – ١٨

وهذه أيضا احتوت صورة مشرفة أخرى لتفاني المسلمين في العهد المكي في الإصغاء إلى تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم وإرشاده وما يتلوه من آيات قرآنية ، وبالتالى لتأثرهم بنور نبوته وأعلامها الصادقة ، وحرصهم نتيجة لهذا التأثر على تحري الأفضل والأحسن والأهدى واتباعه .

---

(١) في أسفار العهد القديم والأناجيل المتداولةاليوم إشارات عديدة يمكن أن تكون من جملة ماينطبق على صفات النبي صلعم ورسالته . وقد عقد السيد رشيد رضا في الجزء التاسع من تفسير المنار فصلا : طويلا : على ذلك أورد فيه ثماني عشرة بشارة مستمدة من أسفار العهد القديم والأناجيل وناقش الشبهات التي يوردها المبشرون . وأورد من الحجج مافيه المقنع لراغبي الحق والحقيقة بصواب استنتاجاته وقوة حججه . وليس هناك أي دليل على أن الأسفار المتداولة اليوم العهدين القديم والجديد هي كل ما كان متداولا في زمن النبي صلعم وقبله . وليس مايمنع أن يكون فيما لم يصل إلينا بشارات وأوصاف أكثر صراحة مما هو وارد في الأسفار المتداولة اليوم . وآية الأعراف قد نزلت في الذين تبعوا النبي من أهل الكتاب في مكة بناء على ماوجدوه فيه من صفات مطابقة لما كان بين أيديهم من أسفار . ومن المحال أن يكون ذلك جزافاً . وهناك إنجيل متداول منسوب إلى حواري اسمه برنابا فيه نصوص متفقه مع نصوص القرآن عن عيسى وحياته وشخصية ورسالة النبي محمد وصفاته . ومهما يكن هناك من مآخذ توجه إلى هذا الإنجيل فإن نصوص القرآن الذي لا يمكن لأحد أن يشك في أنه وثيقة تاريخية أمينة سليمة فضلا عن قدسيتها ترجع إلى أربعة عشر قرنا تحتوي الدليل القاطع على أنه كان فيما يتداوله أهل الكتاب من أسفار إشارات إلى صفات النبي محمد عليه صلوات الله ورسالته .

الصورة الثالثة

(٣) في سورة الحجرات الآيات التالية :

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ... ١ – ٣

والروايات عن سبب نزول الآية الأولى متعددة ، منهـا اختلاف أبي بكر وعمر رضى الله عنهما في أمر في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يسألهما رأيهما فيه ، ومنها صيام بعض المسلمين رمضان قبل أن يعلن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوته ، ومنها ذبح بعض المسلمين قربان عيد الأضحى قبل ذبحه ؛ وروى في صدد الآية الثانية أنهـا نزلت في مسلم جهير الصوت كان إذا تـكلم ارتفع صوته حتى يرتفع على صوت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولم يرو سبب لنزول الآية الثالثة .

ومهما يكن من هذه الروايات وما تحتمله من المناقشة فإن مما لا شك فيه أن الآيات نزلت بمناسبة بعض وقائع اقتضت الحـكمة الربانية التنبيه على مافيها من مأخذ ، وتأديب المسلمين فيها . وعلى كل حال فالآيات تدل على أن المسلمين كانوا أصنافا مع النبي صلى الله عليـه وسلم ؛ إذ كان بعضهم لا يحتشم في مجلسه ومخاطبته ، كما كان بعضهم يتسرع في إبداء الرأي والبدء في العمل قبل أن يبدي رأيه أو يفعل ، في حين كان بعضهم يعرف قدره العظيم وشأنه الرفيع صلى الله عليه وسلم فيلزم الأدب والحشمة ويقف عنـد الحدود الواجبة عليه في حضرته .

وواضح أن هذا متسق مع اختلاف طبائع الناس من جهة ، ومع طبيعة بيئة لم تتعود أن تتقيد بمثل هـذه الآداب مهما يـكن الفارق بين الناس ، وكان الـكبير والرئيس

يخاطبون فيها مخاطبة الند وبدون استعمال ألفاظ توقيرية من جهة ثانية ، ثم ما كان من قدم إيمان بعضهم ورسوخه في أنفسهم وتأثرهم أبلغ التأثر بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وتفانيهم في تعظيمه وتوقيره ، وجدة الإيمان عند بعضهم وانسياق بعضهم في الإسلام بدوافع متنوعة من جهة ثالثة ، فنزلت الآيات تؤدب المسلمين وتعلمهم وتوطد مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وحقه ، وتثني على من كان يوفيه هذا الحق ، لأن ظروف البيئة الإسلامية المدنية اقتضت ذلك .

ولقد جاء بعد الآيات الثلاث آيتان فيهما وصف موقف سلوكي آخر وهذا نصهما :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »... ٤ ـ ٥

إذ احتوت الآية الأولى منهما إشارة تنديدية إلى صورة فيها جفاء بدرت من وفد بدوي على ما روته الروايات جاءوا إلى المدينة ليجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما لم يجدوه في المسجد أخذوا ينادونه من وراء حجراته بأصوات عالية ؛ وهو أمر يتصل بالتعليل الذى ذكرناه آنفاً ، وكانت الحادثة وسيلة إلى التأديب القرآني الذي احتوته الآية الثانية .

الصورة الرابعة

(٤) في سورة النور الآيات التالية :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »... ٦٢ ـ ٦٣

وقد ذكرت روايات النزول أن الآيات نزلت في ظروف حفر الخندق ووقعة الأحزاب . ومهما كان من أمر ففيها منظر آخر مشابه للمنظر الذى احتوته آيات الحجرات السابقة كما هو واضح ؛ إذ كان بعض المسلمين ينسحبون خفية من مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أو من اجتماع دعا إليه لأمر هام دون استئذان ، ولم يكن بعضهم يفرق بين دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوة سائر الناس فيعتذر أو يهمل الإجابة ، في حين كان بعضهم يلتزم الأدب والواجب فيهتم لدعوته ، ويسارع إلى شهود مجالسه ، ويحرص على البقاء فيها ، ولا يتركها إلا لعذر مهم وبعد الاستئذان والإذن .

(٥) فيسورة النور أيضا الآيات التالية :

« وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ... ٤٧ ـ ٥٢

ومع أن الآيات تتحمل أن تكون بسبيل التنديد بموقف بعض المنافقين ، فإنها تتحمل أن تكون بسبيل التنديد ببعض المسلمين من غير المنافقين أيضا ، وفي القرآن تنديدات مماثلة وجهت إلىالمؤمنين دون المنافقين ؛ ولذلك يسوغ أن يقال: إن فيها صورة لمواقف بعض المسلمين الذين كانوا يتهربون من التقاضي لديالنبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا كان الحق لهم خشية أن يقضي ضدهم بالحق . ومع أن الآيتين الأخريين هما بمثابة تقرير لما يجب أن يكون عليه المؤمن المخلص فإن روحهما تُلهم أنهما تنطويان على صورة واقعية لموقف المخلصين من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأحكامه أيضا .

الصورة الخامسة

(٦) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ... ٦٩ — ٧١

وقد روي أن بعض العرب نسبوا إلى النبي عدم العدل في قسمة الغنائم فتأذت نفسه وقال : فمن يعدل إن لم يعدل رسول الله ؟ ثم قال : يرحم الله موسى فقد أوذى بأ كثر من هذا فصبر ! فنزلت الآيات ؛ وقد وردت أحاديث عن الأذى الذي أو ذى به موسى في سياق تفسير الآيات ، منها نسبة بني إسرائيل إليه قتل هارون . ومنها إغراء قارون بغياً لتتهم موسى بالفاحشة ، ومنها أنه كان يتحفظ كثيراً في التجرد حياءً فقالوا : إن في جسده آفة يخشى أن يراها بنو إسرائيل ؛ وقد ذكرت الأحاديث أنه وقع ما برأ الله به موسى من التهم .

وعلى كل حال ففي الآيات تحذير للمسلمين من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم بقول أو عمل أو موقف ، وألّا يكونوا كبني إسرائيل ، وتنبيه إلى أن الله حاميه ومطهره ؛ والمرجح أنه قد وقع حادث فيه قلة أدب وذوق في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تعجيز أو شك آذى نفسه فنزلت الآيات .

ومن هذا القبيل ما انطوت عليه آيات الأحزاب ٥٤ ـ ٥٦ التي نقلناها في مبحث حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية ، إذ احتوت صورة لموقف فيه شيء من التثقيل على النبي صلى الله عليه وسلم ولقول فيه شيء من الأذى لنفسه في زوجاته .

(٧) ولقد أوردنا في المبحث السابق آيتي سورة المجادلة ١٢ ـ ١٣ ؛ وننبه هنا إلى أنهما فوق ما تضمنتا من صورة لمجالس النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة ومراجعات

الناس له في مشاكلهم الذاتية فإنهما تتضمنان كذلك صورة لما كان يظهر من بعض المسلمين من اللجاج والتلكؤ في سياق التشريعات والتكليفات المالية التي يأمر بها أو يبلغها النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه . وقد تكرر هذا منهم في مناسبات توزيع غنائم بدر وفيء بني النضير ، وحكته عنهم سورتا الأنفال والحشر ؛ وسوف نعرض له في فصلي الجهاد والتشريع ، لأن الموقف ثمة أوسع شمولا من الصورة التي احتوتها آيات المجادلة .

الصّورة السّادسة

وفي القرآن آيات عدة فيها إيجاب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم وحث عليها وتوطيد لها واعتبارها ملازمة للإيمان بالله ورسوله وأثراً من آثاره ، ووسيلة إلى الله ، كما أن فيها تنديدات لاذعة بالذين لا يستشعرون هذا الواجب على الوجه الذي ينبغي ، كما تراه في الأمثلة التالية :

١ — قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ... آل عمران ٣١ ـ ٣٢

٢ — وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... آل عمران ١٣٢

٣ — تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ... النساء ١٣ ـ ١٤

٤ — وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ... النساء ٦٩

٥ — مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا . . .

النساء ٨٠ ـ ٨١

٦ — وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا . فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ...

النساء ٦٤ ـ ٦٥

٧ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ...

الأنفال ٢٠ ـ ٢١

٨ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ...

الأنفال ٢٤

٩ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ...

الأنفال ٢٧ ـ ٢٨

١٠ — وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ...

التوبة ٧١

١١ — لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ...

التوبة ١١٧

فهذه الآيات تلهم أن بعض المسلمين كانوا يقفون مواقف التلكؤ في واجب الطاعة والانقياد ، بل الأمانة للنبي ، وتلهم أن هؤلاء ليسوا من المنافقين ، وإن كانت

تلهم أن منهم المنافقين أيضاً . وقد احتوت تنويها بالذين كانوا يطيعون رسول الله وينقادون لأوامره في ظروف الشدة وغيرها ، وبتعبير آخر ، إن الآيات قد تضمنت صوراً متنوعة لمواقف المسلمين على اختلاف درجات إيمانهم وتفانيهم . ويظهر أن المواقف غير المستحبة كانت أكثر فاقتضت الحكمة تكرار الأوامر في مختلف المناسبات لتوطيد ذلك الواجب العظيم . وننبه إلى أن جميع الآيات مدنية ؛ فالتعليل الذي ذكرناه من قبل في صدد وقوع ما لا يستحب من حوادث ومواقف من المسلمين تجاه النبي صلى الله عليه وسلم ، يطرد هنا ويبدو مفهوما واضحاً .

الصورة السابعة

ونريد أن نلفت النظر إلى أمر هام بهذه المناسبة في صدد الأهداف القرآنية والدعوة النبوية وواجب الطاعة . ومع أن من الطبيعي أن تكون طاعة الرسول واجباً دينياً لا حاجة فيه إلى تعليل وإقناع لأنه يصدر في تبليغاته عن الله ، فإن في الآيات التي نقلناها وخاصة آيات آل عمران ١٣٢ والنساء ١٣ ــ ١٤ والأنفال ٢٤ تعليلا لهذه الطاعة ، إنها لخير المسلمين وحياتهم ومصلحتهم . وفي آية في سورة الممتحنة ذكر أنها تطلب منهم الطاعة في المعروف ولا تطلبها منهم مطلقة كما ترى فيها :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١٢

وفي هـذا ما فيه من أسلوب الخطاب الإقناعى والدعوة الحكيمة ، وهو الطابع العام لأسلوب الدعوة والخطاب القرآنى ، الذى تتفتح له نفوس من شرح الله صدورهم ولم يضلهم هواهم ، وتطمئن به قلوبهم . وفيه دليل كذلك على أن حياة النبي صلى الله

عليه وسلم وسيرته ورسالته كانت إلى جانب روحانيتها وعلويتها وصلتها بالله ، متسقة مع الاعتبارات البشرية الطبيعية التي تكون فيها المصلحة بارزة والإقناع وسيلة رئيسية .

الصورة الثامنة

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات التي احتوت صوراً سلوكية غير مستحبة نحو النبي صلى الله عليه وسلم هى مدنية ، وأن الآيات القليلة التي جاءت في السور المكية متضمنة صوراً سلوكية نحوه لم تحتو إلا ما فيه معنى التفاني في اتباعه ونصره وتأييده . وكذلك كانت الآيات التي تحث على واجب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه والاستجابة له بأساليبها المتنوعة والمتكررة ، مدنية أيضاً .

وهذا متصل بطبيعة العهدين ؛ فالعهد المكي كان عهد قلة وضعف ونضال مع أغلبية باغية قوية ، وهذ يقضي على الأقلية بالتضامن والتفاني ، ثم هو عهد آمن المؤمنون فيه عن رغبة واندفاع وبقطع النظر عن كل اعتبار خاص ، ومع عدم المبالاة بما كان من أذى الأغلبية ومناوأتها وقوتها ، بحيث يقال بحق إن جلّ الذين آمنوا فيه كانوا من الأقوياء في نفوسهم وأخلاقهم والذين رأوا في الإسلام ملاذاً ونجاة وطمأنينة قلب وضمير ، وكشف الله عن بصيرتهم فشاهدوا نور النبوة الوهاج وأعلامها الصادقة فامتلأت بذلك قلوبهم ؛ فلم يكن ثمة مجال لمواقف متنوعة إزاء النبي صلى الله عليه وسلم وخاصة المواقف غير المستحبة ، في حين اتسعت دائرة الإسلام كثيرا في العهد المدني ، وانضم إليها طبقات وفئات متنوعة ومتفاوتة في أخلاقها وبواعثها وظروفها من حضر وأعراب ، كما كان من الذين انتسبوا إلى الإسلام منافقون وطامعون وانتهازيون ودساسون ودعاة فتنة ، ثم كان عهد طمأنينة واستقرار نوعاً ما ، وعهد تأسيس دولة كان النبي صلى الله عليه وسلم فيها الرئيس والقائد والقاضي والمشرع وقاسم المال الخ فكان المجال ثمة واسعا لظهور الناس على سجاياهم ، وتفرغهم لأمورهم الخاصة متعة وكسباً ونشاطاً ، وطمعاً ومغامرة الخ وطبيعى أن تكون هذه الظروف المتنوعة وهذا التفاوت باعثاً على صور سلوكية غير مستحبة .

ونستدرك أمراً في صدد صور المسلمين في العهد المكي ؛ فالذي عنيناه هنا ماله صفة سلوكية نحو النبي صلى الله عليه وسلم فقط ، وإلا ففي السور المكية ما يلهم صوراً لبعض المسلمين في العهد المكي فيها بعض مظاهر من الضعف والتزعزع سنعرضها فيما بعد . وهذا الذي جعلنا نستعمل كلمة (جل) بدلاً من (كل) . ونستدرك أمراً آخر وهو أن هذه الصور السلوكية إزاء النبي (صلعم) هي صور مواقف مسلمين مخلصين غير منافقين على الأرجح الذى تلهمه الآيات . وأن هناك صوراً أخرى لمواقف سلوكية إزاءه من المنافقين في العهد المدني سوف يأتي الكلام عنها في فصل المنافقين في الجزء الثاني .

المبحث السابع

الوحى وأولياته

متناول هذا المبحث ــ مفهوم الوحى ومداه من القرآن ــ وحى الله للنبي وأنبيائه صلوات الله عليهم ــ سنن الله في وحيه ــ تنزيل جبريل القرآن على قلب النبي ــ كنه الوحى سر متصل بسر النبوة وواجب الوجود ــ الوحى منفصل عن النبي وليس نابعاً منه ــ تعليق على خبر رؤية الناس لجبريل حينما يتمثل برجل ــ التقريرات القرآنية الحاسمة في صدق شعور النبي بصلته بالوحى ــ مؤيدات قرآنية أخرى ــ بعض الأحاديث المروية ــ مداها ودلالتها ــ مدى النهي عن تدوين غير القرآن عن النبي ــ الأحاديث القدسية ــ عدم فهم الانسان كنه الوحى والنبوة لايمنع صدقهما ــ شهادة العيان الحاسمة في صدق أعلام النبوة والوحى ــ كيفية بدء اتصال الوحى بالنبي ــ وقت بدء الوحى القرآني ــ تحليلات واستدلالات في صدد أوليات القرآن نزولا ــ أثر اتصال الوحى لأول عهده في نفس النبي ــ صورة أخرى بمناسبة فترة الوحى وتعليقات في صددها .

الصورة الأولى

إن الوحى شأن متصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم في الدرجة الأولى ، والدعوة إنما كانت بعد اتصاله الأول به ؛ وهذا ماحدا بنا إلى جعل هذا المبحث من مواضيع هذا الفصل .

وسيتناول الكلام في هذا المبحث خمس نقاط :

(١) مفهوم الوحى ومداه .

(٢) كيفية بدء اتصال الوحى بالنبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) وقت بدء نزول القرآن .

(٤) أوليات القرآن نزولا .

(٥) أثر الوحى لأول عهده في نفس النبي صلى الله عليه وسلم .

الصورة الثانية

مفهوم الوحى ومداه :

(١) يتلخص ماقاله المفسرون واللغويون في معنى كلمة « الوحى » أنه القذف في الروع ، والإلهام ، والإشارة السريعة الخاطفة التي هى أقرب إلى الإسرار منها إلى الإعلان .

(٢) وقد وردت كلمة الوحى ومشتقاتها في القرآن نحو سبعين مرة ، منها مالا يتصل بمعناه وصدوره عن الله ومنها مايتصل .

ومن النوع الأول ماجاء بمعنى الإشارة كما ترى في الآية التالية :

« فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ... مريم ١١

وبمعنى الوسوسة والتآمر الخفى كما ترى فيما يلى :

١ — « وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ...

الأنعام ١٢١

٢ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً ... الأنعام ١١٢

أما النوع الثانى فمنه ماجاء بمعنى الإلهام الغريزي كما ترى فيما يلى :

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ... النحل ٦٨

وبمعنى الإلهام لغير الأنبياء والملائكة ، والقذف بالروع كما ترى فيما يلي .

١ — وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... القصص ٧

٢ — وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي ... المائدة ١١١

وواضح أن هذا وذاك ليس مما يدخل في مدى وحي الله لأنبيائه ، أما مايتصل بذلك فمنه ماجاء مطلقاً لا يفهم منه كنه ولا كيفية كما هو في الآيات التالية :

١ — إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّنَ مِن بَعْدِهِۦ . . .

النساء ١٦٣

٢ — وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ ... الأنعام ١٩

٣ — إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ... يونس ١٥

ومنه ماجاء فيه بعض الدلالات التي يمكن استلهامها شيئاً عن مفهوم الوحي النازل على الأنبياء والنبي محمد صلى الله عليه وسلم ومداه كما في الآيات التالية :

١ — فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ . ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ . وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ . مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ . لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ . وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . . .

التكوير [(١)] ١٥ ـ ٢٩

٢ — وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ . أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ... النجم [(٢)] ١ ـ ١٢

٣ — وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ

---

(١) الخنس : جمع خنساء وهى النجوم التي تأتي ثم تكر راجعة . الكنس : جمع كنساء وهى المحجوبة. والرسول في الآيات يعني الملك .

(٢) ذو مرة : ذو قوة . والراجح أن الأوصاف هى أوصاف الملك ، وأن كلمة عبده تعني النبي .

رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... الشورى ٥١ ـ ٥٢

وهناك آيات عظيمة الدلالة في صدد الوحى وتنزله بالقرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد فيها لفظ الوحي ، وهى هذه :

١ — قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... البقرة ٩٧

٢ — قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . .

النحل ١٠٢

٣ — نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . . .

الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٤

وقد ورد فى سورة النحل آية فيها صراحة بأن الله ينزل الملائكة على من يشاء من عباده (أي أنبيائه) ولم يرد فيها لفظ الوحي أيضاً وهى هذه :

« يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱتَّقُونِ ... ٢

وقريب من هذه آية فاطر التالية :

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ... ١

فجميع هذه الآيات تدل على أن لله سنناً في الاتصال بمن يختارهم من البشر لرسالته وخطابه أولا ، وعلى شيء من كيفية اتصال وحي الله بهم وبالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ثانياً ، وهذه السنن هى :

١ ـ إنزال الملائكة بأمره ووحيه .

٢ ـ اتخاذ الملائكة رسلا بينه وبين الناس .

٣ ـ قذف الله فى روع من يريد أن يكلم من البشر .

٤ ـ إسماع الله من يريد من البشر كلاما دون واسطة ودون رؤية .

٥ ـ إن روح القدس والروح الأمين الذي هو جبريل هو الذي كان ينزل القرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم .

والسنة الثالثة مستلهمة من آيات الشورى التي احتوت بيان ثلاث طرق وهى : الوحى ، والكلام من وراء حجاب ، والكلام بواسطة رسول ؛ فذكر الوحي مع ذكر الرسول الذي هو الملك يسوغ تفسير الوحي بمعنى القذف في الروع . والسنة الرابعة كذلك مستلهمة من هذه الآيات . أما تفسير جبريل بالروح القدس الأمين فإنه مستلهم من تشارك تعبير « التنزيل على القلب » في آيات البقرة والنحل والشعراء مع ذكر جبريل بصراحة في آية البقرة ، وهذا مجمع عليه تقريباً عند المفسرين .

الصورة الثالثة

وليس في القرآن شيء يمكن أن يفيد بصراحة ماهية الملائكة وكنههم أو يفيد أن غير من اختصه الله يمكن أن يراهم ، أو يفيد كيفية إدراك النبي صلى الله عليه وسلم نزول جبريل على قلبه أو كيفية رؤيته إياه بالأفق أو قريبا منه قاب قوسين أو أدنى ، وسماعه صوته ، أو كيفية إدراك النبي وحى الله حيما يكون بطريق الإلهام والقذف التي هى إحدى الطرق التي ذكرتها آيات الشورى .

فهذه الأمور مما كانت وظلت في حقيقة كنهها سرا على غير النبي صلى الله عليه وسلم لأنها متصلة بسر النبوة المتصل بسر الوجود وواجب الوجود : وهى من المسائل الإيمانية التي يجب على المسلم الإيمان بها لأنها وردت نصا في القرآن . وفي الأحاديث والروايات الكثيرة أن جبريل كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ويكلمه ويلقي إليه بل

يتحدثان معا والنبي جالس بين الناس فلا يرى أحد شيئا أو يسمع صوتا ، ويبقى الأمر بين النبي وجبريل صلى الله عليهما وسلم حادثا روحيا لا يدرك كنهه أحد [١] .

وننبه إلى النصوص القرآنية صريحة الدلالة على أن الوحى الرباني الذي كان يتصل بالنبي كان شيئا طارئا عليه وليس كما يقول بعض الباحثين أنه نابع من ذاته وباطنه ، لأن شخصية الملك جبريل ـ مهما تكن غير مدركة الكنه ـ هى شخصية غير شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كما هو واضح .

الصورة الرابعة

وفي القرآن آيات فيها ردود على الكفار والممارين في صلة وحى الله بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهى ردود قوية حاسمة الدلالة على صدق شعور النبي بصلته به ؛ منها آيات التكوير والنجم التي نقلناها ؛ وآيات التكوير تلهم أن الكفار قالوا حينما أخبر النبي بأنه رأى ملك الله : إنما رآه شيطان ؛ وفقاً لعقائدهم كما فصلناه في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة ؛ كما قالوا إنه مجنون ، أى مخالط في عقله ، فاحتوت الآيات التوكيد القوي النافذ ، بهذا ماجاء في سورة الشعراء ردا على زعمهم أن الذي يتصل بالنبي أو الذي يوحي إليه القرآن شيطان ، كما ترى فيما يلى :

« وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . . .

٢١٠ ـ ٢١١

وتتبع الآيات بعد قليل آيات تزيد الرد قوة وإفحاما كما ترى فيما يلي :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ... ٢٢١ ـ ٢٢٣

---

(١) أو ردنا قبل بعض الأحاديث التي فيها بعض كيفيات نزول الوحى على النبي (صلعم) . ومن ذلك أيضا ماروواه البخاري ومسلم والترمذي عن عائشة قالت قال رسول الله (صلعم) ياعائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقلت وعليه السلام ترى يارسول الله مالا أرى) ومن ذلك مارواه مسلم عن النبي أنه قال (وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول) انظر التاج ج ٣ ص ٣٣٦ و ٢٢٥ .

وآيات النجم احتوت فوق توكيد رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك ووصف ذلك وصفا تتجلى فيه المشاهدة الواقعية التي لا تتحمل مكابرة ـ ردا مفحما آخر ؛ فرؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك هي خصوصية خاصة به لا يمكن أن يكون للماراة محل فيها ، لأن المماراة إنما تصح في مشاهد مشتركة بين الناس .

وفي القرآن تنديد شديد بمن يقول إنه يوحى إليه ولم يوح إليه كما ترى .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ... الأنعام ٩٣

وهي قوية الدلالة من ناحية ما على صدق شعور النبي صلى الله عليه وسلم وما يستشعره من رهبة إزاء إخباره بصلته بوحي الله ، ومثل هذا في القوة والنفوذ إلى الأعماق الآيات التالية :

١ — قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ... الأنعام ٥٠

٢ — وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . . . الأعراف ٢٠٣

٣ — قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ ... الأنعام ١٩

٤ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... يونس ١٥

٥ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ... ٢٤

٦ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ... الأحقاف

وفي سورتي طه والقيامة ، تأييدات لما نحن في صدد تقريره .

ففي السورة الأولى هذه الآية :

« فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ... ١١٤

وفي الثانية هذه الآيات :

« لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ . فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ... القيامة ١٦ — ١٩

فهذه الآيات احتوت تنبيها للنبي في صورة النهي عن الاستعجال في تلاوة مايوحى إليه به أو تحريك لسانه به قبل أن يتم الوحي إلقاء ما يوحى به إليه ، وفيها صورة قوية الدلالة لشعوره بالوحي الطارىء عليه الملقي إليه بالقرآن ، إذ كان يردد مايلقى عليه حال إلقائه وقبل انتهائه خشية أن يفلت منه شيء أو ينساه .

وفي سورة مريم هذه الآية .

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ... ٦٤

وقد ذكر المفسرون ورواة التنزيل أن الآية جواب ملك الله للنبي على سؤاله إياه أن يكثر من زيارته ؛ فإذا صحت الرواية ففيها تأييد من ناحية لما نقرره أيضا .

الصُّورة الخامسة

هذا ؛ ومن قبيل الاستئناس نورد فيما يلي بعض الأحاديث الواردة في صلة النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي ومظاهرها وكيفياتها :

١ ـ حديث بخاري عن عائشة رضى الله عنها :

« أول مابدأ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة في النوم : فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ـ قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود إلى ذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ماأنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأفقلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة ثم قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا والله مايخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع ابن أخيك . فقال له ورقة : يابن أخي ماذا ترى ؛ فأخبره رسول الله خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى : ياليتني فيها جذع ؟ ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ! فقال رسول الله صلى الله عليهوسلم « أو مخرجي هم » ؟ قال نعم ؛ لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ... »

٢ ـ حديث رواه الطبري عن عبد الله بن الزبير :

« قال رسول الله فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ فغتني حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال اقرأ . فقلت ماذا اقرأ ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إليّ بمثل ماصنع بي . قال اقرأ باسم ربك الذي خلق ...إلى قوله علم الإنسان مالم يعلم . قال فقرأته ثم انتهى ثم انصرف عني . وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتابا . قال : ولم يكن من خلق الله أبغض على من شاعر أو مجنون كنت لا أطيق أن أنظر إليهما . قال قلت إن الأبعد يعني نفسه لشاعر أو مجنون . لا تحدث بها عني قريش أبدا . لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلأطرحنّ نفسي منه فلأقتلها فلأستريحنّ . قال فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فرفعت رأسي إلى السماء فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فوقفت أنظر إليه وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه فى آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ؛ ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي .. »

٣ ـ حديث بخاري عن عائشة رضى الله عنها :

« إن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ماقال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمني فأعي مايقول . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا ... »

٤ ـ حديث بخاري عن عائشة رضى الله عنها .

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعائشة هذا جبريل يقرئك السلام : قلت وعليه السلام ورحمة الله . قالت : وهو يرى مالا نرى » .

(٥) حديث في مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه : وحديث بخارى عن صفوان بن يعلي رضى الله عنه ، وقد نقلناهما في مبحث أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

وواضح أن هذه الأحاديث متسقة إجمالا مع ما استلهمناه من الآيات من حيث رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك ونزول الوحى عليه بين الناس دون أن يراه أو يحس به أحد . وفيها شيء غير وارد في القرآن في صدد وحي الله للنبي ، وهو تمثل الملك للنبي رجلا دون أن يراه أحد ، ثم وصف الجهد الذي كان يثقل على النبي ويكاد يقبض نفسه، ومجيء الوحى أحيانا مثل صلصلة الجرس ، وهذا المشهد الأخير قد جاء مجرداً عن ذكر مرافقة الملك .

الصّورة السّادسة

ولقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تدوين شيء غير القرآن عنه[1] ، كما تواترت الأخبار بأنه كان يأمر أحد كتابه بتدوين ما كان ينزل عليه من الوحي فوراً ؛ فهذا وذاك متصلان بشعوره الخاص بالفرق بين ما كان ينزل على قلبه من وحي القرآن وبين كلامه العادي ، وبحرصه على عدم الخلط بين كلامه العادي وبين ماينزل عليه وحياً قرآنياً ؛ ولعل مما يتصل بهذا ويزيده وضوحاً مايروى من الأحاديث القدسية المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله ، فليس يمكن لأحد أن يفهم منطقيا الفرق بينهما وبين مايوحى قرآناً ومحتوياتها مما يتصل بمحتويات القرآن وعظاً وإنذاراً وتبشيراً أو أخباراً أو قصة الخ ومع ذلك فقد فرّق بينهما فلم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتدوينها . ومما لا ريب فيه أن هذا التفريق يتصل بالصفة القرآنية التي كان يدركها

---

(١) روى مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لاتكتبوا عني غير القرآن ومن كتب شيئا فليمحه) كتاب السنة للسباعي ص ٧٢ .

النبي صلى الله عليه وسلم فيما يوحى إليه قرآناً(١) .

ومهما يكن من أمر فإننا من الذين يرون أن عقل الإنسان الذى يقف مشدوها ذاهلا أمام مافي نفسه من قوى واستعداد وأمام مافي الكون من عظمة ونظام وقوى وسعة وعوالم ودقائق يعجز عن إدراكها والإحاطة بها ، حقيق بأن يكون أشدّ عجزاً عن إدراك ماوراء ذلك والإحاطة به ؛ ولسنا من الذين يرون ضرورة للمحاولة أو بالأحرى للتمحل في التوفيق بين المسائل الإيمانية والنواميس الكونية ، أو لزوما لتأويل ماورد في القرآن حتى لا يكون متعارضا مع هذه النواميس . فالمؤمن بعد أن يؤمن بإله أزليّ أبديّ شامل القدرة وخالق للأكوان وموجد لها من العدم ، يدبرها ويسيرها على حسب مااقتضت حكمته ـ وأمره بين الكاف والنون ـ لا يرى ولا ينبغي له أن يرى في الإيمان بالمسائل الإيمانية كالنبوة وصلة الأنبياء بالله صعوبة أو حاجة إلى تأويل وتوفيق إذا اقترنت بالنصوص القرآنية القطعية أو الأحاديث النبوية الصحيحة .

وإذا كان المسلم لا يصح إسلامه إلا بالإيمان بهذه الصلة على المدى الذي تساعد على بيانه وشموله النصوص ، فإن أى شخص متصف بحسن النية مهما كانت نحلته إذا

(١) هناك أحاديث عديدة توصف بهذا الوصف مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم . ومنها ما ورد في مسانيد الأحاديث الصحيحة . وعبارتها مماثلة لأحاديث النبي أى عبارة كلام خطاب عادي دون أسلوب القرآن من حيث التقطيع والتركيز والتوازن في أواخر المقاطع والآيات . وهذا نموذج منها من حديث رواه أنس ابن مالك عن النبي عن جبريل جاء فيه (يقول الله عز وجل من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة . وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرد . وما تقرب إلى عبدي المؤمن بمثل أداءماافترضت عليه . ومايزال عبدي المؤمن يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً . إن دعاني أجبته . وإن سألني أعطيته . وماترددت في شيء أنا فاعله ترددي فى قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته . ولابد له منه . وإن من عبادي لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه أن لايدخله عجب فيفسده ذلك . وإن من عبادي المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلا بالغني ولو أفقرته لأفسده ذلك . وإن من عبادى المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك . وإن من عبادي المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلاالصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك . وإن من عبادي لمن لايصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك . إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير) وقد روى هذا الحديث الإمام البغوي في تفسيره في سياق تفسير سورة الشورى . وهو من حفاظ الحديث وهو راويه سماعاً من راو عن راو إلى أنس بن مالك رضى الله عنه .

أنعم النظر في الآيات لا يسعه إلا التصديق بصدق الشعور النبويّ بها ، وكون النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يصدر عن أمر راهن طارئ عليه وإن ظل سرا ربانياً لا يمكن المماراة فيه .

على أن في شهود النبي صلى الله عليه وسلم عيانا حقيقة حاسمة فيما نعتقد أيضا ، وتزداد هذه الحقيقة قوة أنها مما سجله القرآن بصراحة وقطعية في آياته المكية والمدنية على السواء ، وهو الوثيقة المدوّنة الصادقة التي وصلت إلينا سليمة كل السلامة من العهد النبوي مروية عن لسان النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغه مباشرة ، ولا مثيل له في المدوّنات الكتابية المقدّسة السابقة . فقد شهد حادث النبي آلاف من الناس منهم العرب ومنهم غير العرب ومنهم المشركون ومنهم الكتابيون ومنهم المستقرون في مكة والمدينة ومنهم الوافدون خصيصا للاستعلام والاطلاع على النبأ العظيم الذى بلغهم وسمعوا توكيدات النبي بلسان القرآن بنزول ملك الله عليه بالوحي وشعوره به منفصلا عن ذاتيته ، ولقد آمن بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم في بدء الأمر مئات منهم في مكة ممن طابت نفوسهم وحسنت نياتهم وأنار الحق قلوبهم ، بين المعارضة الشديدة التي تولى كبرها زعماء أقوياء أعداء لأسباب عدة ذكرها القرآن ، وستكون من مواضع الفصل التالي .

وكان بين المؤمنين تلك الطبقة النيرة القوية في عقولها وشخصياتها وأروماتها ، والتي لمع أفرادها لمعانا باهراً فيه الدلالة على ذلك ، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وسعيد وطلحة والزبير وخالد وعمرو وأبي عبيدة وعبد الرحمن وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم ، ثم كان بينهم كثير من أهل الكتاب المستقرّين والوافدين ممن حسنت نياتهم وطابت طوياتهم ، وتجردو من الهوى والغرض ، وأنفوا من المكابرة والعناد على ما وصفت مشاهد آيات الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٩ والقصص ٥٢ ـ ٥٣ والرعد ٣٦ ـ ٤٣ والأحقاف ١٠ التي نقلناها سابقا ، ثم آمن بالنبوّة الرعيل الأول من أهل المدينة وكان من شأنهم ما كان من نصر وتفان في تأييد دين الله ونبيه ، وآمن فريق من علماء اليهود

بين معارضة شديدة قادها بعض زعماء العرب وزعماء اليهود لأسباب عدة ذكرها القرآن ـ وسوف تكون موضوع فصول من هذا الكتاب ـ وآمن عديد من علماء النصارى وقسيسيهم ورهبانهم ، وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة مستطلعين مستعلمين أيضاً على ما وصفت مشاهده وأخباره آيات النساء ١٦٢ وآل عمران ١٩٩ والمائدة ٨٢ ـ ٨٤ التي نقلناها سابقا أيضا .

فالرعيل الأول من المؤمنين العرب في مكة والمدينة الذين آمنوا رغبة وطوعا وفي ظروف ضعف النبي المادي الشديد ، واستهانوا بكل شيء في سبيل إيمانهم ، والكتابيون في مكة الذين آمنوا رغبة وطوعا مع أنهم أكثر تعرضا للأذى ، والكتابيون الوافدون الغرباء الذين فعلوا مثل ذلك وهم في مثل تلك الحال ، وعلماء اليهود في المدينة الذين آمنوا رغبة وطوعا ، واستهانوا بكل شيء من قومهم ، وعلماء النصارى وقسيسوهم ورهبانهم الذين جاءوا مستطلعين فآمنوا كذلك ـ ما كانوا ليؤمنوا لو لم يشهدوا من أعلام النبوة وصدق الدعوة النبوية واللهجة النبوية ، وصحة دلائل وأمارات صلة النبي بالله ووحيه مالا يسع أحداً طيب النفس واسع الأفق متجردا عن الغرض والهوى أن يماري فيه . ولعل آية سورة الشورى هذه :

« وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ... ١٦

وقد عنت فيما عنته وهى تندد بالمكابرين في الله ورسالة نبيه هذه الحقيقة الحاسمة والحجة الدامغة .

ومن مظاهر قوة هذه الحقيقة الحاسمة والحجة الدامغة أن المستجيبين إلى دعوة الله في مكة حينما نزلت هذه الآية كانوا يمثلون البشرية على اختلاف أجناسها وألوانها وأقطارها وأديانها . حيث كان منهم الوثنيون والمشركون والصابئون والنصارى واليهود والمجوس وعبدة الكواكب . وكان منهم الاشراف والصعاليك . والأغنياء والفقراء . والزعماء

والضعفاء . والأحرار والعبيد . والنساء والرجال والشيوخ والكهول والشباب الفتيان وكان منهم الأسيوي والأفريقي والأوروبي . والعربي والشامي والمصري والفارسي والعراقي والحبشي والرومي . والأبيض والأسود .

الصُّورَة السَّابِعَة

كيفية بدء اتصال الوحي بالنبي صلى الله عليه وسلم .

ليس في القرآن إشارة إلى كيفية بدء اتصال الوحي بالنبي . غير أن آيات التكوير ١٥ ـ ٢٦ وآيات النجم ١ ـ ١٣ التي نقلناها سابقا احتوت توكيداً بأن النبي قد رأى الملك ذا القوة في الأفق . والحديث الذي نقلناه عن الطبري والمروي عن عبد الله بن الزبير قد احتوى وصف رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك في السماء ، أي في الأفق ، وعلى صورة أذهلت النبي عن كل شيء . والذي نرجحه أن آيات السورتين المذكورة هي بسبيل وصف أولية بدء اتصال الوحي بالنبي وأولية رؤية النبي لملك الله ؛ يلهم هذا صيغة الآيات والتوكيد القوي الذي احتوته والذي يدل على أنه بسبيل الرد على من كابر وكذب أو شك وارتاب فيما أخبر به النبي ووصفه من اتصال وحي الله به ورؤيته لملك الله ؛ كما يلهمه كون السورتين مبكرتين في النزول ، لاسيما سورة التكوير التي تأتي سادسة في أربع روايات مأثورة لترتيب النزول ، وسابعة في ثلاث[1] وأسلوبها ومضامينها مما يؤكد تبكيرها في النزول أيضا .

وهذا الاتساق الإجمالى بين وصف الآيات ووصف الحديث يجعلنا نرى فى الحديث وصفا صادقا لكيفية بدء الاتصال ، وقد احتوى وصفا وافيا لذلك كما يظهر من نصه

---

(١) هذه التراتيب هى ترتيب المصحف المعروف « بمصحف الملك فؤاد » والمأخوذ عن المصادر المعتبرة القديمة بواسطة لجنة علماء خاصة ، وترتيب رواه الخازن ، وترتيب مروي في تفسير مجمع البيان ، وتراتيب واردة في الإتقان للسيوطي واحد منها منسوب للحسين وعكرمة وثان لجابر بن زيد وثالث لابن عباس ورابع مغفل النسبة وقد وضعنا ثبتا للسور المكية في مطلع قسم السيرة النبوية في العهد المكي وللسور المدنية في مطلع قسم السيرة في العهد المدني .

السابق ، وفي الحديث البخاري الأول عن عائشة رضى الله عنها ما يتمم هذا الوصف من حيث ظروف الحادث ، ومحله الأول ، وما سبقه من اعتكافات ورياضات روحية وتعبدية ؛ وليس فيه ما يتناقض مع الآيات أو حديث ابن الزبير .

الصّورة الثامنة

وقت بدء الوحي

في القرآن بضع آيات يمكن أن تساعد على تعيين وقت نزول أول وحي بالقرآن وهي :

١ — شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ... البقرة ١٨٥

٢ — حمٓ . وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ . إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ... الدخان ١ ــ ٦

٣ — إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ . لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ . سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ... القدر

وآية البقرة صريحة بأن القرآن قد أنزل في شهر رمضان . ولما كان إنزاله لم ينحصر في هذا الشهر ، فالتعبير ينصرف على ما هو المتبادر إلى أولية نزوله . وقد قال هذا كثير من العلماء والمفسرين كما أنه مؤيد ببعض الروايات الموثوق بها . ولقد قيل في صدد الآية إن القرآن إنما نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا في شهر رمضان ثم أخذ جبريل ينزل به منجما على النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا القول لا يبعث الطمأنينة إلى النفس وغير مؤيد بمأثور وثيق ، ولا تفهم له حكمة ، وغير متسق مع طبائع الأشياء ؛ ويتبادر لنا أنه متصل بما كان من جدل حول خلق القرآن وأزليته .

وفي آيات الدخان والقدر صراحة على أن الله قد أنزل القرآن في ليلة القدر وفي ليلة مباركة . وفي سورة القدر لم يذكر القرآن صراحة ولكن المفسرين والرواة مجمعون على أن الضمير عائد إليه ، وأمّا آيات سورة الدخان فالآية الثانية ذكرت « الكتاب المبين » والضمير في « أنزلناه » يعود إليه . وطبيعي أن القرآن كان ينزل في وقت بعد وقت ، فالتنويه ينصرف على ما هو المتبادر إلى أولية النزول أيضا . ولقد قيل فيصددهذه الآيات ما قيل في صدد آية البقرة من أن المقصود جميع القرآن وأن الإنزال هو الإنزال إلى سماء الدنيا مما علقنا عليه آنفاً . كذلك قيل في صدد الليلة المباركة في آيات الدخان إنها ليلة النصف من شعبان وإنها ليلة تقدير الأعمار والأرزاق السنوية . وهذا القول غير موثق بمأثور صحيح وغير مفهوم الحكمة ولا متسق مع طبائع الأمور . وسبق ورود لفظ « الكتاب » قرينة حاسمة على أن المقصود هو نزول القرآن كما أن روح الآيات جملة تلهم ذلك . ومن العجيب أن يقول قائلون ذلك القول إزاء هذه القرينة الحاسمة .

أما ليلة القدر فهناك أحاديث مروية بشأنها ورد في بعضها أنها في العشر الأخير من رمضان ، وفي بعضها أنها ليلة السابع والعشرين منه . والمتعارف المتواتر هو أنها ليلة السابع والعشرين

وهكذا يصح أن يقال استلهاماً من القرآن إن وقت بدء نزول الوحى بالقرآن هو إحدى ليالي شهر رمضان ، واستئناساً بالأحاديث إن هذه الليلة هى ليلة السابع والعشرين منه . أما السنة فليس هناك ما يمكن الاستدلال عليها من القرآن . غير أن المروي المتواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سن الأربعين من عمره ؛ ويوافق هذا سنة ٥٧٠ بعد الميلاد المسيحى ، والسنة الثالثة عشرة قبل الهجرة النبوية على ماحسبه الحاسبون .

على أن في سورة الأحقاف آية يمكن أن يستأنس بها إلى حدّ ما على أن سن النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحى عليه كانت أربعين وإن لم يكن ذلك حاسماً وهى :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ... ١٥

إذ جعلت هذه السن حدا لبلوغ الرجل أشده ونضج عقله وكمال إدراكه .

الصورة التاسعة

أوليات القرآن نزولا :

ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على أوليات القرآن نزولا ؛ وكل ماهناك روايات لأسباب وظروف نزول آيات قرآنية تعد في تاريخ القرآن من الأوليات . ومع أن أوثق الروايات وأكثرها اعتباراً وأخذاً تذكر أن أول مانزل من القرآن هو الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، فإن هناك روايات يذكر بعضها أن هذا الأول هو « الفاتحة » وبعضها يذكر أنه « الضحى » وبعضها يذكر أنه الآيات الأولى من سورة المدثر ، وبعضها يذكر أنه الآيات الأولى من سورة المزمّل .

ولعل من مرجحات أولية آيات العلق فوق وثاقة واعتبار رواياتها ، أنها لا تحتوي أمرا بدعوة ، وأنها من قبيل الإعداد للنبي صلى الله عليه وسلم وتنبيهه وتلقينه . وتراتيب السور القرآنية المأثورة جميعها تضع سورة العلق أول السور دون أي شذوذ فيما اطلعنا عليه ؛ وهذا بسبب أولية آياتها الخمس الأولى على الأرجح ؛ لأن مضمون الآيات التالية يدل على أنها تأخرت عنها وقتا ما ، إذ احتوت صورة لموقف أحد الطغاة من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يعقل هذا إلا بعد أن تلقى النبي الأمر بالدعوة وسار في تنفيذ الأمر شوطا ما .

الصورة العاشرة

وتراتيب النزول تضع سورة القلم ثانية السور والمزمل ثالثتها والمدثر رابعتها بدون

خلاف ؛ ثم يبدأ الخلاف ، فهناك ترتيب يجعل الفاتحة خامسة ، وترتيب آخر يجعل الخامسة هي المسد ؛ وهناك مايضع التكوير سادسة على حين يضعها ترتيب آخر سابعة . .

وفي اعتقادنا أن الترتيب المأثور للقلم لايصح إلا إذا روعيت آياتها الأربع الأولى فقط ، وهي هذه :

« نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... » ١ ــ ٤

إذ كانت الآيات التالية لها قد نزلت متأخرة مثل بقية آيات سورة العلق ؛ لأن فيها حكاية موقف صد وتكذيب ، وحملة شديدة على بعض الزعماء ، ونهياً للنبي عن مطاوعتهم ومداهنتهم ؛ وهذا لابد أن يكون بعد أن سار النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة شوطا ما أيضا ؛ كما أن فيها هذه الآية : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ــ ١٥ » إذ تدل على أنه قد نزل جملة مامن القرآن ، كان النبي يتلوها على الناس حتى قال المكذبون هذا القول .

وإذا صح نزول الآيات الأربع من سورة القلم لحدتها كان مايهدف إليه بث الطمأنينة في نفس النبي ونفي الخاطر الذي خطر لباله من مسه بالجنون على ماذكره حديث الطبري ، وثناء على أخلاقه العظيمة بسبيل ذلك . وليس على هذا التوجيه مأخذ إلا من حيث أن نظم آيات السورة متسق آخذ بعضه برقاب بعض ، إذ تبدأ الآية الخامسة بفاء تلهم أنها تعقيب على ماسبق ؛ وأن نفي الجنون عن النبي كان رداً على مانسبه إليه الذين عنتهم الآيات :

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ... ٥ ــ ٧

ومثل هذا لا يرد على آيات العلق الأولى وما بعدها على مايظهر حين إنعام النظر

فيها ، على أنه ليس ثمة مايمنع مع ذلك أن تكون الآيات التالية للآيات الأربع الأولى من سورة القلم قد نزلت متأخرة عنها وجاء أسلوب نظمها متسقاً معها .

الصورة الحادية عشرة

والآيات التالية للآيات التسع الأولى من سورة المزمل تحتوى هى أيضا تثبيتا للنبي أمام تكذيب المكذبين وإنذاراً لهم ؛ وهذا لابد أن يكون بعد أن سار النبي شوطا ما في الدعوة ، ويحمل على القول بأن الآيات التسع الأولى قد نزلت لحدتها وأن مابعدها نزل متأخرا عنها أيضا . غير أن هناك مأخذين على احتمال كون الآيات التسع الأولى هى ثالثة مجموعة قرآنية ؛ الأول مضمونها ؛ وهو :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ . قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً . نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً . إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً . وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً . رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ... »

ففي الآيات أمر للنبي بترتيل القرآن . ولا ندري كيف يكون هذا ولم يكن قد نزل من القرآن إلا خمس آيات من سورة العلق وأربع من سورة القلم إن صحت الروايات ! ولقد يرد بأن الأمر بالنسبة للمستقبل ، وأن في الآية الخامسة قرينة على ذلك ؛ ومهما يكن من أمر فإن الآيات في ذاتها لا تحتوي أمرا بالدعوة وإنما تحتوي إعدادا للنبي وبثا للطمأنينة في نفسه ، وتنبيها على مافي العبادة الليلية من فوائد روحية عظيمة تصفي نفسه وتقويها على حمل المهمة العظمى التي ستلقى إليه ؛ وقد احتوى مطلعها خطابا محببا حكى أسبابه حديث البخاري حيث ذكر أن النبي لما عاد من حراء إلى بيته يرجف قلبه قال لأهله : زملوني زملوني ؛ وهذا كله يمكن أن يكون جوابا على المأخذ الأول ، ويجعل في رواية نزول الآيات لحدتها وكونها من الأوليات الأولى وجاهة ما ، أما المأخذ الثاني فهو

اتساق نظم الآيات التسع وما يليها اتساقا قويا ، والفاء التي تبدأ بها الآية العاشرة ، على أنه يصح أن يقال هنا ماقلناه في آية سورة القلم أيضا .

الصورة الثانية عشرة

والآيات التالية للآيات السبع الأولى في سورة المدثر هي كذلك مثل الآيات التالية في السور الثلاث السابقة تحتوي حملة على زعم جاحد ، ووصفاً لموقف له من القرآن إذ قال : « إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر ٢٤ ـ ٢٥ » وهو قول لا يمكن أن يكون إلا بعد نزول طائفة من القرآن وقطع النبي شوطاً ما في الدعوة ؛ وعلى هذا فترتيبها إنما يصح إذا فرض أن الآيات الأولى منها قد نزلت لحدتها أيضا وهي هذه :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ... ١ ـ ٧

وليس مايمنع هذا الفرض ، بل إن صحته لأقوى من صحة فرض ذلك في سورتي القلم والمزمّل بسبب فرق النظم بين هذه الآيات وما بعدها كما هو شأن آيات العلق الأولى وما بعدها ؛ ولعل مما يحمل على ترجيح صحة أولية هذه الآيات أنها احتوت فوق مطلعها التحببي الذي يبث الطمأنينة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، أمراً بالنشاط إلى إنذار الناس ودعوتهم إلى الله . وإذا صح نزول الآيات الأولى للسور الثلاث السابقة ـ العلق والقلم والمزمّل ـ لحدتها ، يكون الاتساق قد تم ؛ إذ احتوت مطالع السور تثبيتا وتطمينا وتنبيها وإعدادا حتى إذا ماسكن روع النبي صلى الله عليه وسلم وهدأ اضطرابه من حادث الوحي الأول ورؤية ملك الله ، نزل عليه مطلع السورة الرابعة ـ المدثر ـ بالقيام بالدعوة والإنذار ؛ وقد احتوى المطلع فوق هذا ـ على مايتبادر لنا ـ خطة للنبي في سيره في الدعوة ؛ فالله أكبر من كل شيء فعليه أن يذكر ذلك بقلبه ولسانه ، والصبر والثبات ومكارم الأخلاق كافلة للنجاح في المهمة العظمى التي ندب لها ، فعليه أن يصبر على ماحمله

ربه من واجب ، وعليه أن يهتم للطهارة والنظافة وأن يهجر فاحش القول والمواقف وأن يكون متواضعا غير منان .

الصورة الثالثة عشرة

وقد اختلفت الروايات في الخامسة من السور بين الفاتحة والمسد ؛ كما قلنا ، والذي نرجحه أنها الفاتحة لأن المسد احتوت حملة على موقف أبي لهب وامرأته ، ولابد أن يكون هذا بعد شوط مامن الدعوة ، في حين أن الفاتحة احتوت تمجيداً لله وطلب هدايته وتعليما بأن تكون العبادة له وحده ؛ وبالتالي أسساً من أسس الدعوة العامة ؛ ولعل من الأدلة على أوليتها بل من دلائل سبقها في الأولية لغيرها أنها صارت مفتتح كل صلاة ، وكل ركعة من كل صلاة بالسنة النبوية اليقينية ، وأنها سميت أم الكتاب وفاتحة الكتاب [1] .

وإننا لنرجح إن لم نقل نجزم أن الفاتحة وسوراً مماثلة لها احتوت شرح مبادئ الدعوة إنذاراً وتبشيراً وخلت من العنف ومن الإشارات إلى مواقف لجاج الكفار وجحودهم وتكذيبهم ومن الحملة عليهم مثل سور الأعلى والشمس والليل والعصر والإخلاص والعاديات والتين والتكاثر والقارعة الخ هى التي نزلت قبل المسد وقبل التكوير التي ذكرت التراتيب أنها السادسة أو السابعة والتي احتوت هى أيضاً مشهداً حجاجيا ، وقبل الآيات التالية لمطالع السور الأربع الأولى ـ العلق والقلم والمزمل والمدثر ـ إذا صح القول بأن هذه المطالع نزلت منفصلة ومبكرة عن بواقيها ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ يدعو الناس وينذرهم ويبشرهم ويخبرهم بأخبار وحى الله ويتلو عليهم الآيات القرآنية الموحاة إليه ، قوبل بالصد والتكذيب والشك والارتياب والاستنكار

---

(١) هناك حديث أخرجه البيهقي والواحدي ووصف رجاله بالثقات عن شرحبيل عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فيه أن الفاتحة أول ما نزل من القرآن . وهناك رواية عن مجاهد وابن عباس أن الفاتحة هى أول ما نزل من القرآن. ولما كان حديث كون الآيات الأولى من سورة العلق هى أولى القرآن نزولا أوثق وأقوى سنداً فيمكن أن يقال إن الفاتحة هى أولى السور التامة نزولا . وبذلك يتم التوفيق بين الأحاديث والله أعلم .

والتهجم والتجهم من الزعماء فأخذت آيات السور الأربع الأولى التالية لمطالعها ، وسور المسد والتكوير والهمزة وغيرها تتابع في النزول تحتوي الردود والتنديد والحملات القاصمة وتحتوي التوكيد والتثبت والمواعظ والأمثال والقصص الخ .

وأنت إذ تقرأ آيات سورة الأعلى :

« سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى . ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ . وَٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ . فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ . سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ . إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ . وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ . فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ . سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ . وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى . ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ . قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ . بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ » .

وآيات سورة الشمس :

« وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا . وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا . وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا . وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا . وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا . وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا . كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ . إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا . وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا » .

وآيات سورة العصر :

« وَٱلْعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ » .

إلى أمثالها مما ذكرناه ترى فيما نقرره وجاهة لا تتحمل التوقف والارتياب . على

أن من المفيد أن نذكر أن عدداً من هذه السور ومايدخل في مداها هو مما روت الروايات نزوله مبكرا جدا ووضع في ترتيب النزول في الدرجات الأولى ، مثل الأعلى التي وضعت ثامنة والليل تاسعة والفجر عاشرة والعصر ثالثة عشرة والعاديات رابعة عشرة . . . فهذا الترتيب المروي مما يدعم ما نقرره .

الصورة الرابعة عشرة

أثر اتصال الوحي لأول عهده بالنبي صلى الله عليه وسلم .

واضح مما ذكرناه في سياق البحث السابق أن مطالع سور القلم والمزمل والمدثر تلهم صحة الوصف الذى احتواه حديثا البخاري والطبري لأثر اتصال الوحى بالنبي لأول مرة في نفسه ؛ إذ يخاطب بالمزمل والمدثر ، وإذ ينفي خاطر الجنون الذي خطر لباله ، وتبث فيه الطمأنينة ويثني على خلقه ، ويطلب منه الصبر والاتكال على الله والاستعداد لتلقي أوامره وقرآنه ، والثبات في المهمة التي ندب لها ، والتمسك بالأخلاق الكريمة قولا وفعلا ومظهرا .

وتكرار هذا في ثلاث مجموعات صارت مطالع ثلاث سور ، يلهم أن هذا الاضطراب النفساني قد استمر وقتا ما كما هو المتبادر .

على أن أثر الوحى في نفس النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر على ما كان من إحداث ذلك الاضطراب النفساني فيه ، فإن سورة الضحى تحتوي صورة عكسية أخرى وإليك آيات السورة المتصلة بذلك أولا .

« وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَئَاوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ... ١ – ٨

ولقد وردت روايات في نزول هذه السورة تفيد في جملتها أن الوحى قد فتر عن

رسول الله في مبادئه ، وبعد أن سار شوطاً في مهمة الإنذار والتبشير والدعوة وصار له أعداء ومكذبون ومتربصون . لحزّ هذا الفتور في نفسه وآلمه ، لا سيما أن السيدة خديجة كما جاء في إحدى الروايات قد أظهرت خوفها من أن يكون وحى الله قد انقطع عنه وأن ربه قد قلاه وتركه ، وقد أخذت أم جميل أخت أبي سفيان وامرأة أبي لهب في رواية تعيره وتبدي شماتتها حينما علمت بفتور الوحي عنه .

ومهما يكن من أمر ؛ فنص الآيات وروحها معاً يلهم أنها نزلت في ظرف أزمة نفسية شديدة طرأت على النبي صلى الله عليه وسلم بسبب فترة الوحي عنه ، هذا مع التنبيه إلى أننا غير مطمئنين للرواية التي ذكرت السيدة خديجة ، فالرواية غير موثقة والسيدة كانت مؤمنة كل الإيمان به ومشجعة كل التشجيع له ، ومضمون الآيات وروحها يلهمان أن القائل عدو استغل خبر الفترة ، إذ تبث في نفسه الطمأنينة وتؤكد له كذب ظن الناس ، وأن الله لم يقله ولم يدعه ، وقد كان الجاحدون يستغلون كل حادث يرون فيه ثغرة ضد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وسوف نعرض صورة من ذلك في الفصل التالي .

وسورة الضحى من السور المبكرة في النزول ؛ إذ يجيء ترتيبها العاشرة أو الحادية عشرة ، وهذا يعني أن فترة الوحى كانت في مبادئ الوحي ، ويعني كذلك أن النبي كان قد استأنس بالوحي استئناساً شديداً فلم يستطع أن يكتم حزنه حينما شعر بفتوره عنه ، فانتشر ذلك عنه حتى بلغ الأعداء . ونعتقد أن هذا الحادث في ظرفه وأثره على جانب عظيم من الخطورة في صدد صحة صلة النبي بالوحي الرباني وشعوره بأنه كان شيئاً منفصلا عن ذاته يتوالى ويفتر .

ورواية موقف امرأة أبي لهب من الحادث مع رواية تبكير نزول سورة المسد وتبكير نزول سورة الضحى ، تجعلنا نرى صلة بين هذا الموقف وبين الحملة عليها هي وزوجها في سورة المسد ؛ وسنعود لذلك في الفصل التالي .

والروايات متغايرة ومتعددة في مدة فترة الوحي ؛ إذ تتراوح على اختلاف الروايات

بين الأيام والأشهر والسنين ؛ إذ تصل في بعضها إلى ثلاث سنين .

على أن تعاقب السور المكية بالإنذار والتبشير والدعوة وحكاية مواقف الكفار والحملة عليهم ـ حتى ليكاد يكون قد نزل نصف القرآن المكي قبل أن تنزل سورة النحل التي تتضمن إشارة إلى هجرة المسلمين إلى الحبشة التي كانت في أواسط العهد المكي ـ يجعلنا نشك في فتور الوحى مدة طويلة تبلغ السنين ؛ وكل ما تطمئن به النفس أن تكون أياما أو أسابيع معدودة .

عهد السيرة النبوية المكي

محتويات هذا القسم

تمهيد

الدعوة في العهد المكي تناولت المشركين والكتابيين ـ تقسيم الكلام على العهد إلى فصلين بسبب ذلك ـ القرآن المكي ومميزاته البارزة ـ طبيعة هذا العهد من أسلوب القرآن المكي ومضامينه ـ مظاهر التشابه في القرآن المكي ودلالتها ـ الطريقة التي سرنا عليها في عرض مشاهد العهد المكي ـ ثبت تراتيب نزول السور المكية .

الصورة الأولى

لم يكن العرب المشركون وحدهم في مكة ، بل كان إلى جانبهم كتابيون أيضاً ، وإن كانت الكثرة والقوة لأولئك دون هؤلاء الذين كانوا أقلية ضعيفة ، وكان جلهم أفراد جاليات نازحة ، وأرقاء ، على ما فصلناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » .

ولقد وجهت الدعوة الإسلامية إلى الفريقين على السواء ، وآيات الأعراف ١٥٧ ـ ١٥٨ التي نقلناها في أحد مباحث الفصل السابق تمثل هذه الدعوة ؛ والأعراف مما نزل مبكراً في العهد المكي على ما ذكرته الروايات وتراتيب نزول السور .

وقد كان لكل منهما موقف متميز بعض التميز من الدعوة ، متصل بطبيعة كيان وعقيدة وقوة كل منهما . ومع أن القسم الأعظم من القرآن المكي هو في صدد دعوة ومواقف الفريق الأول فإنه قد احتوى آيات عدة في صدد دعوة ومواقف الفريق الثاني أيضاً . ولهذا رأينا أن يكون العهد المكى فصلين ، فصلا خاصا بالعرب غير الكتابيين وآخر بالكتابيين .

الصورة الثانية

ويمثل القرآن المكي العهد المكي بطبيعة الحال ، وهو نحو ثلثي القرآن عدد آيات ، وأقل من ثلثيه كمًّا وعدد أجزاء ، ونحو ثلاثة أرباعه عدد سور ، على اختلاف في مكية

ومدنية بعض هذه السور ؛ وله مميزات بارزة نشير إليها فيما يلي :

١ ـ إن أغلب سوره ومجموعاتــه تنحو منحى التسجيع والتوازن والاتساق في الروى أولا ، وقصر الآيات ثانياً ، كما أنهــا قوية الأداء والإيقــاع والنفوذ في تقريرهــا ووصفها وخطابهاوجدلها وتنديدهاوتنويهها ووعدها ووعيدها وتبشيرها وإنذارها.

٢ ـ إنها تتكثف فيها الدعوة إلى الله وإثبات استحقاقه وحده للخضوع والعبادة ومحاربة الشرك وكل ما يتصل به ، بأسلوب قوي نافذ ومتنوع ، كما تتكثف فيها كذلك المبادىء الإسلاميــة الأخلاقية والاجتماعيــة والإنسانية والروحيــة بأسلوب قوي ونافذ ومتنوع أيضاً .

٣ ـ إن أسلوب الدعوة الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية أسلوب حث وحض وتشويق وتمثيل ووعد وجدل أكثر منه أسلوب تشريع وتقنين .

٤ ـ إن حكاية حال الكتابين ومواقفهم هادئة لا عنف فيهــا ، ويوحي أسلوبها ومضمونها بأن الهدف والحزبية متحدان بينهم وبين الدعوة الإسلامية .

٥ ـ إن وصف مشاهد الحياة الأخروية وثوابها وعقابها والإنذار والتبشير بها قد كثر وتــكرر وتنوع كما كثر وتــكرر وتنوع إيراد قصص الأنبياء وأقوامهم وآدم وإبليس ، وذكر الملائكة والجن بإسهاب حيناً واقتضاب حيناً آخر .

٦ ـ إن حكاية أقوال ومواقف الـكفار التكذيبية والجدلية والاتهامية ، والرد عليهم وتقريعهم وتــكذيبهم والحملة عليهم ، قد كثرت وتنوعت أيضاً .

٧ ـ إن القرآن المــكي قــد خلا تقريباً من ذكر المنافقين وحكاية مواقفهم ومكايدهم

٨ ـ إن المشاهد التي احتوتها سور القرآن المــكي ومجموعاته ومناسباتها تــكاد تــكون متشابهة دعوة وتقريراً ووصفا وحكاية وجدلا وإنذارا وتبشيراً وقصصاً .

وفي كل هذا دليل على ما كانت عليــه طبيعــة العهــد حين كان النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام ضعيفين في القوة والعــدد ، وحين كانت الدعوة قائمــة على قوتها الروحيــة والإقناعية والجدل والحجاج ، والمناظرة ، وحين كانت الزعامة العربية هى المؤثرة في

الموقف تأثيراً يجعل الجمهور تابعاً لها ، وحين لم يكن في مكة جاليات كتابية كبيرة وقوية ومتكتلة تصطدم مصالحها بالدعوة الإسلامية كما كان شأن اليهود في المدينة ، وحين كان العهد عهددعوة تشابه المخاطبون بها في العقائد والتقاليدوالمواقف . ولم يكن فيه والحالة هذه تشريع وتقنين يقوم على تنفيذهما سلطان نافذ، كما لم يكن فيه مجال لإضمار فريق من الناس الكفر وإظهار الإسلام تزلفاً للنبي والمسلمين كما كان شأن المنافقين في المدينة .

الصّورة الثالثة

ومن مظاهر هذا التشابه الذي ذكرناه في مواضيع المجموعات والسور المكية أن قارئ القرآن يجد أسلوب الإنذار وضرب الأمثال والتذكير وتكرار حكاية قصص الأمم السابقة وأنبيائها وقصة آدم وإبليس والتنديد بالعرب لعدم ارعوائهم وتأثرهم واستجابتهم وحكاية جدلهم والرد عليهم وموقفهم الجدلي والإعراضي ـ هادئاً لا عنف فيه في كثير من السور والمجموعات المروي نزولها في هذا العهد ، سواء في أدواره الأولى وفي أواسطه وأواخره ، كما يجد إلى جانب هذا عنفاً وشدة في أسلوب ذلك فيما روي نزوله في أوائل العهد وأواسطه وأواخره أيضاً مع التنبيه إلى أن أسلوب العنف والشدة أكثر بروزا وأوسع حيزا من جهة ، وإلى أن طابع الاعتدال والهدوء يضعف في السور المروي نزولها في أواخر العهد من جهة أخرى .

وهذه المظاهر تدل على طبيعة العهد المكي ، وتتسق مع طبيعة الأشياء ؛ فالعهد دام نحو ثلاث عشرة سنة ، والسيد الرسول عليه السلام كان يتصل بمختلف الفئات والطبقات والأفواج المستقرين والقادمين في ظروف متقاربة مع اختلاف المناسبات ، فيكون الموقف هادئاً مع فئة وشديدا مع أخرى ، كما يمكن أن يكون هادئا في ظرف وشديدا في آخر ؛ هذا مع احتفاظ الزعماء العنيفين بغلوائهم والمعتدلين بهدوئهم ، ومع سيطرة الأولين على الموقف طيلة العهد ، وبقاء الدعوة في نطاق ضيق محفوف بالمحن والأخطار .

وفي هذا صور متنوعة للنشاط والجهد والموقف والأحداث ، تساعد على تبين ما كان

يبذله النبي صلى الله عليه وسلم من قوة وجهد ، وبالتالي على أدوار وأحداث السيرة النبوية في هذا العهـــد .

الصّورة الرابعة

ولقد كنا نود أن نعرض هذه الصور المتنوعة دورا دورا ؛ غير أن مظاهر التشابه التي أشرنا إليها تجعل هذا غير يسير كما هو واضح ؛ هذا إلى أن من العسير معرفة تاريخ نزول السور والمجموعات القرآنية المكية معرفة صحيحة ،وإن كان مما يخفف هذه الصعوبة بعض التخفيف ما هنالك من روايات مأثورة لترتيب نزول السور ، وما في مضامين السور والمجموعات من قرائن تلهم صحة كثير من هذه الروايات أو مقاربتها للصحة . ولذلك رأينا أن نسير في دراسة هذا العهد ورسم صوره القرآنية على طريقة نلائم فيهـا بين ملاحظة الزمن ما وسعنا ذلك وبين جعل الدراسة والصور في نطاق مواضيع مستقلة .

وسنضع أمام القارئ بعد هـذا الكلام ثبتا يحتوي ترتيبات النزول المأثورة للسور المكية مما استند في وضعه وروايته إلى روايات ودراسات مأثورة على الأرجح ؛ وسيرى القارئ فيها تقاربا كثيرا يسوغ القول باحتمال مقاربة الترتيبات المذكورة للصحة ، وإننا لنأمل أن نفيد القارئ في تتبع سير السيرة وأدوارها في عهدها المكي .

ومع أن من المحتمل أن تكون مجموعات من سورة ما ـ وخاصة من السور الطويلة ـ قد نزلت منفصلة عن مجموعاتها الأخرى ، فإن مما يجدر التنبيه إليه أن مضامين ونظم السور القصيرة والمسجوعة أولا ، وتلاحق الفصول في كثير من السور المتوسطة والكبرى غير المسجوعة ووحدة الموضوع فيها بوجه عام ثانيا ، يمكن أن يلهم أن جل السور المكية قد نزل جملة واحدة ، كما يمكن أن يلهم أن ما نزلت مجموعات منفصلة منها قد تلاحقت دون أن يفصل بينها نزول مجموعات من سور أخرى ؛ وهذا مما يضمن الفائدة المرجوة آنفاً إلى حد غير يسير .

وقد يرد أن وجود آيات مدنية في السور المكية مما يدعو إلى التوقف في قبول وحدة

نزول هذه السور أو تلاحق فصولها أو ترتيب آياتها منذ العهد المكي على الوجه الذي ورد في المصحف ، ولكننا لا نرى ذلك ، لأن الآيات المدنية الصحيحة الطابع والثبوت ليست كثيرة في عددها وفي عدد السور التي احتوتها وقد وضعت في مناسباتها مما يدل على أن ترتيب آيات السور المكية وتلاحق فصولها لم يطرأ عليه تعديل كبير في العهد المدني . ولقد حرصنا على التنبيه إلى هذه الأمور وملاحظتها في تفسيرنا الكامل وفي مقدمته أيضاً .

وإليك الثبت (*) :

اسم السورة	ترتيب المصحف	ترتيب نزول [illegible]	ترتيب الخازن	ترتيب الإتقان	ترتيب السيوطي	ترتيب [illegible]	ترتيب [illegible]	ترتيب جابر
العلق	٩٦	١	١	١	١	١	١	١
القلم	٦٨	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
المزمل	٧٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣
المدّثر	٧٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤
الفاتحة	١٠٦	٥	٠	٠	٠	٠	٠	٥
المسد	١٠١	٦	٥	٥	٥	٥	٥	٦
التكوير	٨١	٧	٧	٦	٦	٦	٦	٧
الأعلى	٨٧	٨	٨	٧	٧	٧	٧	٨
الليل	٩٢	٩	٩	٨	٨	٨	٨	٩
الفجر	٨٩	١٠	١٠	٩	٩	٩	٩	١٠
الضحى	٩٣	١١	١١	١٠	١٠	١٠	١٠	١١
الشرح	٩٤	١٢	١٢	١١	١١	١١	١١	١٢

* ١ ـ الصفر في العيون إمابسبب سقوط اسم السورة من الترتيب ، أو بسبب أنها فيه مدنية .

٢ ـ العلق والناس في ترتيب الخازن مدنيتان وترتيبهما ١٦ و ١٧ .
الإخلاص والكوثر وقريش والعصر والعاديات والقدر والمطففون والفاتحة مما ورد أنها مدنيات ؛ والجمهور على أنها مع الفلق والناس مكيات ؛ وأسلوبها وروحها يلهمان ذلك أيضا .

٣ ـ الزلزلة والإنسان والرعد والحج مدنيات في أكثر الروايات وجميع التراتيب . وهناك روايات تذكر أنها مكيات ، وأسلوبها ومضامينها وخلاصة الثلاث الأول تشبه الأسلوب المكي أكثر مما تشبه الأسلوب المدني .

٤ ـ تسمى الجاثية بالشريعة ، وفصلت بالمصابيح ، وغافر بالمؤمن ، وص بداود ، والمسد بأبي لهب ، والنبأ بالتساؤل ، والمعارج بسأل ، والقلم بنون ، والفاتحة بأم الكتاب ، وفاطر بالملائكة ، والإسراء ببني إسرائيل ، والنحل بالنعم : تسميات مشهورة ، حتى أن بعض المصاحف تسميها بهذه الأسماء بدلا من أسمائها الأكثر شهرة ؛ هذا بالإضافة إلى أن لبعض السور أسماء أخرى ولبعضها أسماء عدة أقل شهرة .

اسم السورة	رقم ترتيب المصحف	رقم ترتيب مصحف نوفل	رقم ترتيب الإتقان	رقم ترتيب [illegible]	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب الحسن وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جابر
العصر	١٠٣	١٣	١٣	١٢	١٢	١٢	١٢	١٣
العاديات	١٠٠	١٤	١٤	١٣	١٣	١٣	١٣	١٤
الكوثر	١٠٨	١٥	١٥	١٥	١٤	١٤	١٤	١٥
الماعون	١٠٧	١٧	١٧	٣١	١٦	١٦	١٦	١٧
الكافرون	١٠٩	١٨	١٨	١٤	١٤	١٧	١٧	١٨
الفيل	١٠٥	١٩	١٩	١٦	١٨	١٨	١٨	١٩
الفلق	١١٣	٢٠	٠	١٧	١٩	١٩	١٩	٢٠
الناس	١١٤	٢١	٠	١٨	٢٠	٢٠	٢٠	٢١
الإخلاص	١١٢	٢٢	٢٠	١٩	٢١	٢١	٢١	٢٢
النجم	٥٣	٢٣	٢١	٢٠	٢٢	٢٢	٢٢	٢٣
عبس	٨٠	٢٤	٢٢	٢٠	٢٣	٢٣	٢٣	٢٤
القدر	٩٧	٢٥	٢٣	٢١	٢٤	٢٤	٢٤	٢٥
الشمس	٩١	٢٦	٠	٢٢	٢٥	٢٥	٢٥	٢٦
البروج	٨٥	٢٧	٢٤	٢٣	٢٦	٢٦	٢٦	٢٧
التين	٩٥	٢٨	٢٥	٢٤	١٣	٢٦	٢٦	٢٧
قريش	١٠٦	٢٩	٢٦	٢٥	٢٨	٢٨	٢٨	٢٩
القارعة	١٠١	٣٠	٢٧	٢٦	٢٩	٢٩	٢٩	٣٠
القيامة	٧٥	٣١	٢٨	٢٧	٣٠	٣٠	٣٠	٣١
الهمزة	١٠٤	٣٢	٢٩	٢٨	٣١	٣١	٣١	٣٢
المرسلات	٧٧	٣٣	٣٠	٢٩	٣٢	٣٢	٣٢	٣٣
ق	٥٠	٣٤	٣١	٣٠	٣٣	٣٣	٣٣	٣٤
البلد	٩٠	٣٥	٣٢	٣٢	٣٤	٣٤	٣٤	٣٥

اسم السورة	رقم ترتيبها في المصحف	رقم ترتيب نزولها مصحف [illegible]	رقم ترتيبها الخازن	رقم ترتيبها الإتقان	رقم ترتيبها [illegible]	رقم ترتيبها [illegible]	رقم ترتيبها [illegible]	رقم ترتيبها جابر
الطارق	٨٦	٣٦	٣٣	٣١	٣٥	٣٥	٣٥	٣٦
القمر	٥٤	٣٧	٣٤	٣٣	٣٦	٣٦	٣٦	٣٧
ص	٣٨	٣٨	٣٥	٣٤	٣٧	٣٧	٣٧	٣٨
الأعراف	٧	٣٩	٣٦	٣٥	٣٨	٠	٣٨	٣٩
الجن	٧٢	٤٠	٣٧	٣٦	٣٩	٣٨	٣٩	٤٠
يس	٣٦	٤١	٣٨	٣٧	٤٠	٣٩	٤٠	٤١
الفرقان	٢٥	٤٢	٣٩	٣٨	٤٣	٤٠	٤١	٤٢
فاطر	٣٥	٤٣	٤٠	٣٩	٤٢	٤١	٤٢	٤٣
مريم	١٩	٤٤	٤١	٤٠	٤١	٠	٤٣	٤٤
طه	٢٠	٤٥	٤٢	٤١	٤٤	٤٢	٤٤	٤٥
الواقعة	٥٦	٤٦	٤٣	٤٢	٤٥	٤٥	٤٥	٤٦
الشعراء	٢٦	٤٧	٤٤	٤٣	٤٦	٤٤	٤٦	٤٧
النمل	٢٧	٤٨	٤٥	٠	٤٧	٤٥	٤٧	٤٨
القصص	٢٨	٤٩	٤٦	٤٥	٤٨	٤٦	٤٨	٤٩
الإسراء	١٧	٥٠	٤٧	٤٦	٤٩	٤٧	٤٩	٥٠
يونس	١٠	٥١	٤٨	٤٧	٥٠	٤٨	٥٠	٥١
هود	١١	٥٢	٤٩	٤٨	٥١	٤٩	٥١	٥٢
يوسف	١٢	٥٣	٥٠	٤٩	٥٢	٥٠	٥٢	٥٣
الحجر	١٥	٥٤	٥١	٥٠	٥٣	٥١	٥٣	٥٤
الأنعام.	٦	٥٥	٥٢	٥١	٥٤	٥٢	٥٤	٥٥
الصافات	٣٧	٥٦	٥٣	٥٢	٥٥	٥٣	٥٥	٥٦
لقمان	٣١	٥٧	٥٤	٥٣	٥٦	٥٤	٥٦	٥٧

اسم السورة	ترتيب حسب المصحف	ترتيب نزول حسب مصحف [illegible]	ترتيب حسب الخازن	ترتيب حسب الإتقان	ترتيب حسب [illegible]	ترتيب حسب [illegible]	ترتيب حسب [illegible]	ترتيب حسب جابر
سبأ	٣٤	٥٨	٥٥	٥٤	٥٧	٥٥	٥٧	٥٨
الزمر	٣٩	٥٩	٥٦	٥٥	٥٨	٥٦	٥٨	٥٩
غافر	٤٠	٦٠	٥٧	٥٦	٥٩	٥٧	٥٩	٦٠
فصلت	٤١	٦١	٥٨	٥٧	٦٠	٥٨	٦٠	٦١
الشورى	٤٢	٦٢	٥٩	٥٨	٦١	٥٩	٦١	٦٩
الزخرف	٤٣	٦٣	٦٠	٥٩	٦٢	٦٠	٦٢	٦٢
الدخان	٤٤	٦٤	٦١	٦٠	٦٣	٥٨	٦٣	٦٣
الجاثية	٤٥	٦٥	٦٢	٦١	٦٤	٦١	٦٤	٦٤
الأحقاف	٤٦	٦٦	٦٣	٦٢	٦٥	٦٢	٦٥	٦٥
الذاريات	٥١	٦٧	٦٤	٦٣	٦٦	٦٣	٦٦	٦٦
الغاشية	٨٨	٦٨	٦٥	٦٥	٦٧	٦٤	٦٧	٦٧
الكهف	١٨	٦٩	٦٦	٦٦	٦٨	٦٥	٦٨	٦٨
النحل	١٦	٧٠	٦٧	٤٤	٦٩	٦٦	٦٩	٧٢
نوح	٧١	٧١	٦٨	٦٧	٧٠	٦٧	٧٠	٧٣
إبراهيم	١٤	٧٢	٦٩	٦٨	٧١	٦٨	٧١	٠
الأنبياء	٢١	٧٣	٧٠	٦٩	٧٢	٦٩	٧٢	٧١
المؤمنون	٢٣	٧٤	٧١	٧٠	٧٣	٧٠	٧٣	٧٥
السجدة	٣٢	٧٥	٧٢	٧١	٧٤	٧١	٧٤	٧٠
الطور	٥٢	٧٦	٧٢	٧٢	٧٥	٧٢	٧٥	٧٤
الملك	٦٧	٧٧	٧٣	٧٣	٧٦	٧٣	٧٦	٧٦
الحاقة	٦٩	٧٨	٧٤	٧٤	٧٧	٧٤	٧٧	٧٧
المعارج	٧٠	٧٩	٧٥	٧٥	٧٨	٧٥	٧٨	٧٨

اسم السورة	رقم ترتيب المصحف	رقم ترتيب نزول مصحف فؤاد	رقم ترتيب الخازن	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب [illegible]	رقم ترتيب الحسن وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جابر
النبأ	٧٨	٨٠	٧٧	٨٠	٧٧	٧٧	٨٠	٨٠
النازعات	٧٩	٨١	٧٦	٧٩	٧٦	٧٧	٧٩	٧٩
الانفطار	٨٢	٨٢	٧٨	٨١	٧٨	٧٩	٨١	٨١
الانشقاق	٨٤	٨٣	٧٩	٨٢	٧٩	٧٨	٨٢	٨٢
الروم	٣٠	٨٤	٨٠	٨٣	٠	٨٠	٨٣	٨٣
العنكبوت	٢٩	٨٥	٨١	٨٤	٨٠	٨١	٨٤	٨٤
المطففون	٨٣	٨٦	٨٢	٨٥	٨١	٠	٨٥	٨٥

فصـــل

في موقف العرب غير الـكتابيين من الدعوة

هذا الفصل يتناول أشد أدوار السيرة النبوية قدراً وخطراً ، وأعظم صورها النضالية التي تمثل قوة نضال الحق مع الباطل على قلة أنصار الأول وكثرة أنصار الثاني . ويتألف من المباحث التالية :

١ ـ دور الخطوات الأولى .

٢ ـ موقف زعماء مكة من النبي ودعوته وبواعثه .

٣ ـ مشاهد وصور متنوعة بين النبي والزعماء ؛ بين الشدّة والاعتدال .

٤ ـ مشاهد التحدي .

٥ ـ محنة الأذى والفتنة ومشاهدها ونتائجها .

٦ ـ الأزمات النفسية النبوية .

٧ ـ صور متنوعة للمسلمين في العهد المـكي .

المبحث الأول

دور الخطوات الأولى

صورة عامة لهـذا الدور ـ نهي النبي عن الصـلاة والدعوة ـ احتمالات كون المتصدي من رجال سلطات مكة ومدى هـذا ـ عدم إطاعـة النبي ودلالته ـ قوة آيات العلق ودلالتها ـ آيات سورة القلم ودلالتها على كثرة المـكذبين ـ طبقة مخادعة من الزعماء منذ البدء ـ رغبة هذه الطبقة في تبادل التساهل مع النبي ـ أول مرة ينعت فيها القرآن بأساطير الأولين ـ تلازم الأغنياء والزعماء في المعارضة وبواعثه ـ مشهد مناظرة محتمل ـ نفي المنفعة والطمع عن النبي ودلالة الآيات الواردة في ذلك ـ دهشة الجاحدين لآيات القرآن ونذره ـ مدى أمر النبي بالصبر والهجر الجميل ـ احتمال صلة الأمر بدار الأرقم ـ تعليق على رواية سرية الدعـوة ـ أول القول عن القرآن أنه سحر وقول بشر ـ مواقف أبي لهب وامرأته ـ تعليق على رواية مشهورة لنزول سورة المسد ـ أول مواقف الجاحدين في الشك في اتصال النبي بملك الله وظنهم أنه شيطان ـ ذكر المؤمنين في بعض السور الأولى ودلالتها ـ تلخيص لهذا الدور وطابعه وصور عن المسلمين فيه وبواعث إقبالهم على الدعوة ودلالتها.

الصورة الأولى

وصلنا في الفصل السابق إلى أن مطالع سور العلق والقلم والمزمل والمدثر يصح أن تكون قد نزلت وحدها ؛ وأنه لا بد أن تـكون سور عدة قد نزلت قبل نزول بواقيها ، وأنها قد احتوت مبادىء الدعوة ، وإنذاراً وتبشيراً خاليين من العنف ، وخلت من الإشارة إلى مواقف الجاحدين والحملة عليهم .

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الخطوات الأولى للدعوة كانت اتصالا بالأخصاء ومن توسم النبي صلى الله عليه وسلم فيهم القبول والحجى ، وتلاوة لهذه السور عليهم ودعوتهم .

والسور المـكية التي خلت من ذكر المـكذبين والجاحدين والتنديد بهم والحملة عليهم قليلة ، وهذا مما يسوغ القول إن الدعوة لم تلبث أن أخذت منذ خطواتها الأولى تصطدم بالإنـكار والاستنـكار والصد والتـكذيب ؛ وإن السور والمجموعات القرآنية

لم تلبث أن أخذت تنزل متلاحقة بوصف مواقف الصادّين والمكذبين والتنديد بهم والحملة عليهم .

وما دام الأمر كذلك فليس مايمنع أن تكون الآيات التالية لمطالع السور الأربع الأولى من أول مانزل بعد السور التي نزلت بعد هذه المطالع واقتصرت على الدعوة والإنذار والتبشير كما قلنا ؛ وفي هذه الآيات صور لرد فعل الخطوة النبوية الأولى ؛ وقرائن على أنها من أوليات القرآن نزولا .

الصورة الثانية

إن الآيات التي أعقبت مطلع سورة العلق هى هذه :

« كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ . أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ . إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ . أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْداً إِذَا صَلَّىٰٓ . أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ . أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ . أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ . أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ . كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِٱلنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ . سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ... ٦ — ١٩

فهذه الآيات تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ يصلي على شكل جديد ، جهرة على ملأ من الناس في فناء الكعبة على الأرجح ؛ وأنه أخذ يدعو بدعوته إلى الله وتقواه بمجانبة الشرك والآثام وعبادة الله وحده واتباع مكارم الأخلاق مما حوته سورة الأعلى ومثيلاتها ؛ وأنه أخذ يقابل بالتكذيب والانصراف من جهة ، ثم تصدى له من جهة أخرى شخص ينهاه عن صلاته ودعوته ، وتلهم الآيات أن هذا الشخص كان من الزعماء ، أبطره ما كان له من غنى وجاه وأطغاه ، ورأى لنفسه قوة على نهي النبي والتصدي لحريته في الصلاة والدعوة .

وعبارة « ناديه » تعني مجلس القوم ؛ ويمكن أن تكون قد عنت ماعرف في أخبار السيرة بدار الندوة التي كانت في فناء الكعبة ، وكانت مجتمع مشيخة مكة ورجال سلطانها

الدينية والزمنية على ماذكرناه في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ؛ وإذا صح توجيهنا هذا ساغ أن يقال إنّ السلطات الرسمية في مكة رأت في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم صلاة علنية جديدة ، وفي تلاوته قرآناً فيه دعوة إلى مايخالف التقاليد الجارية ، وفي دعوته الناس جهارا إلى دين جديد ـ بدعة يجب الوقوف أمامها بشكل ما ؛ وأنها عهدت إلى أحد أعضائها بتنفيذ ذلك ؛ أو لعل المتصدي كان أشد حماسة من سائر رجال هذه السلطات فكان هو الذى تولى النهى والصد ووقف الموقف الذي ذكرته الآيات ونددت به .

وقد قيدنا الكلام بتعبير « بشكل ما » لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمتنع ، ولم يلاحق بمنع رسمى كان من الجائز أن يستمر . ولعل الحرية الدينية التي كانت مطلقة للناس في البيت الحرام عاكفين وبادين ، والتي كانت تكفلها حرمة البيت الحرام أو التي تقوم عليها هذه الحرمة لما يعود من ورائها من منافع عظمى على أهل الحرم ـ هى التي جعلت الأمر يقف عند حد الجدل والحجاج والصد والتكذيب والمناوأة والأذى الشخصي، أو عند المحاولة التي لم تتبع بملاحقة رسمية حازمة ؛ ولعلنا لا نخطيء إذا قلنا إن هذا لم يقتصر على دور الخطوات الأولى ، بل هو الذي استمر طيلة العهد أو أكثره ، وكان من عوامل انفساح المجال لاستمرار النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته ، وقد قلنا طيلة أكثره ، لأن التآمر على اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم أو حبسه أو نفيه في أواخر العهد واشتراك أكثر زعماء قريش البارزين فيه هو خروج عن هذا الموقف من ناحية ما ، على ماسوف نذكره في مبحث آخر .

على أنه إذا لم يصح توجيهنا ولم يكن « ناديه » دار الندوة ، ولم يكن النهى بأمر رجال السلطات ، ولا من أحدهم ـ فإن الدلالة قائمة في الآيات ـ على كل حال ـ على أن المتصدي من زعماء القوم الأقوياء ذوي الأنصار والمكانة ، وعبارة « فليدع ناديه » أي فليتضامن مع أهل مجلسه أو أنصاره ، تحتمل كلا الاحتمالين .

وظروف الموقف تدل على أنه من أبكر مواقف الصد والنهي والتكذيب إن لم يكن أبكرها ، وروح الآيات ومضمونها يلهمان هذا ، إذ تندد بالمتصدي لنهيه عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى ، وإذ تأمر رسول الله بعدم المبالاة وبالاستمرار في عبادته . ولعل إكمال سورة العلق ـ التي كانت آياتها الأولى أول مانزل من القرآن ـ بهذه الآيات دليل على هذا التبكير .

وإذا لاحظنا هذا ولاحظنا أن النبي لم يكن بعدقد آمن به إلا أفراد يعدون على الأصابع ، تبين لنا الموقف العصيب الذي واجهه ، والجرأة العظيمة التي واجه بها هذا الموقف بأمر ربه ، بما كان يوجهه إلى الزعيم القوي الغني الطاغي مما يوحي إليه من آيات فيها الصفعات الداميات والشرر المحرق ، ثم بما كان من تثبيت القرآن له على دعوته وعبادته وثباته فيهما فعلا ، وتبين لنا ـ كما قلنا في الفصل السابق في النبي صلى الله عليه وسلم ـ العظمة الخلقية ، والإيمان العميق ، والجرأة الشديدة في الحق على كل باغ مهما كان قويا عاتياً . ولقد كان هذا دأبه في كل المواقف التالية لهذا الموقف العصيب ، سواء كانت في الخطوات الأولى أو مابعدها . وفي هذا سر من أسرار اصطفائه للرسالة العظمى من دون ريب .

والروايات تذكر أن هذا الزعيم هو المغيرة بن هشام المخزومي ، الذي عرف في تاريخ الإسلام بأبي جهل بعد أن كان أبا الحكم ؛ ونحن لا نستبعد ذلك ، فنبز عظيم من عظماء قريش بهذا اللقب لا بد أن يكون لسبب قوي ، وأولية التصدي للنبي ونهيه عن الصلاة والدعوة هي سبب قوي من دون ريب ، وازداد هذا قوة باستمرار أبي جهل فى موقفه الشديد العنيف الباغي من الدعوة إلى أن هلك في غزوة بدر الكبرى .

وهذا المشهد يدل على أن الدعوة بدأت علنية وبقوة . خلافا لما روي من أنها بدأت سرية . وهذا مؤيد بالمشاهد المماثلة التي ظلت تحكى في السور العديدة المبكرة في النزول مثل القلم والمزمل والمدثر والماعون والكافرون . وكل مايمكن أن يقال إزاء ماورد في

الرويات التي تروى أقوال بعض أصحاب رسول الله[1] مثل ماروى عن عمر في قصة إسلامه حيث سأل (أنحن على حق أم باطل فقال له رسول الله بل على حق. فقال ففيم التخفي إذن) وما روي عن ابن مسعود أنه قال (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر . ولقد رأيتنا ومانستطيع أن نصلي بالكعبة ظاهرين آمنين حتى أسلم عمر) أن النبي صلى الله عليه وسلم حماية لأصحابه كان يلزم الحذر والتحفظ في الصلاة والاجتماع بهم. غير أن دعوته للناس كانت وظلت جهرة . وهذا هو المعقول المتسق مع هدف الدعوة وإيمان النبي بالله ورسالته .

الصّورة الثالثة

والآيات التي أعقبت مطلع سورة القلم هي هذه :

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ . فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ . وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ . وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ .أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ. سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ...[2]

٥ ـ ١٦

والآيات تحتوي مشاهد من السيرة النبوية نرجح أنها من مشاهدها الأولى . وترجيحنا قائم أولا على أن هذه الآيات وما بعدها إلى آخر السورة صارت تتمة سورة مطلعها من أوليات القرآن نزولا على الراجح ، وثانيا على سين الاستقبال التي بدئت بها الآية الأولى ، واستشهاد الله على الضال من المهتدي ، وثالثاً على ما جاء في آخر السورة من تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتصبيره ودعوته إلى عدم الضيق بتكذيب قومه كما فعل صاحب الحوت ، إذ جاء فيها :

---

(١) انظر مثلا السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٣٠ وبعدها .

(٢) المفتون : الضال أو المنحرف إلى دين آخر . تدهن : تلاين . هماز : عياب : عتل : جاف غليظ. زنيم : دعى . سنسمه : سنضع عليه سمة بالكي على عادة العرب بوسم إبلهم . الخرطوم : هو للفيل ، واستعير لفم الذي قال عن القرآن أساطير الأولين .

« فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ . لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ... ٤٨ ـ ٥٠

أما المشاهد التي احتوتها الآيات فهي :

١ ـ إلهامها أن المكذبين قد كثروا . وأنهم صاروا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم وينتقدونه لا نحرافه أو ضلاله عن دين آبائه محاولين رده عن ذلك .

٢ ـ إنّ المتصدين له هذه المرة لم يكونوا غلاظاً شديدين بالنهى والنقد ، بل تظاهروا بالرغبة في الملاينة ، وودوا منه اللين والوعد منه بالتفاهم على أمر وسط ؛ فيتنازل عن بعض موقفه ويتنازلون هم عن بعض موقفهم .

٣ ـ إنّ منهم من كان يقسم الأيمان للنبي على ما كان يقوله أو يعرضه حتى يتساهل ويلين .

٤ ـ إنّ الموقف لم ينته إلى تفاهم وتوافق ، وإن الحلاف الذى تظاهر بالاعتدال كان في الحقيقة يعيب النبي صلى الله عليه وسلم ويكذب عليه ويصد عنه الناس ويسعى بالنميمة بينه وبينهم ، وإنه لم يلبث أن جاهر بطويته فوصف آيات القرآن بأنها أساطير الأولين ، أي أنها قصص الأولين المتداولة أو الخرافية أو أنها مقتبسات عنها على ما تحتمله هذه الجملة . وهذه أول مرة نعت القرآن هذا النعت الذى تكرر من قبل الكفار مراراً بعد ذلك .

٥ ـ إن هذا الحلاف النمام كان غنيا قويا بأبنائه وأنصاره .

وتعبير « حلاف مهين » يمكن أن يلهم أن هذا الحلاف كان يحلف للناس بكذب النبي ، أو كان يحلف للنبي صلى الله عليه وسلم باستعداده لمجاراته على حين كان يضمر التكذيب والصد : وقد رجحنا الشق الثاني استلهاماً من جملة « فلا تطع » التي نرجح

أنها تعني « لا تصدق » أو « لا تسمع » أو « لا تقبل » ثم من الحملة الشديدة التي تبعت الآية ، والتي نعتت الحلاف بنعوت تدل على ما كان عليه من سوء النية وخبث الطوية ، ومايضمر من الكذب والخداع وتأليب الناس على النبي بالنميمة والوقيعة .

والآيات وإن دلت في أولها على كثرة المكذبين والمحاجين فإن النعوت المتتابعة فيها تدل على شخص بعينه . ولسنا نرى في هذا تناقضاً ؛ إذ من الممكن أن يكون المحاجون جمعاً وأن يكون أحدهم أشد لؤماً وكيداً ومكرا ، أو أن تكون الآيات قد احتوت حكاية مواقف متنوعة في ظرف واحد .

وهكذا تبدو في هذه المشاهد صورة غير الصورة التي تلهمها آيات العلق كما هو واضح ؛ كما يبدو أن من الذين تصدوا للنبي صلى الله عليه وسلم في أول خطواته من كان عنيفا شديدا ومن كان مداهناً مخادعاً . ولقد ظلت هاتان الصورتان تتكرران طيلة العهد المكي بأشكال متنوعة على ما أشرنا إليه من قبل . ويبدو كذلك أنّ الزعماء والأغنياء قد تلازموا في مواقف الصد والتكذيب ، وتضامنوا في قيادة حملتهما ؛ وهذا أيضاً من المشاهد التي ظلت تتكرر طيلة هذا العهد .

ولقد يخطر بالبال أن من طبيعة المجتمع العربي إذ ذاك أن يجتمع الغنى والزعامة في شخص واحد ، غير أن الحملات القرآنية تختص حيناً الأغنياء وحيناً الزعماء ، مما يحتمل أن يكونا صنفين كما يلمح في آيات سورتي العلق والقلم نفسهما وفي كثير غيرها ، وأنهما تضامنا معاً ، الأولون خشية على ثرواتهم والآخرون خشية على مراكزهم ؛ لأن الدعوة الإسلامية نددت بالأغنياء الذين يقبضون أيديهم عن مساعدة الطبقات المعوزة وحثت على الإنفاق كثيراً ، كما أنها حاربت الزعامة الطاغية الباغية المعتزة بالقوة والمتكبرة عن الحق .

وتنبه على أن طلب الكفار الملاينة من النبي صلى الله عليه وسلم مقابل وعد منهم بمثل ذلك حتى يتم التقارب والتفاهم على أمر وسط الذي تضمنت حكايته الآية (٨) قد

تكرر في ظروف أخرى وبأساليب أخرى مما سوف نعود إليه في مناسبة ثانية .

الصورة الرابعة

وفي آيات سورة القلم الأخرى مشاهد أخرى جديرة بالتنويه أيضا .

(١) ففيها ما يلهم أنه مشهد مناظرة أو تنديد في مقام مناظرة ؛ إذ احتوت الآيات التالية :

« أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ . سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ . أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ... ٣٥ ـ ٤١

وهذا الأسلوب متكرر كثيراً في القرآن المكي . والذي يخطر بالبال في صدده أنه إمّا أن يكون تعقيباً أو تعليقاً على موقف جدل ومحاجة بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار ، وإمّا أن يكون على سبيل تلقين الحجة المفحمة في مواقف الجدل والحجاج .

تكراره كثيراً يلهم أن النبي كثيرا ما كان يشتبك مع بعض الجاحدين بالجدل والمحاجة التي تنطوي من ناحية على التنديد والتبكيت والتحدي ، وتجري من ناحية أخرى على طريقة منطقية يوجه الكلام فيها إلى العقل دون أن يكون فيها شدّة أو مهاترة ؛ وهذا مما يؤيد ما قلناه آنفاً من تنوع طبيعة الجاحدين بين الشدة واللين والغلظة والمداهنة ، ومن أن هاتين الصورتين بدأتا منذ الخطوات الأولى واستمرتا متلازمتين .

(٢) وفيها سؤال إنكاري عما يمكن أن يكون للنبي من نفع يلتمسه من وراء دعوته أو من مطمح يسعى إليه ، كما ترى في الآية التالية :

« أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ... ٤٦

وإذ كان السؤال من قبيل الإنكار أو الاستنكار فإن الآية تنفي طلب الأجر ، وتنكر على الجاحدين موقفهم ، فالنبي لا يطلب أجرا ولا جعلا حتى يروا فيما يدعوا إليه كلفة وغرامة . ولقد تكرر هذا كثيرا في القرآن المكي بأساليب متنوعة ؛ ومع أنه لم يرد في أي مرة في صدد نفي تهمة موجهة إلى النبي أو بصورة رد على تهمة ؛ فإن تكراره قد يلهم أن من الزعماء و الأغنياء من ظن أن النبي صلى الله عليه وسلم يسعى وراء مطمع خاص ، أو رأى أن في دعوته ما يهدد مراكزهم وثرواتهم ؛ ولعل هذا من أسباب التجهم للدعوة منذ بدئها ، ولعل ذكر القرآن للزكاة ودعوته إلى التصدق ومساعدة المعوزين ومراعاة حق اليتيم والبر به وفك الرقاب ، ونعيه على الناس البخل وحب المال والانهماك في الدنيا وإيثارها على ما عند الله ، في السور المبكرة جدا التي احتوت مباديء الدعوة والإنذار والتبشير بصورة عامة كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ...
الأعلى ١٦ — ١٧

٢ — كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ . وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ... الفجر ١٧ — ٢٠

٣ — فَلاَ ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ . وَمَآ أَدْرَٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ . يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ... البلد ١١ — ١٦

٤ — فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ . وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ . وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ . وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ . إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . وَإِنَّ لَنَا لَلْأَخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ . فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ . لَا يَصْلَىٰهَآ إِلاَّ ٱلْأَشْقَى . ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى . ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ . إِلاَّ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ... الليل ٥ — ٢١

... قد جعل زعماء الكفار وأغنياؤهم ينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم الطمع في أموالهم أو التآمر على ثرواتهم منذ الخطوات الأولى ، ففي القرآن في آياته المبكرة ذلك عنه شخصيا ، ثم ظل ينفيه من آن لآخر أيضاً .

(٣) وفيها صورة لحالة الكفار النفسية ظاهرها وباطنها حينما كان يتلو النبي صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن وينذرهم ويبشرهم به كما ترى في الآيات التالية :

« وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ... [1] القلم ٥١ ـ ٥٢

ووصف هذا الموقف قد تكرر كثيرا في القرآن المكي . ووروده في آيات سورة القلم يلهم أنه كان منذ الخطوات الأولى للدعوة ؛ وصيغة الآية (٥١) قوية الدلالة على أن الكفار لم يكونوا يقصدون نعت النبي بالجنون المرضي ، بل يقصدون بيان دهشتهم مما كان يتلوه عليهم ، حيث أرادت الآية أن تقول إنهم كانوا يحملقون في وجهه وتكاد عيونهم تأكله عجباً ودهشة لما سمعوه من آيات القرآن .

وهذا الوصف أثر من آثار الدعوة في جمهور الناس ، ويبدو أن الزعماء قد استغلوه أعظم استغلال في حملة الصد والتكذيب التي تولوا كبرها ؛ كما تدل على ذلك آيات كثيرة هذا مثال منها :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ... سبأ ٧ ـ ٨

وواضح أن جملة « الذين كفروا » تعني الزعماء إذ كانوا يقولون للناس الكلام الذي جاء بعد الجملة على سبيل الدعاية والصد . ومن هذا القبيل آية أخرى في السورة نفسها وهي هذه :

---

(١) « الذكر » الأول كناية عن القرآن وقد تكرر مرات بهذا المعنى ، والثاني : بمعنى التذكير والذكرى وقد تكرر مرات أيضاً.

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ... ٤٣

الصورة الخامسة

ومن الآيات التي أعقبت مطلع سورة المزمّل الآيتان التاليتان :

« وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا. وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ... ١٠ - ١١

وفي الآيتين أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على تكذيب المكذبين وأقوالهم ، وبهجرهم هجرا جميلا أي لا قطيعة فيه ولا شدة ، وبوكالة أمر هؤلاء المغرورين بما تيسر لهم من الجاه والنعمة إلى الله ، وبتوعدهم بأن نتائج موقفهم تقع عليهم في أجل قريب ؛ والآية الثانية واضحة الدلالة على أن المكذبين من الزعماء ذوي الجاه والثراء ؛ وهذا مما سبق من المشاهد ومما تكرر فيما بعد .

وقد احتوت الآيتان تثبيتاً وطمأنة للنبيّ صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف الذي أخذ يلقاه مكررا في خطواته الأولى ؛ وهذا كذلك استمرار لما سبق من تلقينات لتثبيته وطمأنينته كانت من دون ريب من عوامل ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في مهمته وتعبير « الهجر الجميل » ذو مغزى خطير ؛ فهو متسق مع طبيعة مهمة النبي من عدم قطع الحبل قطعا باتًّا بينه وبين الزعماء الجاحدين الذين في يدهم زمام الناس مهما كابروا وكذبوا ، وبينه وبين جمهور الناس عامة الذين لم يكونوا قد استجابوا إلى الدعوة ، ومتسق كذلك مع ماتمليه ظروف الخطوات الأولى ، إذ تملى أن يلائم صاحب الدعوة بين الظروف المتباينة ، فلا يعنف ولا يقسو من جهة ، ولا يتعرض هو وأصحابه للمكروه دون ما ضرورة من جهة أخرى .

ولقد تواترت الروايات[1] على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اتخذ له مركزا سريا أو بالأحرى منعزلا ، وهو « دار الأرقم » يجتمع فيه هو وأصحابه ، يقيمون الصلاة ويتدارسون القرآن ، ويتلقون عن النبي صلى الله عليه وسلم تعاليم الدين والأخلاق ، كما أثر عنه أحاديث يدعو فيها ربه أن يعز الإسلام ببعض الأقوياء ، وأن هذا الحال دام نحو ثلاث سنين من أوائل العهد المكي إلى أن أسلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما وغيرهما من الأقوياء المعروفين ، فليس بعيدا أن تكون هذه الآية قد لقنت النبي صلى الله عليه وسلم هذا التصرف المروي أو ما يقرب منه ، حينما أخذ يلقي التكذيب والمناوأة ، وأخذ الطغاة من الجاحدين يتعرضون لضعفاء المسلمين بالأذى على ما سوف نذكره بعد .

ولقد روي فيما روي أن الدعوة بدأت سرّية إلى أن قوي الإسلام ، ونزلت آيتا الحجر .

« فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ . . .
٩٤ — ٩٥

ونحن لا نسلم بهذا ؛ استلهاماً من آيات العلق التي تذكر أن زعيما نهى النبي عن الصلاة وعن الأمر بالتقوى ، أي الدعوة ، ومن آيات القلم التي تذكر أن الكافرين كانوا يكادون يلتهمون النبي بعيونهم حينما سمعوا القرآن ويقولون إنه لمجنون ، ويودون لو لاينهم ليلاينوه ، ويقولون إن ما يتلوه هو أساطير الأولين ؛ ومن آيات المزمّل هذه التي تذكر المكذبين وتهددهم ، ومن آيات المدثر وغيرها وغيرها مما هو مجمع على نزوله مبكراً ، واحتوى حكاية مواقف الكفار وجدلهم وتكذيبهم . والوجه الحق فيما نرى هو أن الدعوة بدأت علنية وجهاراً ، وكل ما يمكن أن يكون مما تلهم آية المزمّل (١٠) هذه أن النبي تجنب — بتلقينها وبإملاء الظروف — المعاندين والطغاة مؤقتاً مع عدم قطع

---

(١) انظر تفسير الآية (٩٤) من سورة الحجر في تفسير ابن كثير والطبري .

الحبل ومجانبة الشدة في خطابهم ، وأنه قصر دعوته مؤقتاً على من كان يتوسم فيهم الخير والاستجابة ، ولا يرى فيهم الغلظة والقسوة والعنف في الصد والتكذيب ، كما أن من الممكن أن يكون قد تجنب إقامة الصلاة جماعة وتلاوة القرآن جهراً على ملأ من الناس ، وفي فناء الكعبة خاصة رعاية لأصحابه الضعفاء ، وأن يكون قد اتخذ دار الأرقم مكان اجتماع وصلاة خاصا ؛ وقد وصفنا المكان بالمنعزل لا بأنه سري ؛ لأننا لا نرى من المعقول أن يكون مكان الاجتماع والصلاة هذا سريا في بلد كمكة في ذلك العهد ، وقد كان يؤمه عدد مهما قل فإنه يبلغ العشرات ، وكان مركز اجتماع شخص أثار دهشة الزعماء والجمهور وبعث في نفوسهم الحيرة والاضطراب ـ مع أصحابه الذين تابعوه . وإذا كان قد تسني لهم الاستمرار في أمرهم مدة غير قصيرة ـ ثلاث سنوات مثلا ـ فالراجح أن هذا عائد إلى أن فكرة مطاردة النبي صلى الله عليه وسلم ومنع حريته بالقوة لم تكن مما اتفق عليه الزعماء ، فلما اعتزلهم وتحفظ في دعوته وصلاته واجتماعاته لم يكن منهم إلا مجاراة الحالة والسكوت عليها .

الصورة السادسة

ومن الآيات التي أعقبت مطلع سورة المدثر الآيات التالية :

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيداً . سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ... ١١ ـ ٢٥

وقد احتوت الآيات مشهداً آخر من مشاهد المكذبين ومواقفهم ، اختلفت فيه الصورة شكلا عن سابقتها مع اتفاقهما في المدى . وما دامت الآيات من تتمة لسورة مطلعها من أوليات القرآن : فقد صح أن يقال إن المشهد من المشاهد المبكرة أيضاً وأنه أثر من

آثار الخطوات الأولى للدعوة في الذين اتصل بهم النبي صلى الله عليه وسلم ودعاهم وتلا عليهم القرآن ؛ وروح الآيات تلهم هذا ، كما يساعد على ترجيحه تقارب الصور والمشاهد المكية في السور السابقة .

والصورة كما هي واضحة ، صورة غني ذي بنين وجاه اتصل به النبي ودعاه وتلا عليه القرآن ؛ فكان منه الموقف الذي وصفته الآيات أقوى وصف منددة مقرّعة ، والذي انتهى به إلى القول بأن ما سمعه هو قول بشر لا وحي رباني ، وأن ما يبشر به النبي صلى الله عليه وسلم ليس إلا من نوع السحر المأثور الذي يخيل للمرء مالا حقيقة له .

وفي أواخر السورة جاءت الآيات التالية :

« فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ . بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ... ٤٩ ـ ٥٢

فاحتوت صورة طريفة وقوية لموقف من مواقف الجاحدين من الدعوة النبوية وأثرها فيهم ، فهم معرضون عن سماع الإنذار والدعوة إعراضاً كأنما يرون فيهما خطراً ، وهم في هذا أشبه بقطيع من الحمر الوحشية رأت سبعاً فامتلأت فزعاً وفرت لا تلوي على شيء . . . وقد احتوت الآية الأخيرة صورة أخرى فيها تحد تعجيزي للجاحدين، إذ كانوا يقولون : إنا لا نصدق مالم تنزل على كل منا صحف مكتوبة من السماء مؤيدة له ؛ وقد تكررت حكاية هذا التحدي أكثر من مرة مما يدل على أنه كان يتكرر من الجاحدين حيناً بعد حين . وسنعود إلى الموضوع مرة أخرى في مناسبة ثانية . لخطورته في مدى الرسالة المحمدية .

الصُّورة السَّابعة

ومن السور المجمع على تبكيرها بالنزول سورة المسد ، وقد جاءت الخامسة في أكثر التراتيب : وإذا كنا استبعدنا هذا في الفصل السابق ـ مبحث أوليات الوحي ـ فلسنا نستبعد أن تكون من السور المبكرة جدا ، وكل ماعنيناه أن يكون قد نزل قبلها وقبل

بواقي السور الأربع الأولى سور عدة في الدعوة وأهدافها . وهناك روايات معقولة تجعل احتمال نزولها مبكرة جداً ، مرجحاً .

ونص السورة هو هذا :

« تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ . وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ »

ويكاد يكون من المجمع عليه أن أبا لهب هو عم النبي صلى الله عليه وسلم وأن اسمه هو « عبد العزى » وأن امرأته هي أم جميل أخت أبي سفيان الزعيم الأموي المشهور . ولسنا ندري هل الكنية قرآنية إسلامية على سبيل التحقير ؟ أم أنها سابقة للسورة أو سابقة للبعثة ولقب نبزي ، وإن كنا نرجح الأمر الأول .

ومما يروى أن أبا لهب كان يمشي وراء النبي صلى الله عليه وسلم فكلما حدث النبي أحداً أتى إليه فقال له : لا تصدقه فإن فيه مساً ، أي جنوناً وأن أم جميل كانت تضع الأقذار في طريق النبي وأمام بيته الذي كان مجاوراً لبيت عمه ، وأنها كانت تشيع عنه الإشاعات المثيرة . وقد ذكرنا في مبحث أثر الوحي في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أنها أبدت شماتها حينما علمت بخبر فتور الوحي وأخذت تقول هازئة : إن ربه قد قلاه .

وآيات السورة شديدة قاصمة ، ولا بد أن يكون أبو لهب وامرأته قد استحقا بعمل أو موقف ماهذه اللعنة القرآنية الخالدة التي لم تسجل فيه لأحد بعينه دونهما .

ومن الغريب أن أكثر الرواة والمفسرين ، بل نكاد نقول جميعهم، رووا وقالوا : إن هذه السورة نزلت بمناسبة قول أبي لهب للنبي صلى الله عليه وسلم « تباً لك ! ألهذا دعوتنا ؟ » وذلك حينما نزلت آية الشعراء « وأنذر عشيرتك الأقربين » وجمع النبي بني هاشم ودعاهم وأنذرهم على ماسوف نذكره بعد ؛ هذا مع أن هذه الآية من سورة غير مبكرة ، وقد قال الرواة : إنها نزلت بعد ثلاث سنين من البعثة ، ومع أنهم قالوا : إن سورة المسد من أبكر مانزل من القرآن ، ومع أن ذلك القول معزو إلى أبي لهب

والسورة قد جمعت امرأته معه ، وهـذا مايحملنا نتوقف في الرواية المشهورة عن سبب نزول السورة .

ولقد ذكرت الروايات أن الصلات بين النبي صلى الله عليه وسلم وعمه قبل البعثة كانت حسنة ، وأن بيتيهما كانا متجاورين ، وأن ابنتي النبي كانتا مخطوبتين لابني عمه هذا ، وأن أبا لهب وامرأته قد حملا ولديهما على فسخ الخطبة بعد قيام النبي بدعوته ، فالذي يرد على البال وينسجم مع تبكير نزول السورة ومضمونها ومع هذه الروايات هو أن النبي صلى الله عليه وسلم اتصل بعمه في أول من اتصل بهم بعد نبوته ، ودعاه وأهله في أول من دعا ؛ بل لعله كان أول من اتصل به ودعاه بعد السيدة خديجة ، فهو عمه وجار بيته وصهره، ولعله كان يكثر من التردد عليه وقد انعقدت بينهما مودّة وعدم كلفة ، ومن المعقول أن يفاتحه قبل كل إنسان من غير أهل بيته وأن يفضي إليه بأمره وأن يطلب منه التصديق والتأييد وهو واثق كل الثقة بمقابلته بالحسنى والإجابة والاستبشار ، وبأنه واجد فيه العضد القوي والسند المتين ، لا سيما أنه كان طائل الثروة كما تصفه السورة ؛ ولـكنه لم يلبث أن خاب أمله فقوبل أسوأ مقابلة ، وكان من عمه وامرأته أشد موقف من الأذى والعناد والتعطيل وقطيعة الرحم ، وعمومة أبي لهب للنبي صلى الله عليه وسلم مما تزيد في أثر موقفه منه سوءاً وشدّة ، فموقف العم أشدّ من موقف الغريب البعيد في نفس النبي ، وتأثيره في سير الدعوة وعرقلتها أقوى من موقف الغريب البعيد كذلك في الناس لأنه يقوي حجتهم إذا هم انصرفوا عن إجابة الدعوة ووقفوا منها موقف المناوأة والعناد .

ونعت امرأة أبي لهب بحمالة الحطب تلهم ـ عندنا ـ أنها كانت تزيد نار المعارضـة لهيباً ، ولعل هذا يعني أنها كانت تنفخ روح العداوة في زوجها كلما رأت منه جنوحاً إلى التروي والفتور ، بسبب ما كان يربطه بالنبي صلى الله عليه وسلم من روابط العصبية وتقاليدها ، وليس بعيداً أن يكون تأثيرها عاملا في شذوذ هذا العم عن سائر أفراد عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم الأقربين الذين كانوا ينصرونه ويحمونه اندفاعاً بقوة العصبيـة بالرغم من أن أكثرهم أو بالأحرى جلهم لم يكونوا قد استجابوا إلى دعوته ، بل ظلوا كذلك

أمداً طويلا . وإذا صحت رواية أن أم جميل هي أخت أبي سفيان – ولم يرد مايشكك في ذلك فيما اطلعنا عليه – فلا يبعد أن يكون موقفها متأثراً بموقف أخيها الذي كان من أبرز الزعماء وذوي الشأن في قريش ، والذي كان لعائلته المكانة البارزة ، وظل يناوىء الدعوة طيلة العهد المكي وأكثر العهد المدني ، أي إلى فتح مكة ، مناوأة عنيفة ، ويقود أحياناً ويجهز أحيانا الجيوش التي كانت تشتبك مع المسلمين أو تغزو المدينة دار الهجرة النبوية .

وبناء على هذا التوجه الذي نرجو أن يكون وجيهاً يصح أن يقال إن سورة المسد تنطوي على الإشارة إلى مشهد من مشاهد الخطوات المبكرة الأولى ، وإلى موقف أليم شديد غير منتظر من مواقفها وكان له أثر عظيم في سيرها .

الصورة الثامنة

وسورة التكوير هي كذلك من السور المجمع على تبكيرها في النزول ؛ إذ كان ترتيبها السابعة في رواية والسادسة في أخرى . ونقول هنا ماقلناه في سورة المسد آنفاً ، فإن ترجيحنا نزول سور أخرى قبلها لا يعني عدم نزولها مبكرة ؛ على أن مضمونها يلهم بقوة أنها نزلت مبكرة جدا .

والسورة احتوت موضوعين مختلفين بعض الاختلاف : الأول الإنذار باليوم الآخر ومشاهده . والثاني وحي الله وملك الوحي وتوكيد رؤية النبي له وإلقائه القرآن إليه . وهذه هي آيات الموضوع الأول منهما ، أما آيات الموضوع الثاني فقد أوردناها في مبحث الوحي وأولياته من الفصل الأول :

« إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ . وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ . وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ . وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ . وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ . وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ . وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ . وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ . وَإِذَا

ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ . وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ . وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ . عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ... ١ – ١٤

وآيات الموضوع الأول إنذار عام لا عنف فيه ، وهذه الصفة التي رجحناها للأوليات القرآنية ؛ وآيات الموضوع الثاني هي التي تتصل بالبحث الذي نحن في صدده ، وتلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أخذ يخطو خطواته الأولى في سبيل الدعوة ، ويروي قصة رؤيته ملك الله ، ويؤكد تلقيه القرآن عنه ، قوبل بالشك والارتياب ممن اتصل بهم ودعاهم وذكر لهم أمره ، وأن بعضهم ظن الذي رآه واتصل به وألقى إليه هو شيطان من الجن على ما كان العرب يعتقدون باتصال شياطين الجن بالسحرة والكهان والشعراء وبصعودهم إلى السماء واستراق السمع منها على ماذكرناه في كتابنا الآنف الذكر ، فنزلت الآيات تؤكد صحة ما أخبر به ورواه بهذا الأسلوب القوي النافذ . أما تعبير « وما صاحبكم بمجنون » فالذي تلهمه الآيات أنه تدعيم للتوكيد ، وتنبيه للقائلين إلى حقيقة مايعرفونه عن النبي عليه السلام ورجاحة عقله .

واجتماع آيات الموضوعين في سورة قصيرة ، وما يلهمه طابع آيات الموضوع الأول من كونها من أوليات القرآن نزولا ، يدل على تبكير حدوث هذا المشهد ، لا سيما أن آيات الموضوع الثاني تلهم أنها في صدد موقف الجاحدين من أخبار النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى ملك الله في الأفق ، وهي الرؤية التي كانت عقب اتصال الوحي به في غار حراء لأول مرة . والجديد في المشهد هو ماتلهم الآيات من ظن السامعين أن الذي اتصل بالنبي شيطان ، في حين أن الصور السابقة تضمنت قولهم : إن القرآن قول بشر ، وإنه أساطير الأولين ، وإنه من نوع السحر وآثاره المأثورة ، وأشارت إلى تكذيبهم ومخادعتهم وتأليبهم ونهيهم النبي عن الصلاة والدعوة .

الصورة التاسعة

والسور التي استعرضنا بعض آياتها ـ وإن كانت على الأغلب في صدد حكاية مواقف الجاحدين والمكذبين ـ يتضمن بعضها ذكرا للمؤمنين والمتقين والمسلمين وأصحاب اليمين؛ كما ترى في الآيات التالية منها :

١ — إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ... القلم ٣٤ ـ ٣٦

٢ — وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ... المدثر ٣١

٣ — إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ . فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ . عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ... المدثر ٣٩ ـ ٤٢

وهذا يعني كما هو المتبادر أن الدعوة في هذا الدور لم تقابل بالصد البات الشامل . بل إنها استجيبت وآمن بها أناس ، وقام إلى النبي صلى الله عليه وسلم طبقة من المؤمنين مقابل ماقام في وجهه من طبقة الكافرين ، وإن كان يعني أن الطبقة الثانية هي الأكثر والأقوى، إذ شغل الحديث عنها جل آيات السور في حين لم يرد عن الأولى إلا إشارات استطرادية كالتي مر نقلها . على أنه يصح أن يدخل في نطاق الإشارات أيضاً آيات أخرى في سور مبكرة جدا في التنزل مثل :

١ — يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى . وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ... الفجر ٢٧ ـ ٣٠

٢ — وَٱلْعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ... سورة العصر

٣ ـ آيات سورة الليل ٤ ـ ٢١ التي نقلناها في مناسبة قريبة سابقة .

ومهما يكن من أمر فإن هذا مؤيد بما روته الروايات اليقينية من إيمان فريق من الناس في دور الخطوات الأولى ، فيهم طبقة من بيوتات قريش المعروفة أمثال أبي بكر وعثمان وسعد وسعيد وطلحة والزبير وأبي عبيدة وعبد الرحمن وأبي سلمة بالإضافة إلى خديجة وعليّ وجعفر ابني عمه وزيد متبناه ، وفاطمة بنت الخطاب وعبد الله بن مسعود ، وبالإضافة إلى بعض الكتابيين أمثال سلمان وصهيب، والأرقاء أمثال ياسر وزوجته وابنه عمار وبلال وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم ، من السابقين الأولين الذين كان جلهم من عمد الإسلام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعده .

الصّورة العاشرة

هذا ونرى فيما عرضناه من مشاهد هذا الدور كفاية ، كما أن الدعوة بعدها خرجت من دور الخطوات الأولى أيضاً .

وإذا كان لنا أن نلخص مشاهد هذا الدور أو نرسم له صورة عامّة فإننا نقول : إنه من ناحية ما يصح أن يطلق عليه دور الأشخاص ؛ فأول من تصدّى للنبي صلى الله عليه وسلم وحاول منعه من الصلاة والدعوة شخص معين ، كما أن آيات سورة القلم والمدثر والمسد قد حكت على الأكثر مواقف أشخاص ؛ هذا أولا ، وثانياً إنّ الأشخاص الذين حكت آيات هذه السور مواقفهم المضادة هم من ذوي الثروة والزعامة .

ويبدو من هذا وذاك ما يصح أن يكون طبيعيا من أن النبي قد بدأ اتصالاته بالأشخاص الذين توسم فيهم الإجابة بصورة عامّة ، ومن ذوي الثروة والزعامة من هذه الطبقة بصورة خاصة ، على أمل أن يضمن النجاح في ميدانهم ، النجاح في الميادين العامة أو الجمهورية .

ومن الجدير بالذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخب في هذا الميدان وإن كان نجاحه فيه ضيق المدى ، حيث استجاب له بعض أبناء البيوتات الرفيعة ، وكان من بينهم من هو غني كأبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم ؛ ولقد ظل هذا الضيق طابع العهد المكي بطوله ، حيث ظل أكثر الزعماء والأغنياء في جانب المعارضة والجحود .

وطبيعى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر في خطواته الأولى على الاتصال بذوي الزعامة والثراء . وروايات السيرة تذكر بدون خلاف أسماء كثيرة من أرقاء وفقراء وغير ذوي عصبية ؛ غير أنه يلاحظ أن النبي قد صرف أكبر همه وجهده إلى تلك الطبقة على ذلك الأمل الذي أشرنا إليه : ولعل في آيات سورة عبس الأولى ، والسورة من السور المبكرة في النزول ، ما يمكن أن يعد دليلا على هذا كما يبدو من نصها التالي :

« عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ . أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ . أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ... ١ ـ ١٠

والآيات تتضمن في حد ذاتها صوراً ومبادئ متصلة بالسيرة النبوية على جانب عظيم من الدلالة والمدى .

فمن ناحية تؤيد ما قلناه من اهتمام النبي «صلعم» وجهده لجذب طبقة الزعماء والأغنياء إلى دعوته من حيث إن ذلك ليسر لها الاستجابة العامة حتى إن حرصه على ذلك جعله يعبس في وجه الأعمى الذي جاءه مسترشدا مستهدياً .

ومن ناحية تفيد أن الزعيم الغني الذي تصدى له النبي «صلعم» وانهمك معه في الحديث والإقناع لم يكن من العنيفين بمناوأتهم وتكذيبهم .

ومن ناحية تفيد أن الرغبة الشديدة في الاستفادة والاستنارة والاسترشاد والتفقه

كانت من دوافع الطبقة التي آمنت بالنبي « صلعم » إلى الاستجابة إلى دعوته والانضواء إلى لوائه .

ومن ناحية تضمنت عتاباً للنبي «صلعم» على عبوسه في وجه الأعمى ينطوي فيه تلقين سلوكي رائع تجاه الذين انضووا إليه من هذه الطبقة بذلك الدافع ، وإيجاب الاهتمام لهم والعناية بهم ، وترجيحهم على الذين يترفعون عن الحق والدعوة إليه ويظهرون الغرور والاستغناء مهما علت مراكزهم . ولقد أعقب هذه الآيات الآيتان التاليتان :

« كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ... ١١ ـ ١٢

اللتان تضمنتا كما هو المتبادر توكيداً لذلك التلقين بأسلوب إيعازي وتقريري بأن دعوة النبي للناس إنما هي لتذكيرهم وبأنه ليس مكلفاً بالإلحاح عليهم إلى الدرجة التي تجعله يقف من المؤمنين الطالبين للاسترشاد والتفقه موقف العبوس والإهمال .

وفي سورتي الأنعام والكهف آيات تكررت فيها هذه التلقينات والصور في مناسبة حكاية مواقف أخرى لبعض الزعماء والأغنياء مما يدل على أن شدة الاهتمام لجذب الأغنياء والزعماء ظلت تعمل في نفس النبي صلوات الله عليه . حيث جاء في السورة الأولى هذه الآيات .

« وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ... الأنعام ٥١ ـ ٥٣

وحيث جاء في السورة الثانية هذه الآيات :

« وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ

وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا . وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... الخ
الكهف ٢٨ – ٢٩

ولقد روي في صدد الآيات أن بعض الزعماء طلبوا من النبي «صلعم» أن يطرد الفقراء والمساكين من مجلسه إذا دعاهم إليه أو أرادوا أن يجلسوا معه .

وفي آيات الأنعام ما يفيد صحة الرواية ويفيد بالإضافة إلى ذلك شدة استخفاف الزعماء بالمؤمنين من هذه الطبقة حيث كانوا يتساءلون تساؤل الساخر المستهزيء عما إذا كان الله اختص هؤلاء من دونهم بالهداية . . . والجملة التي تضمنت هذا التساؤل قد تدل على أن أكثر الذين استجابوا للنبي «صلعم» في هذا الدور أو كثيراً منهم كانوا من هذه الطبقة التي لم يكن لها ما يجعلها تفكر في الوقوف من الدعوة موقف المتحفظ أو المعارض أو الخائف على مركزه وثروته، وكان لها في الوقت نفسه من حسن النية والرغبة في الهدى ما جعلها تقبل على الاستجابة إليها . ولا سيما أن منها من كان مضطهداً من الزعماء والأغنياء، وأن الدعوة قد جاءت تبشر المنضوين إليها بالأمن والطمأنية والحرية والخير والبركات في الدنيا والآخرة . وفي هذا صورة من صور العهد المكي للمسلمين في دوره الأول كما هو واضح .

ولقد تضمنت آيات سورتي الأنعام والكهف من التلقين السلوكي الرائع . تجاه الفريقين ما تضمنته آيات سورة عبس . وبأسلوب أشد يفيد أن حرص النبي «صلعم» على جذب الزعماء كاد يجعله أن يستجيب إلى طلبهم ! حيث احتوت تنويهاً بهذه الطبقة وتلقيناً للنبي «صلعم» بوجوب الاهتمام لها وترضية نفسها وتطييب قلبها وعدم الاستماع للغائبين من الزعماء والأغنياء فيها .

وهكذا تبدو طبيعة الدعوة الإسلامية منذ بدئها عظيمة رائعة في حدبها على هذه الطبقة التي تتألف منها عادة أكثرية الجماهير وتحريرها ورفع مستواها . ولعل هذا

التشجيع كان من أقوى الدوافع على التحاق من تمكن من التفلت من أفرادها بالدعوة .
على أن هـذا ينبغي ألا يغطى ناحيـة رائعة من صور السيرة في عهدها المكي وهى استجابة عدد غير قليل من الأغنياء وأبناء الأسر القرشية إلى الدعوة استطاعوا أن يتفلتوا من تأثير التقاليد ، ومنهم من وقفوا موقفاً مناوئاً لمواقف آبائهم وأعمامهم وزعماء عشائرهم حين رأوا أعلام الحق الباهرة وأنواره الساطعة ولم يبالوا بما يمكن أن يتعرضوا له أو يصيروا إليه . ولعل هذه الصورة أقوى إشراقا من أختها الأولى .

المبحث الثاني

موقف زعماء مكة من النبي عليه السلام و بواعثه

وصف موقف زعماء مكة وأثره في عهد الدعوة المكي ـ بواعث موقف الزعماء ـ أثر ما كان للزعامة من دور في عصر النبي وبيئته أثر عصبية التقاليد في المجتمع العربي ـ أثر خوف زعماء مكة على امتيازاتهم وامتيازات مكة وإمامتها ومنافعها ـ أثر البعث والحساب والحملة على الزعماء والأغنياء ـ أثر طبيعة النبي البشرية .

الصورة الأولى

كان موقف زعماء مكة من النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته سلبيا ، بل وعدوانيا منذ الخطوات الأولى من العهد المكي كما رأينا في المبحث السابق ، وظل الأمر كذلك باستثناءات قليلة طيلة هذا العهد . وقد كان لهذا الموقف أثر كبير ، بل نكاد نقول كل الأثر في بقاء الإسلام ضعيفا في نطاقه وعدده وقوته وفيما لاقاه النبي والمسلمون من صعوبات ومشاق وأذى طيلة العهد الذي استمر ثلاثة عشر عاماً على أرجح الأقوال . ومما هو بسبيل تأييد صورة الإسلام والمسلمين هذه تذكر آية الأنفال المدنية المسلمين بما كانوا عليه إلى نهاية العهد كما ترى فيها :

« وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .

وجميع صور السيرة النبوية لهذا العهد وأحداثها ـ وخاصة بالنسبة للعرب غير الكتابيين ـ نكاد تكون متصلة بهذا الموقف أو متفرعة عنه . ويمثل هذا الموقف بصورة عامة آيات كثيرة من أصرحها وأهمها هذه الآيات :

١ — وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا

فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ... إبراهيم ٢١

٢ — وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ... النحل ٢٤ — ٢٥

٣ — يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا . وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا . . .[1]

الأحزاب ٦٦ — ٦٧

٤ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَاداً وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ . وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَـٰداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ... سبأ ٣١ — ٣٥

٥ — وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ ٱلنَّارِ ... غافر ٤٧

---

(١) هاتان الآيتان مدنيتان ، ولكنهما حكاية حال جمهور الكفار الذين يدخل كفار مكة في شمولهم إن لم يكونوا هم المقصودين بالذات ، على سبيل التنديد والعظة .

الصُّورة الثانية

ويبدو من إلهام الآيات القرآنية حيناً ومضامينها حيناً آخر ، أن هذا الموقف قد نشأ عن أسباب أصلية ، ثم امتزجت بأسباب أخرى متصلة بطبيعة الدعوة الإسلامية من جهة ونتيجة للتشاد الذي كان بين الزعماء والنبي صلى الله عليه وسلم وما كان من حملات متقابلة بسبيله من جهة أخرى ، وسعت الهوة ، وجعلت أكثر الزعماء يركبون رءوسهم ويعاندون في موقفهم عناداً لا هوادة فيه ، ويكابرون في المنطق والحقيقة ، ويتآمرون استكباراً وكيداً وانسياقاً بدافع الغرض والهوى واللجاج ، كما يبدو من الآيات الآتية :

١ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً ... الأنعام ١١٢

٢ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ... الحج ٧٢

٣ — وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً . وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلاً . وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُواً ... الكهف ٥٤ ـ ٥٦

٤ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ... الفرقان ٣١

٥ — أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً . . .

الفرقان ٤٣ ـ ٤٤

٦ — وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّازَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً . ٱسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ ... فاطر ٤٢ ـ ٤٣

٧ — وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... يس ١٠

٨ — وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهاً وَٰحِداً إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَاسَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْأَخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ . أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ... صٓ ٤ ـ ٨

٩ — وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ...
الزخرف ٣١

الصورة الثالثة

ولعل من أهم الأسباب الأصلية ما كان للزعامة من دور خطير في المجتمع العربي على ما نبهنا عليه في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ؛ حيث كان الزعماء وخاصة الزعماء الأغنياء ـ وكثيراً ما كان التلازم بين الغنى والزعامة في هذا المجتمع ـ يتمتعون بنفوذ السيادة : يأمرون فيطاعون ، ويدعون فيستجابون ، ويسنون فيتبعون ، وتكون لهم الكلمة الفاصلة في المشاكل والقضايا ، فلما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بدعوته، ويبلغ عن ربه ، ولم يكن بعد قد تجاوز سن الشباب كثيراً ، كما لم يكن بارزاً في مجال الزعامة ، بغتوا وعظم عليهم أن يكون هذا داعية يستجاب ، ومرشداً يهتدي به الناس ، ولواء ينضوون إليه دونهم ، وقد أريد أن يكونوا هم أنفسهم من المدعوين المستجيبين المنضوين إلى هذا اللواء أسوة بسائر الناس ؛ فاستنكروا الأمر واستكبروا وقالوا إنه لو كان حقاً لكانوا هم المنتدبين للدعوة ، والمكلفين بالمهمة ؛ لأن الناس إنما يستجيبون إليهم ، وتساءلوا

كيف ينزل عليه الذكر من بينهم .كما جاء في آيات ص والزخرف وفاطر ؟ وقالوا إننا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله كما جاء في آية الأنعام ١٢٣ التي نقلناها في بحث سابق ، وهزئوا بالنبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في آيتي الأنبياء والفرقان التاليتين :

١ — وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ... الأنبياء ٣٦

٢ — وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ... الفرقان ٤١

ويمكن أن يدخل في الأسباب من ناحية ويمتزج بطبيعة الدعوة الإسلامية من ناحية أخرى ، ما كان من قوة رسوخ عصبية التقاليد في المجتمع العربي على ما شرحناه في كتابنا الآنف الذكر ، وما استهدفته الدعوة من هدم كثير من تقاليد العرب الأصلية والفرعية أو تعديلها كالشرك على أنواعه ، والاستشفاع بالملائكة وعقيدة كونهم بنات الله ، وما شاب الشرك من وثنية مادية ، وكالعصبية الاجتماعية الضيقة وما كانت تتشدد فيه من حزبيات عائلية وقبلية[1] ، وتنجر إليه من إسراف في الدماء والترات ، وشؤون اليتامى والمرأة والرقيق ، والتحريم والتحليل في الأطعمة والأنعام إلى آخر مافصلناه في كتابنا المذكور ، إذ كانت هذه الأهداف مما احتوته السور والفصول القرآنية الأولى ثم استمرت بدون انقطاع ولا تراخ إلى آخر العهد ، كما يتضح ذلك من تلاوة السور على حسب تنزيلها مما لا نرى حاجة إلى التمثيل له لانبثاثه في أكثر السور ، فكان ذلك كله نقاط اصطدام وتشاد ، وبواعث مناوأة ومعارضة للدعوة النبوية منذ أول عهدها . وظلت كذلك إلى نهاية العهد . ويمثل هذه المواقف منهم بوجه عام آيات عدة وردت في سور مبكرة

(١) مما رواه المفسر ابن كثير في سياق تفسير آيات سورة الأنعام ٣٣ ـ ٣٦ أن أبا جهل قال: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . أطعموا فأطعمنا . وحملوا فحملنا . وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذا . والله لا نؤمن به ولا نصدقه) حيث ينطوي في هذا صورة من صور التنافس العائلي الذي كان من أسباب المناوأة للدعوة الإسلامية في العهد المكي .

ومتوسطة ومتأخرة في النزول ، مما يدل على تبكير المواقف واستمرارها ، نذكر منها الأمثلة الآتية :

١ — سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ... الأنعام ١٤٨

٢ — وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ... الأعراف ٢٨

٣ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ... النحل ٣٥

٤ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ... لقمان ٢١

٥ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ... سبأ ٤٣

٦ ـ آيات سورة ص ٤ ـ ٨ التي نقلناها منذ قليل .

وهذه العصبية ـ وإن كانت عامّة يستوي فيها الزعماء وغيرهم ـ كان الزعماء أحرص على الاستمساك بها والدفاع عنها كما تلهم الآيات التالية :

« بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ.وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ... الزخرف ٢٢ ـ ٢٣

وفي آيات سورة ص ٤ ـ ٨ مثل هذا الإلهام ؛ إذ حكت تحريض الشرفاء « الملأ » لسائر الناس على الاستمساك بما هم عليه ، وهذا بالإضافة إلى الآيات الأخرى التي حكت استمساك الكفار بما كان عليه الآباء والدفاع عنه ، وإنما يحكي في الحقيقة أقوال الزعماء ، لأنهم هم الذين كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم ويشادّونه ؛ وحرص الزعماء

على الاستمساك بالتقاليد والدفاع عنها أكثر من غيرهم متسق مع طبائع الأشياء ، لأن كيانهم مستمد من ذلك . وخاصة في مجتمع كالمجتمع العربي في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعصره .

الصّورة الرابعة

ولعل من أهم الأسباب التي نشأت من طبيعة الدعوة الإسلامية والتي تتصل بالتقاليد القائمة ، خوف الزعامة القرشية وأغنياء مكة معاً على ما كان لهم ولمكة من مركز ومنافع أدبية ومادية عظيمة بسبب وجود بيت الله في مكة وسدانتهم له ؛ فقد كان هذا البيت مثابة وأمناً لجميع العرب على اختلاف أديانهم وقبائلهم ، يؤمّونه من كل فج وصوب ، ويقيمون حوله أسواقهم . كما كانوا يعتبرون قريشاً إماماً لهم في الأمور الدينية والدنيوية ؛ وكانت هذه الإمامة تحفظ لهؤلاء عزة الجانب ووفرة الحرمة على مافصلنا في كتابنا المذكور آنفاً ؛ وكان ذلك الخوف ناشئا من أن نجاح الدعوة الجديدة سيكون سبباً لانصراف الناس عن مكة والحج ، أو تجهم العرب لمكة وأهلها، كما تلهم آية القصص التالية :

« وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ... ٥٧

ولم تبعث الفقرة الثانية في أنفسهم الطمأنينة على مايبدو ، فظلوا يرون في هذه الدعوة تهديداً لذلك المركز العظيم والمنافع الكبرى ، ويتشددون في معارضتها ومناوأتها .

ويمكن أن يدخل في الأسباب الناشئة عن طبيعة الدعوة الإسلامية ما أثاره فيهم الإنذار بالبعث والقيامة والوصف المسهب للحياة الأخروية الوارد في القرآن من عجب واستغراب ؛ لا سيما أن هذا لم يكن مما هو معروف بهذه الصراحة والإسهاب عند الأمم الكتابية التي كان لها أثر كبير في أفكار العرب ومعارفهم . ولعل هذا الموضوع من أهم مواضيع القرآن المكي الوسائلية والتدعيمية ومن أكثرها خيراً وسعة فيه ؛ وتوكيداً

وجدلا وتكذيباً وردّا وبرهنة وعظة وإنذاراً وتبشيراً ووعداً ووعيداً حوله ، حتى لا تكاد تخلو سورة من سوره منه ، مما يدل من دون ريب على أنه كان من أهم المواضع التي ثار حولها الجدل واللجاج والتشادّ بين النبي صلى الله عليه وسلم والعرب . ولقد حكى القرآن كثيراً مواقف العرب منه وأقوالهم فيه بأساليب متنوعة تدل على أن موقفهم منه كان موقف المستنكر حيناً والمدهوش حيناً والمكذب حيناً والمستهزئ حيناً والمتحدي حيناً ، منذ البدء إلى النهاية . ولا نرى حاجة إلى التمثيل ؛ لأن الآيات في ذلك كثيرة جداً ومبثوثة في جل السور المكية ؛ وقد يكون أثر هذا عاماً في الزعماء وغيرهم ؛ غير أن الآيات إنما كانت تمثل جدل المجادلين الذين هم الزعماء والنابهون ، وبالتالي فإن هؤلاء هم الذين تصدّوا لتكذيب اليوم الآخر ووقفوا من الإنذار به تلك المواقف في الدرجة الأولى .

ولعله مما يتصل بهذا أن يكون ما احتواه القرآن من نعي على الأغنياء والأقوياء والزعماء لكثرة تفاخرهم وتكاثرهم بالأموال والأولاد والأنصار والأحساب ، ومن إنذاره بأن هذا كله لن يجديهم في الآخرة نفعاً وأنهم محشورون إلى ربهم فيها مجردين عنه جميعه وليس معهم إلا عملهم كسائر الناس بدون أي فرق ، مما كان يثير في هذه الطبقة قوة المقاومة والعناد والصدّ استكباراً من جهة ، ولئلا يؤثر في سائر الطبقات فتفلت من يدها قيادتها من جهة أخرى ؛ وإليك بعض الآيات في هذا الصدد :

١ — وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ . وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ... الأنعام ٩٣ ـ ٩٤

٢ — وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا . ٱلْمَالُ

وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ...

الكهف ٤٥ ـ ٤٦

٣ — فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ . فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ...

المؤمنون ١٠١ ـ ١٠٣

٤ — وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ . وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ...

سبأ ٣٥ ـ ٣٨

« وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . ٱلَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ . نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ . ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ...

الهمزة

ولعل مما تكرر في القرآن من فصول المحاجة بين الزعماء والضعفاء في النار ـ مما أوردناه في الفقرة الأولى من هذا المبحث ـ ما أثار قوة العناد والصدّ في طبقة الزعماء أيضاً ؛ فما يصح أن يقال إن هذه الآيات قد استهدفت فيما استهدفته تنبيه السواد إلى أن اتباعهم الزعماء والكبراء في الكفر والتكذيب لن يغني عنهم يوم القيامة شيئاً مهما اعتذروا واحتجوا ، وأن الزعماء سيكونون في حالة عجز تام عن نصر أنفسهم فضلا عن نصرهم ؛ وفي هذا إثارة للسواد على الزعماء وتحريض على عصيانهم فيما يأمرونهم به من عدم الاستجابة إلى الدعوة ، كما فيه تهوين لشأنهم كما هو واضح . وفي سورة البقرة آيتان يتمثل فيهما هذا المعنى قويا نوردها ولو أنهما مدنيتان لاتصالها بالموضوع :

« إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ... ١٦٦ - ١٦٧

الصورة الخامسة

وقد كانت طبيعة النبي البشرية من أسباب هذا الموقف أيضاً ، وهذا متصل بأسباب طبيعة الدعوة الإسلامية كما هو واضح ، فقد تمنى العرب أو بالأحرى نابهوهم بعثة نبيّ فيهم حقا ، ولكنهم كانوا يتخيلون أن النبي لا بد أن يكون ذا قوى خارقة يفترق بها عن طبائع البشر ، ويستطيع أن يفعل بها مالا يفعله سائر الناس من خوارق العادات والمشاهد؛ ولعل ما كان يبلغهم عن الأنبياء ومعجزاتهم الخارقة وظروف نشأتهم وحياتهم مما كان يقوي صحة هذا التخيل فيهم ؛ فلما رأوا النبي مثلهم ومنهم ، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ويتعرض لكل مايتعرض له الناس بطباعهم البشرية ، وسمعوه يعلن بلسان القرآن أنه لا يعلم الغيب ، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا إلا ماشاء الله ، وأنه ليس إلا بشراً مثلهم ، وليس هو جنس آخر أو ملكاً ، وأنه يتبع ماأوحاه الله إليه ويقف عنده كما جاء في آيات عدة أوردناها في فصل الكتاب الأول ـ جحدوا دعوى نبوّته ، وكذبوا صلته بالله وملكه ، وقالوا إن من يتصل به شيطان ، ونعتوه بالمجنون حيناً والشاعر حيناً والساحر حيناً والكاهن حيناً والكاذب والمفتري حيناً والمتعلم المقتبس من الغير حيناً ، وظلوا يكرّرون هذا في مختلف أدوار العهد المكي ، كما يفهم من الآيات العدة التي أوردنا كثيراً منها في الفصل الأول أيضاً .

والآيات ـ وإن كان أكثرها يحكي حكاية مواقف الكفار عامّة بحيث يصح أن يقال إنه استوى فيها الزعماء وغير الزعماء ـ يتبادر منها إلى الذهن أن الزعماء هم الذين كانوا يتولون كبر المشادّة والجدل ، وبالتالي أن المواقف هي مواقفهم في الدرجة الأولى ، وأنهم قد اتخذوا طبيعة النبي البشرية وسيلة لصدّ السواد عن دعوته كما كانت عاملا من

عوامل جحودهم بالذات ؛ وفي آية في سورة الأنبيـاء يبدو هـذا واضحاً جليا كما ترى فيها :

« لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ... ٣

إذ تصف جحود الزعماء أنفسهم وتحكي قولهم للسواد : إن النبي ليس إلا بشراً وإنّ ماجاء به ليس إلا سحراً .

المبحث الثالث

مشاهد وصور متنوّعة بين النبي والزعماء

ومنها صور المساومات بينهم وبينه بين الشدة والاعتدال

غرض هذا المبحث ـ إفراد مشاهد التحدي والأذى بمبحثين خاصين ـ المشاهد والصور هي مشاهد وصور الزعماء في الدرجة الأولى ـ الصور والمشاهد العنيفة ـ الإشارة إلى مشاهد وسور العلق والقلم والمدثر والمسد التي أوردناها في مبحث الخطوات الأولى ـ مشاهد من سور الهمزة ـ القمر ـ ص ـ يس ـ الفرقان ـ الأنعام ـ الصافات ـ لقمان ـ سبأ ـ الزمر ـ الزخرف ـ الجاثية ـ النحل ـ إبراهيم ـ الأنبياء ـ المؤمنون ـ الروم ـ العنكبوت ـ الحج ـ الأنفال ـ العداء الخاص الذي تشبع به بعض زعماء الكفار للنبي وأثره ـ الصور والمشاهد التي تنم عن اعتدال أصحابها : مشاهد من سور القلم ـ التكوير ـ الكافرون الفرقان ـ القصص ـ الإسراء ـ يونس ـ الأنعام ـ الزخرف ـ الكهف ـ تناقض هذه المشاهد بعد الثلث الثاني من العهد المكي وسببه ـ مواقف ومشاهد عامة متنوعة أخرى من سور النجم ـ والصافات ـ الأعراف ـ لقمان ـ المؤمنون ـ النمل ـ فاطر ـ الأنعام ـ يونس ـ فصل طويل في سورة الأنعام عن مشهد حجاجي في صدد تقاليد العرب في المحرمات ـ لفت نظر إلى التشابه بين القصص القرآنية وآيات وفصول المواقف والمشاهد بين النبي والكفار في مكة ومداه .

الصّورة الأولى

قلنا في التمهيد لهذا القسم : إن في القرآن صوراً متنوعة ومتقابلة تتراوح بين الشدّة والاعتدال ، وردت في ظروف متقاربة ومختلف أدوار العهد المكي . ونريد الآن أن نستعرض الآيات التي تتضمن هذه الصور، إذ تساعد على فهم سير أدوار وأحداث السيرة النبوية في هذا العهد .

وننبه إلى أن هناك صوراً عدة لمشاهد التحدي ، وأخرى لمشاهد محنة الأذى والفتنة ونتائجها ، رأينا أن نفرد لها مبحثين خاصين نظراً لخطورة شأنها وبعد مداها في السيرة

والدعوة ، ولو كانت في الحقيقة مما يدخل في نطاق مشاهد وصور الجدل والماراة والمكابرة والعنف والشدّة .

ولقد رأينا في المبحث السابق أن الزعماء كانوا هم الطرف الرئيسي المقابل في مواقف العهد المكي ـ وأنهم كانوا المتولين كبر الصد وقيادة حملة المقاومة والمعارضة والتكذيب والجدل . وسنرى في الصور التي سنستعرض آياتها مصداق ذلك بارزاً ؛ إذ هي في الحقيقة صور ومشاهد ومواقف الزعماء ؛ سواء منها العنيفة والمعتدلة ؛ إذ كان منهم العنيف البذيء القاسي الذي تبرز فيه صفات الكبر والأنانية والشدّة والمكابرة ، وكان منهم الهادئ المعتدل الذي يجنح إلى الجدل والحجاج المعتدل والذي يبدو أن تمسكه بكفره ناتج عن غفلة أو عصبية أو حياء أو خشية عدوان وفوات منفعة ... الخ .

الصّورة الثانيَة

وفيما يلي صور للمشاهد والمواقف العنيفة . ونلفت النظر إلى أننا رتبنا الصور على حسب ترتيب السور في النزول ، حتى يرى القارئ أن المواقف كانت تحدث في مختلف أدوار العهد المكي منذ العهد الباكر إلى النهاية ، كذلك ننبه إلى أننا أوردنا الآيات التي تبرز فيها الصور بقوة ووضوح ، وإلى أن في القرآن آيات كثيرة أخرى تمت إلى هذا الباب لم نوردها اكتفاء بما أوردناه .

(١) أوردنا في مبحث الخطوات الأولى آيات العلق ٦ ـ ١٩ والقلم ١٠ ـ ١٦ والمدثر ١١ ـ ١٩ و ٤٩ ـ ٥٢ وسورة المسد وشرحنا ملهماتها ؛ وفيهما أبكر صور عنيفة لمواقف بعض الزعماء ، وأبكر حملات عنيفة قرآنية مقابلة لها . لذلك رأينا أن نشير إليها هنا لتكون الحلقات الأولى في سلسلة هذا البحث .

(٢) إن سورة الهمزة التي أوردنا نصها في المبحث السابق تتضمن حملة شديدة على الذين اعتادوا غمز الناس وعيبهم من الأغنياء ؛ والراجح أنها نزلت بمناسبة مواقف مماثلة بدت من أشخاص من أغنياء الكفار ؛ ولعلهم كانوا يلمزون النبي والمسلمين الأولين

الذين كانت أكثريتهم من الفقراء والأرقاء ، معتدّين بثرواتهم وقوّتهم ، والحملة الشديدة التي تضمنتها السورة تدل على أن هـذه المواقف كانت شديدة الأثر والوقع فاستحق أصحابها هذه الحملة بالمقابلة .

(٣) في سورة القمر الآيات الآتية :

« أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ . إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ . وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ... ٤٣ ـ ٥١

والخطاب موجه إلى كفار قريش تعقيباً على سلسلة قصص الأمم السابقة ، وما كان من تنكيل الله بها . وفي الآيات ترديد لما كان زعماء قريش يعتزون به من الكثرة ، ونعتهم بالمجرمين ؛ والحملة الإنذارية الشديدة عليهم من دلائل أن الآيات موجهة إلى أناس من الزعماء بسبب مواقف عنيفة وقفوها من الدعوة ، أضاعوا فيها صوابهم ، واعتدّوا فيها بقوّتهم وجبروتهم كما تلهم نصوص بعضها .

(٤) في مطلع سورة ص الآيات التالية :

« صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْأَخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا اخْتِلَـٰقٌ . أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ . أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ

ٱلْوَهَّابِ. أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ . جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ... ١ – ١١

والآيات تحكي موقفاً تكذيبيا شديد العناد لزعماء الكفار ، وتحريضاً منهم للعامة على التكذيب والتمسك بدين الآباء وآلهتهم ، وترديداً لما كانوا يتبجحون به من العزة والقوة ولاستخفافهم بالنبي وتساؤلهم عن مدى صدق اختصاصه بالقرآن من دونهم. وقد تضمنت الآيات حملة شديدة عليهم وتهكماً بدعاواهم وتبجحاتهم بالمقابلة .

(٥) في سورة يس الآيات التالية :

« لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ [١] . وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... ٧ – ١٠

وقد تضمنت وصف شدّة العناد والمكابرة التي كان عليها الكفار بحيث لا يفيدهم إنذار ولا وعيد. والصورة مما يدخل في نطاق مواقف الكفار العنيفة الشديدة في المكابرة والإعراض كما هو واضح .

(٦) في سورة الفرقان الآيات التالية :

« وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ

---

(١) رافعو رءوسهم لا يستطيعون تحريكها من شدة الأغلال .

يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَّسْحُوراً . ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ... ٣ ـ ٩

والآيات تتضمن حكاية مواقف تكذيب واتهام وتحدّ من الكفار متصلة بما كانوا يتخيلونه من شخصية النبي وبما كان موقفهم منه حينما رأوه على غير ماتخيلوه ذا طبيعة بشرية . والآية الأولى تمهيد ساخر لاذع منهم ، فهم يتهمون ويعترضون في حين يستخفون إلى درجة اتخاذ آلهة عاجزين كل العجز . ولا يستبعد أن تكون هذه الآيات بمثابة تعليق أو تعقيب على موقف جدل وحجاج ومكابرة بين بعض زعماء الكفار والنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ احتوت على شيء من الحوار .

(٧) في سورة الأنعام الآيات التالية :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللهِ ٱللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ... ١٢٣ ـ ١٢٤

والآيات بسبيل وصف الزعماء المجرمين وما كانوا منهمكين فيه من مؤامرات ومكر ضدّ النبي ودعوته وحمله عليهم . وفيها وصف لشدّة مكابرتهم وعنادهم واستكبارهم ، أو لعله وصف لموقف مكابرة وتحدّ تجلت فيه هذه الصفات الذميمة قالوا فيه إنهم لن يؤمنوا إلا إذا خاطبهم الله مباشرة كما يخاطب رسله ونزل عليهم آيات كما ينزلها على رسله .

(٨) في سورة الصافات الآيات التالية :

« إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ . رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ . إِنَّا

زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ . لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ . بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ . وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ . قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ . وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ . هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ . ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ . وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ . قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ . قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ . فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ . فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ . بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ . إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . . .

٤ — ٣٩

تضمنت هذه الآيات صورا لمواقف جحود وتكذيب وتحدّ وسخرية واستكبار وقفها الكفار ، واتهامات بالشعر والسحر والجنون اتهموا بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنكار للحياة الآخرية ، كما تضمنت مقابلة قرآنية وإنذارية عنيفة وساخرة ولاذعة ؛ وفيها حوار عن لسان حالهم في الآخرة وتعاتبهم وتحسرهم على ماقدمت

أيديهم في الدنيا . وهو جزء من المقابلة القرآنيـة .

وقد ذكرت المواقف وجاءت المقابلة بأسلوبين مختلفين : أحدهما وجاهي وثانيهما لسان حال تذكيري ، ولكنهما متصلان اتصالا وثيقاً كما يبـدو منهما . والسلسلة من المجموعات المهمة التي احتوت وصف مواقف وحالات وصور متنوعـة فيها عنف وشدّة .

(٩) في سورة لقمان الآيات التالية :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... ٦ — ٧

والآيتان بسبيل وصف موقف عناد واستكبار وتهويش وتشويش وصد لبعض زعماء الكفار تجاه النبي والقرآن ؛ وقد تضمنت مقابلة إنذارية عنيفة تتسق مع صور الموقف .

(١٠) في سورة سبأ الآيات التالية :

١ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ... ٧ — ٨

٢ — وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ... ٢٩ — ٣١

٣ — وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَـٰداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ

وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا . . .

٣٥ ـ ٣٧

٤ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ . وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ . قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ...   ٤٣ ـ ٤٩

وفي الآيات الأولى وصف موقف شديد عنيد بتكذيب الحياة الأخرى ، ودعاية تهويشية بين الناس ضد النبي صلى الله عليه وسلم بسبب إنذاره بها ؛ وواضح أنه موقف لطغاة الزعماء . وقد تضمنت ردا إنذاريا بالمقابلة ، واستمر الرد في الآيات التي تلتها أيضاً .

وفي الآيات الثانية حكاية تساؤل ساخر واستنكاري من قبل الكفار عن وقت تحقيق وعد البعث والعذاب ، وإعلانهم التصميم على الجحود بالقرآن وغيره من الكتب السماوية . والموقف موقف عناد شديد كما هو واضح ، وقد أمرت الآيات النبي صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بتوكيد مجيء ميعادهم المحتوم ، كما تضمنت بقية الآية ٣١ والآيات ٣٢ ـ ٣٣ التي نقلناها في مناسبة سابقة حكاية حالهم حينما يبعثون وكيف يعاتب بعضهم بعضاً وكيف كان الزعماء يؤلبون العامة في الليل والنهار على الجحود ، وما سيلقونه من عقاب رهيب على سبيل الرد والإنذار . والمقطع الذي أثبتناه قد يلهم أنه ترديد لموقف

حجاج مواجه كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الكفار .

وحكاية قول الكفار إنهم لن يؤمنوا بالذي بين يدي القرآن ، أي الكتب السماوية السابقة أيضاً ، في حين أنهم كانوا يثقون في الكتابيين ويطالبون النبي بمثل ماجاء به موسى والأنبياء الآخرون على ما أوردنا آياته — قد تلهم أن موقف الكتابيين التصديقي في مكة واستشهاد القرآن بهم وحسن شهادتهم — مما سوف نشرحه في فصل الكتابيين التالي — قد أثار غيظ الزعماء وحنقهم ؛ وفي هذا صورة لما كان من أثر إيمان الكتابيين في زعماء كفار قريش ، وبالتالي صورة من صور السيرة النبوية الطريفة ؛ ولقد جاء في آية من سورة القصص مايلهم أن زعماء الكفار كانوا يلومون الكتابيين على مواقفهم هذه وهي :

« وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ... ٥٥

وهو يدعم صحة الصورة التي اقتبسناها .

والآيات الثالثة : تلهم كذلك أنها ترديد لموقف حجاج مواجه تبجح فيه بعض أغنياء الزعماء بكثرة أموالهم وأولادهم ، وبحصانتهم من العذاب بسبب ذلك ، وهو موقف عناد واستكبار وغرور كما هو واضح ؛ وقد رد عليهم القرآن مفنداً لدعواهم .

والآيات الرابعة : تصف موقف جحود شديد للزعماء ، فيه تهويش على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه اتهام بذيء . وقد توعدهم القرآن بالنكال الذي أصاب من هو أقوى منهم ، ثم أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بتوجيه رد خطابي إليهم ، فيه حجة دامغة وفيه عظة وفيه تقرير قوي للحق الذي جاء به . والآية ٤٦ التي احتوت العظة عظيمة المغزى ، إذ يطلب منهم فيها أن يتفكروا منفردين أو اثنين اثنين أو مرة بعد أخرى بعيدين عن التهويش والعناد ، ويلاحظوا مايعرفونه من بعد النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنون والخرق والغلو والمطمع الخاص ؛ وحينئذ يبين لهم الحق واضحاً ، وإذ يدل هذا الطلب على أن

تهويش المهوشين الشديدي العناد والاستكبار من الزعماء هو الذي كان يسيطر على الموقف ويجر غيرهم إليه دون أن يجدوا مجالا للمخالفة ؛ والآية في الوقت نفسه رد قوى على التهويش ؛ فالأمر يجب أن يفكر فيه مجرداً عن الهوى والعناد بعيداً عن التهويش ؛ ولعل فيها خطاباً للناس أو المعتدلين الذين يتأثرون بالمهوشين ولا يجدون مجالا للتفكير الحر المجرد . وعلى كل حال فمما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم صدع بالأمر ووجه هذا الخطاب القوى الدامغ النافذ إلى الجاحدين متكبريهم ومعتدليهم وزعمائهم وسوادهم على السواء .

(١١) في سورة الزمر الآيات التالية :

« أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي ٱنتِقَامٍ . وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ . قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . . .

٣٦ ـ ٤٠

وقد ذكر المفسرون أن الكفار كانوا يخوفون النبي من انتقام آلهتهم أو شركائهم، أو ينتظرون انتقامهم منه ، فنزلت الآيات ، ومضمونها يتسق مع هذا القول . وفيها رد لاذع على الكفار وسخرية بشركائهم الذين يخوفونه بهم وإنذار لهم بسوء المصير ،وإعلان بأن الله كافيه وكافله ، وهي بجملتها ترديد لموقف حجاج وجدل بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الكفار العنيدين المكابرين .

(١٢) في سورة الزخرف الآيات التالية :

« وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ . وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ

هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . . .

٣٠ ـ ٣٢

والآيات تتضمن وصف حنق الزعماء المتكبرين من نبوة النبي بالذات ، لأنها لم تكن نصيب أحدهم في مكة أو الطائف ، مما ساقهم إلى الجحود والصد ، وهو تكرار للموقف الذي وصفته آيات سورة فاطر ٤٢ ـ ٤٣ وسورة الأنعام ١٢٣ ـ ١٢٤ التي تقدم شرحها ؛ ويدل هذا التكرار على أن هؤلاء الزعماء ظلوا يبدون غيظهم واستخفافهم بالنبي مرة بعد مرة. وقد سفهت الآية الأخيرة أحلامهم بقوة لاذعة ؛ فالنبوة رحمة من الله لا يؤتاها إلا مستحقها ، وليست نوعاً من التفاضل الدنيوي بين الناس والذي هو ناموس عمراني ليس غير ، واختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بها يجعله في قدره وعظمته خيراً وأسمى من زعاماتهم وأموالهم . .

(١٣) في سورة الجاثية الآيات التالية :

١ ــ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ... ٧ ـ ١١

٢ ــ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَقَالُوا۟ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟

بِئَابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ... ٢٣ ـ ٢٧

وفي الآيات الأولى وصف لمواقف شديدة العناد والعنف كان يقفها الكفار ، إذ كانوا يصرون على الكفر والاستكبار ويتخذون ما يسمعونه من آيات القرآن موضوع سخرية واستهزاء ، وقد احتوت الآيات حملة إنذارية شديدة تتناسب مع أصحاب الموقف الموصوف الذين وصفوا بالأفاكين الآثمين .

والآيات الثانية بسبيل التعقيب على موقف من مواقف المكابرة والتكذيب واللجاج والتحدي ، وقفه بعض الكفار من الدعوة والإنذار بالحياة الأخروية كما يبدو من مضمونها ، وكان الغرض والهوى هو المؤثر الأقوى فيه حتى لم يعد أمل في هدايتهم ؛ والتحدي بالإتيان بالآباء إزاء الإنذار بالبعث الذي احتوته الآيات قد تكررت حكايته عنهم ، مما يدل على أنهم كانوا يكررونه في المواقف مرة بعد أخرى ، كما أن الصيغة تدل على أن هذا القول كان يوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مواجهة كلما تلا ما فيه إنذار بالحياة الأخروية .

(١٤) في سورة النحل الآيات التالية :

« إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ... ٢٢ ـ ٢٥

والآيات تتضمن وصف مواقف الزعماء المستكبرين الذين كانوا يكررون القول

عن القرآن كلما تلا النبي منه شيئاً بأنه أساطير الأولين وقصصهم ، كما تتضمن الإشارة إلى ما كان من أثرهم في إضلال الناس الغافلين والحيولولة دون استجابتهم إلى دعوة الحق .

(١٥) في سورة إبراهيم الآيات التالية :

١ — ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ... ٢ — ٣

٢ — وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ . وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ . . . ٤٤ — ٤٧

والآيات الأولى تتضمن وصفاً لشدة موقف الزعماء الجحودي وانهماكهم بالدنيا وما كانوا يبذلون من سعي في صد الناس عن الدعوة وعرقلتها .

والآيات الثانية تصف ما كان يبيته الزعماء من مكر ويحيكونه من دسائس ومكايد في سبيل عرقلة الدعوة وتنذرهم إنذاراً قاصماً . ووصف مكرهم وآثاره قوي جدا ، يدل على أنهم جعلوا الدعوة وعرقلتها وصد الناس عنها والتأليب والتهويش عليها أكبرهمهم. وهذا من دون ريب سبب بقائها في نطاقها الضيق ؛ كما أن فيه صورة لما لقيه النبي والمسلمون من شدة ومحنة وأذى .

(١٦) في سورة الأنبياء الآيات التالية :

١ — ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن

رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ . قَٰلَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ . مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ . وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ...

١ ـ ٨

٢ — وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ . خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ . وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ...

٣٦ ـ ٤١

والآيات الأولى تتضمن وصف موقف جحود وتصامّ للزعماء ، وحكاية لاجتماعهم السرية بسبيل المكر والكيد للدعوة ؛ إذ كانوا يهوشون على الناس فيها مشيرين إلى بشرية النبي المماثلة لبشريتهم ، وأن ذلك غير منطبق على صفة « النبوة » كما يتخيلونها ، وأن ما يأتي به وينذر به من قبيل السحر الذي لا يليق بعقولهم أن ينخدعوا به ، أو من أضغاث الأحلام ، وأن ما يتلوه من القرآن هو من قبيل الشعر ، وإلا فليأت بالخوارق والمعجزات إن كان صادقاً كما فعل الأنبياء من قبله ؛ وقد ردت عليهم الآيات منذرة بالهلاك من جهة ومستشهدة بأهل الكتب السماوية على أن أنبياءهم كانوا رجالا

مثله يأكلون الطعام وغير خالدين . ومن المحتمل أن تكون الآيات ترديداً أو تعقيباً على موقف حجاج مواجه بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الزعماء أيضاً ، بالإضافة إلى ما فيه من إشارة إلى الاجتماعات السرية التهويشية ؛ وعلى كل حال ؛ فالآيات تتضمن صورة أو بالأحرى صوراً لشدة عناد الزعماء ومكابراتهم ومكايدهم ومساعيهم للحيلولة دون نجاح الدعوة والاستجابة إليها كما هو واضح .

والآيات الثانية تحكي كذلك موقفاً استخفافيا لزعماء الكفار ، فيه تحد للنبي وسخرية به ؛ وخاصة في أسلوب تساؤلهم عن تحقيق موعد ما ينذرهم به ؛ وقد قابلتهم الآيات بإنذار شديد بالنكال الدنيوي والأخروي متناسب مع موقف جحودهم العنيد الساخر. ويبدو من مضمون الآيات أن هذا الموقف مما كان يتكرر ومما كان يقع مواجهة .

(١٧) في سورة المؤمنون الآيات التالية :

١ — فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ... ٥٤ — ٥٦

٢ — بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ . حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ . قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ . أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ... ٦٣ — ٧٠

وفي الآيات الأولى تسفيه لما يظنه الأغنياء من أن ما هم فيه من نعمة دليل على عناية الله بهم ؛ ويبدوا أن هذا مما كانوا يحاجون به ويتبجحون في سبيل الزراية على المسلمين .

وفي الآيات الثانية حملة إنذارية وتسفيهية معاً على الكفار ، إذ كانوا ينكصون على أعقابهم استكباراً كلما سمعوا النبي يتلو آيات القرآن ، ويهجرونه كأنما هو قصص ؛ في حين أنهم يعرفون أن ما أتى به ليس بدعاً ، وأنه غير نكرة في عقله وأخلاقه ، ولا يصح أن يتهم بجنون .

(١٨) في سورة الروم الآيات التالية :

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ . كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ . . .

٥٨ ـ ٦٠

وفي الآيات صورة لمواقف العناد والمكابرة التي كان يقابل بها الكفار آيات القرآن مع ما احتواه من ضروب الأمثال والوعظ ، كما فيها تصبير للنبي وطمأنة له بوعد الله الحق . والآية الأخرى تدل على أن مواقف العناد والمكر قد اشتدت حتى أخذت تصل إلى الإحراج ، فأمر الله نبيه بالصبر والثبات . وسورة الروم من أواخر ما نزل من القرآن ، ومعلوم أن مكر الكفار وكيدهم قد أخذ يشتدّ في آخر العهد المكي ؛ فمن المحتمل أن يكون النبي أخذ يفكر في الخروج من مكة قبل الأوان المناسب فصبر وثبت . ولعل هـذا الظرف هو ظرف خروجه إلى الطائف ، أو ظرف اتصاله بوفود يثرب على ماسوف نذكره بعد .

(١٩) في سورة العنكبوت الآيات التالية :

« قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ

بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ من فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ... ٥٢ — ٥٥

وفي الآيات صورة لموقف تكرر من الكفار ، وهو تحديهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب الموعود تحدي الجاحد الساخر ، وإنذار توكيدي لهم . والإلحاح الذي حكته الآيات عنهم في استعجال العذاب يزيد الصورة قوة وعنفاً . والسورة من أواخر ما نزل من القرآن حين اشتدّ ضغط زعماء الكفار وكيدهم ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يشتدّ في إنذارهم بعذاب الله ونكاله فقابلوه بهذا الإلحاح الساخر .

(٢٠) في سورة « المطففون » الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ . فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ . هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . . .

٢٩ — ٣٦

والآيات تضمنت وصفاً لمواقف الكفار من المسلمين ، إذ كانوا يسخرون ويضحكون منهم ويتغامزون عليهم وينعتونهم بالضالين المفتونين ؛ وقد تضمنت تسلية للمسلمين . فسينقلب الأمر يوم القيامة ويكون دور السخرية والضحك لهم على الكفار الذين سينالون جزاء عملهم .

الصورة الثالثة

(٢١) في سورة الحج بضعة مقاطع عديدة تحتوي صوراً لمواقف عناد الكفار الشديدة . وهذه السورة لم ترد في تراتيب نزول السور المكية ، لأن أكثر الروايات

على أنها مدنية . وقد أشرنا إلى الترجيح بأن أكثر فصولها مكية . وعلى كل حال فالمقاطع المذكورة تحتوي صوراً عن كفار وظروف العهد المكي فيما نعتقد . وإليك المقاطع أولا :

١ — وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٍ مَّرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ... ٣ ـ ٤

٢ — وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ . ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ... ٨ ـ ٩

٣ — وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنًا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٌۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ . وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـًٔا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ . مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ... ٧١ ـ ٧٤

وفي المقطع الأول وصف لفريق من الكفار دأبه الجدل في الله ، وهو جاهل ولكنه يستمع لوساوس الشياطين البغاة الذين يضلون الناس ولا يهدونهم إلا إلى النار . ويبدو من خلال الآيات دور الزعماء وأثره في إضلال الناس حتى كان منه أن انسجم بعض الناس الذين أضلوهم في رعايتهم وصاروا مثلهم يجادلون في الله .

وفي المقطع الثاني وصف لفريق آخر يجادل في الله كذلك بدون سند من علم

ولا كتاب ، وقد اعتدّ بنفسه وكان يثني عطفه خيلاء واستكباراً عن سماع كلام الله ، ويسعى في إضلال الناس وصدّهم عن الدعوة .

وفي المقطع الثالث تسفيه الكفار على عبادتهم دون الله غير مستندين في ذلك إلى علم أووحي رباني ، ووصف لمواقف بعض زعمائهم حينما كانوا يسمعون النبي يتلو من آيات القرآن ، إذ كانت تبدو على وجوههم علامات الغيظ والشر حتى ليهمون بالبطش به . وقد احتوت الآيات أولا جواباً عنيفاً قذف في وجوههم ؛ إذ هتف أن موعدهم النار وبئس المصير ؛ وثانياً تنديداً لاذعاً حيث أمر النبي بإعلانهم جهرة : أن ما يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو ظاهر بعضهم بعضاً ، وأن الذباب الذي هو أعجز الهوام لو سلبهم شيئاً لعجزوا عن استنقاذه منه والآيات تلهم أنها ترديد أو تعقيب لموقف مواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الزعماء العنيدين العنيفين .

١٢ ـ وفي سورة الأنفال الآيات التالية :

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . .

٣٠ ـ ٣٢

وسورة الأنفال مدنية ؛ وقد قيل إن الآيات مكية ، وقد رجحنا مدنيتها وكونها بسبيل التذكير . وعلى كل حال فموضوعها من صور العهد المكي وظروفه حتما . والآية الأولى تدل على أن حنق الكفار قد اشتدّ على النبي إلى درجة أنهم أخذوا يتآمرون على قتله أو حبسه أو نفيه ، مما سوف نتكلم عنه في مبحث محنة الأذى والفتنة ، أما الآيتان الأخريان ففيهما صورة لموقف شديد الجحود والسخرية كان يقفه بعض الكفار أو بالأحرى زعماؤهم حينما كان النبي يتلو القرآن ، إذ كانوا يستخفون ويقولون : إننا

لو أردنا أن نقول كما يقول لفعلنا وإن ما يقوله ليس إلا من قصص الأولين ومدوناتهم ، ثم يتبعون هذا بتحديهم هذا التحدّي الساخر الذي حكته الآية الثالثة ، ويعلنون به جحودهم القاطع لنبوّة النبي صلى الله عليه وسلم . ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا : إن تذكير النبي والمسلمين بهذه المواقف في العهد المدني يلهم أنها من أشدّ المواقف نكاية وشدّة ووقعاً عليهم. ولعل هذا يتضح خاصة بالنسبة للمؤامرة التي أشارت إليها الآية الأولى ؛ لأنها كانت السبب المباشر لخروج النبي من مكة مسقط رأسه ومهبط وحي الله عليه .

الصّورة الرابعة

هذا ؛ ونختم الكلام في هذا الموضوع بآيتين في سورتي الأنعام والفرقان لهما مغزى خاص ؛ وهما هاتان :

١ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً ... الأنعام ١١٢

٢ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ... الفرقان ٣١

فهاتان الآيتان وإن كانتا بسبيل بيان طبيعة بشرية عامة تجاه الأنبياء جميعهم من جهة ، وبقصد تسلية النبي فيما كان يلقاه من الصدّ والمناوأة من جهة أخرى ، فإنهما تلهمان أن فريقاً من الزعماء قد تشبعوا بالعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ورسالته لأسباب عدة : كالأنانية والاستكبار والحنق من اختصاصه بالرسالة دونهم ، ولا يبعد أن يكون منها التنافس العائلي ؛ وأن عداءهم هذا هو الذي كان يجعلهم يصمون آذانهم عن الحق مهما كان دامغاً ويغمضون أعينهم عن الحقيقة مهما كانت ساطعة النور ، ويسكتون ضمائرهم عن الارعواء مهما كان الصوت المنبه قويا ؛ وهو الذي كان يحدوهم إلى نشاطهم العظيم في الصد والمناوأة والتعطيل وعقد الاجتماعات ووضع خطط الدعاية والإزعاج والتعجيز والتحدّي والتهويش ، فكان لذلك الأثر الأكبر فيما لقي النبي

والمسلمون من شدّة وعنت وعنف ، وفي بقاء الدعوة في العهد المكي في نطاق ضيق محفوف بالأخطار .

الصورة الخامسة

وهناك آيات تذكر ما ألم بأهل مكة من عذاب رباني، فرأينا أن نوردها هنا ونورد ما روي في سياقها؛ لأن ذلك نتيجة من نتائج مواقف الزعماء العنيفة . وفيه في الوقت نفسه صورة خطيرة من صور السيرة في العهد المكي .

وهذه هي الآيات حسب ترتيب نزول سورها :

١ — فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ . إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ... الدخان ١٠ ــ ١٦

وقد روى البخاري ومسلم والترمذي في سياق تفسير هذه الآيات حديثا عن ابن مسعود جاء فيه (إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلاّ الدخان أو يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان من الجهد . فجاءوا إلى رسول الله فقالوا له : استسق الله لمضر فإنها قد هلكت فاستسقي لهم فسقوا فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنذرهم الله بالبطشة الكبرى وكانت يوم بدر)[1] .

٢ — وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

---

(١) انظر التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج ٤ ص ٢٠٦

وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ . . .

النحل ١١٢ ـ ١١٣

والمفسرون متفقون على أن القرية هي مكة وأن في الآيتين تذكيراً بما أصاب أهلها من جوع وقحط بسبب ظلمهم وتكذيبهم لرسولهم .

٣ — وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ . وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ . حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ... المؤمنون ٧٥ ـ ٧٧

وقد قال المفسرون : إن في الآيات إشارة إلى القحط والجوع الذي أصاب أهل مكة وما كان من عودتهم إلى الطغيان بعد أن رحمهم الله وكشف عنهم الضر وإنذاراً بعذاب أشد .

٤ — وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ...

السجدة ٢١

وقد قال المفسرون: إن في الآية توكيداً للإنذار السابق بأن الله سيرسل عليهم عذابا دنيويا قبل العذاب الأخروي .

والسور الأربع مما نزل في النصف الثاني من العهد المكي : وواضح من الروايات وفيها ما هو صحيح ومن روايات البخاري ومسلم والترمذي أن النبي «صلعم» اشتد غيظه من قريش نتيجة لاستمرارهم على عنادهم ومناوأتهم العنيفة فدعا عليهم فاستجاب الله دعاءه وأصابهم القحط والجوع . فهرعوا إليه يطلبون منه الرأفة ، وظن أو رجا أن يكونوا قد ارعووا فدعا الله فكشف عنهم ولكنهم لم يلبثوا أن استمروا على موقفهم فأنذرهم الله مرة بعد مرة وكانت البطشة الكبرى في بدر حيث قتل معظم صناديدهم فكان في ذلك معجزة قرآنية .

الصورة السادسة

وفيما يلي صور للمشاهد والمواقف التي تنم عن اعتدال أصحابها ؛ وقد رتبنا آيات السور حسب ترتيب نزولها أيضاً ليرى القارئ أن المواقف المعتدلة كانت كتلك تحدث في مختلف أدوار العهد منذ أوله . و ننبه هنا إلى ما نبهنا إليه في القسم السابق من أننا اكتفينا بإيراد الآيات التي تبرز فيها الصور بوضوح دون غيرها مما يمت إلى الباب نفسه .

(١) في سورة القلم التي هي من أبكر السور نزولا : جاءت هاتان الآيتان :

« فَلاَ تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ . وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ... ٨ ـ ٩

وفيهما إشارة صريحة إلى أن بعض الجاحدين لما جاء به النبي كانوا يودون أن يساير في مبادئ الدعوة فيقابلوه بالمثل ؛ وقد أمرته الآية الأولى بعدم الاستماع لمطلبهم . وبقطع النظر عن مدى المسايرة التي كانوا يطلبونها من النبي ومدى استعدادهم للمقابلة؛ فإن المتبادر أن يكون هؤلاء من الفريق المعتدل غير العنيف في جحوده ومواقفه من النبي ؛ إذ كان يبحث عن حل وسط يقترب كل طرف من الطرفين إليه شيئاً ؛ وهكذا يصح أن يقال: إن هذا النوع من الزعماء قد أخذ يبرز منذ الخطوات الأولى للدعوة ؛ ولهذا مغزى غير يسير في صور السيرة النبوية .

(٢) ولقد نقلنا في مناسبة سابقة آيات التكوير ١٥ ـ ٢٩ ؛ والمتمعن في أسلوبها يجد فيه هدوءاً وخطاباً موجهاً إلى العقل والقلب ، وقصداً إلى الإقناع ؛ مما يلهم أن الذين وجه إليهم هم من الفريق المعتدل الذي لم يبد منه عنف في التكذيب أو الارتياب والآيات مثل تلك من أبكر ما نزل من القرآن ، وهي متصلة بما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من اتصال وحي الله به ورؤيته للملك في أفق السماء لأول مرة على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

(٣) في سورة الممتحنة آيتان جاءتا بقصد تحديد موقف المسلمين من الكفار ، وهما:

« لاَّ يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ

أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ... ٨ ـ ٩

والآيتان تشريعيتان كما هو ظاهر . وقد ذكر رواة أسباب النزول أنهما نزلتا في مناسبة قدوم زائرة من كفار مكة من أقارب إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، فتحرجت الزوجة من قراها حتى يأذن لها النبي ، فنزلتا .

والمناسبة محتملة الوقوع ، غير أن روح الآيتين والآيات السابقة لها منذ مطلع السورة ، تلهم بقوة أنهما أوسع شمولا من حادث الزائرة ؛ بحيث يصح أن يقال بشيء من الجزم : إنه كان في مكة طبقة من الكفار لم يعنف أفرادها في عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والدعوة الإسلامية ، ولم يشتركوا في الأذى والتآمر ولم يظاهروا عليهما ؛ والآيتان قد نزلتا في عهد متأخر بعد الهجرة ، وبتعبير آخر بعد صلح الحديبية وبين يدي فتح مكة ، وهذا قد يعني أن تلك الطبقة قد ظلت ثابتة في موقفها المعتدل الحيادي أو البار بشكل ما أيضا . وفي هذا كله صورة من صور مواقف الكفار من الدعوة الإسلامية متسقة مع طبائع الأشياء ، ومع الفصول القرآنية المتعددة التي أوردناها في هذا القسم .

(٤) ويتجلى في نص سورة « الكافرون » الهدوء الخطابي أيضاً كما يرى فيه :

« قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ . لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ » .

وقد روى المفسرون أنها نزلت بمناسبة مراجعة الزعماء للنبي صلى الله عليه وسلم وطلبهم التبادل في عبادة الآلهة وتكريمها ، فيصلي لآلهتهم ويكرّمها ، ويصلون هم لله ويعلنون تعظيمه . وليس في الآيات ما لا يتسق مع الرواية إجمالا . ولعل فيها ما يفسر ما أرادته آية القلم : « ودوا لو تدهن فيدهنون » . وعلى كل حال فالمستلهم من صيغة

وأسلوب الخطاب ويستأنس من الرواية أن الذين راجعوا النبي هم من الفريق المعتدل الذي يجنح إلى المفاوضة والمناقشة والتوفيق بدون عنف .

(٥) في سورة الفرقان الآيات التالية :

« وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً . قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ... ٥٦ ـ ٥٧

والآية الأولى بسبيل تقرير مهمة النبي، فليس هو إلا مبشراً ونذيراً وداعياً ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ؛ وهذا مما تكرّر كثيراً في القرآن بأساليب ومناسبات متنوعة . وفيه من جهة تسلية للنبي على ما كان يلقاه من جحود الأكثرية الساحقة ، كما فيه من جهة أخرى إعلان للناس أن النبي ليس مكلفاً بإجبارهم على الاستجابة ؛ وفي هذا صورة من صور الملاينة الخطابية أو التكليف الحر كما هو المتبادر مما يمت إلى الموضوع الذي نحن فيه ببعض الصلة . والآية الثانية مما يدعم هذا المعنى ، إذ يؤمر النبي بها بأن يعلن الناس أنه لا ينتظر منهم أجراً وليس له مطمع ، وقصارى دعوته وجهده أن يرعووا فيرجعوا إلى الله ويسيروا في سبيله ؛ وأسلوبها يلهم أنها موجهة إلى أناس غير عنيفين في تكذيبهم وجحودهم وعدائهم .

ومضمون الآية الثانية أيضاً قد تكرّر مرات عديدة . ولقد ذكرت الروايات أن بعض زعماء قريش جاءوا إلى أبي طالب ، أو بعثوا إليه أحدهم وطلبوا منه التوسط إلى ابن أخيه حتى لا يستمر في تسفيههم ، وعرضوا عليه فيما عرضوا أن يغدقوا عليه المال حتى يجعلوه أغناهم إذا أراد ، وأن أبا طالب عرض الأمر على النبي صلى الله عليه وسلم فأبى قائلا : إنهم لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بشمالي لما عدت عما أدعو إليه من رسالة ربي ؛ ولا نستبعد أن تكون هذه الآية بسبيل الرد على هذا العرض ، وإعلان أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتوخى جزاء ولا يضمر مطمعاً فيما حمله من رسالة ربه ، وأن الآيات ظلت تردّد هذا الرد بين حين وآخر ؛ ومن المعقول ألّا تكون هذه

المراجعات التي يمكن أن تلهم صحة وقوعها إجمالا هذه الآية وأمثالها إلا من فريق يودّ حسم الأمر بالتي هي أحسن ، دون أن يتفاقم ، وبعبارة ثانية من فريق معتدل من الزعماء أو بإلحاح هذا الفريق .

(٦) في سورة القصص آيتان ؛ أولاهما هي هذه :

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ... ٥٦

ومع احتمال أن تكون الآية بسبيل تسلية النبي ـ وفي القرآن آيات كثيرة تهدف إلى ذلك ـ فإنها صريحة الإلهام أيضاً بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على اهتداء بعض الناس وانحيازهم إلى صف المسلمين بصورة خاصة ، وأنه كان يحز في نفسه ألاّ ينجح في ذلك ؛ وقد تلهم كلمة « أحببت » أن هؤلاء ممن كان بينهم وبين النبي مودة أو صداقة قبل البعثة .

وقد قال المفسرون والرواة: إنها نزلت في عم النبي صلى الله عليه وسلم أبي طالب حينما أصر على التمسك بدين آبائه عند وفاته ، والآية نزلت مبكرة نوعاً ما على الأرجح ، في حين أن أبا طالب توفي في أواخر العهد ؛ ولهذا فالنفس لا تطمئن إلى رواية نزولها عند وفاته ؛ وهذا لا يمنع أن تكون نزلت في عمه ، فمما لا شك فيه أن النبي كان يعرض عليه الإسلام من آن لآخر فيأبى ، فيحز ذلك في نفسه إذ كان شديد الحرص على هدايته شديد الحب له ؛ كما أن من الممكن أن يكون هناك غير أبي طالب أيضاً من المحببين إلى النبي صلى الله عليه وسلم والذين كان يتوسم فيهم الخير ، ولم يكونوا في موقف عنيف منه ، وكان يحرص على هداهم ويراجعهم من آن لآخر فيأبون خشية الرأي العام وبقوة عصبية التقليد . ولعل من الصواب أن يسلك أقارب النبي صلى الله عليه وسلم الأدنون ـ الذين كان أكثرهم ينتصرون له ويمتنع الناس عن أذاه خشية منهم ، والذين ظل أكثرهم متمسكين بدين الآباء في العهد المكي وفيهم عمه العباس وعمه أبو طالب ـ

في هذا المسلك ، ومهما يكن من أمر فالآية تدل على أنه كان بين الجاحدين زعماء وغير زعماء : أناس معتدلون محببون إلى النبي وبينه وبينهم صلات حسنة ، يتمنى بصورة خاصة أن يهتدوا ولكنهم كانوا يأبون .

أما الآية الثانية فهي هذه :

« وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... ٥٧

وقد روى المفسرون أنها نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل أحد نابهي قريش ؛ إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن الذي تقول : الحق ، ولكنا إن تابعناك أخرجتنا العرب من مكة ، ولسنا أكثر من أكلة رأس . والرواية متسقة إجمالا مع مضمون الآية ، غير أن حكاية القول جاءت بصيغة الجمع ، الأمر الذي قد يلهم أن هذا لم يكن رأي شخص خاص وإنما هو تعبير عن رأي الكثيرين من زعماء مكة ونبهائها ، ومجيء الآية عقب الآية السابقة قد يلهم أن الآيتين متصلتان في المناسبة لا سيما أنهما ليستا مختلفتين في المدى ، فقد يكون القول الذي حكته هذه الآية هو ما كان يعتذر به أولئك الأشخاص المحببون إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذين كان يحرص على هداهم بصورة خاصة .

ومهما يكن من أمر فالآية تلهم أن أصحاب القول المحكي ، من الفريق المعتدل الذي يجنح إلى الاعتذار الهادئ ولا يعنف في الرد والتكذيب والجحود .

(٧) في سورة الإسراء الآيات التاليه :

« وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا . إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا . . .

٧٣ — ٧٥

وتتضمن الآيات مشهداً خطيراً من مشاهد العهد المكي ، ومضمونها وروحها يلهمان أن الطرف الثاني في المشهد هم زعماء معتدلون ممن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر الاتصال بهم ويتوسم الاستجابة منهم وأنهم عرضوا عليه بعض العروض حتى يتابعوه ويتخذوه صديقاً لهم وخليلا ، وأنه خطر بباله أن يتساهل بعض التساهل معهم حرصاً على هداهم ، ولكن الله عصمه؛ لأن فيما طلبوه شيئاً من الشذوذ عما أوحى الله إليه من أسس الدعوة .

وقد روى المفسرون والرواة في صدد الآيات عدّة روايات ، منها أن فريقاً من الكفار اقترح على النبي أن يسكت عن شتم آلهتهم وتحقيرها ، ومنها أن الاقتراح هو التساهل في الإبقاء على تقاليدهم مدّة من الزمن ، ومنها أن الاقتراح هو السماح لهم بتكريم آلهتهم بعض التكريم ، ومنها أن الا قتراح هو إلمام النبي بآلهتهم -أصنامهم- ولمسها كما يفعل بالحجر الأسود .

ومن هذه الروايات أنه جرى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى صلواته في فناء الكعبة مع المسلمين بقوة إلحاح المعتدلين من الزعماء الكفار ووعودهم بالاستجابة وفي أثناء تلاوته سورة النجم ـ بعض فقرات ليست منها ـ حيث قال بعد آيات « أفرءيتم اللٰت والعزى . ومَنوٰةَ الثالثة الأخرى » هذه المقاطع : « تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى » ؛ فلما سجد:سجد الكفار معه وقالوا إن محمداً ذكر آلهتنا بالخير ، وأن هذا الخبر انتشر حتى وصل إلى المهاجرين في الحبشة على صورة مكبرة وهي : أن أهل مكة استجابوا للدعوة وصلوا مع النبي فعاد كثير منهم إلى مكة .

وقد فند كثير من المفسرين وكتاب السيرة الرواية الأخيرة ، وبينوا ما فيها من علل ، وقرروا أنها افتراء على النبي صلى الله عليه وسلم دسه بعض أعداء الإسلام . ومنهم من قال إن هذه المقاطع قالها الكفار رداً على النبي حينما تلا آيات النجم وذكر آلهتهم بالتسفيه والتسخيف ؛ بل منهم من قال إن الشيطان هو الذي تفوه بهذه المقاطع في معرض

الرد والدس ، أو إن الشيطان هو الذي ألقاها على لسان النبي ، وإن آيات سورة الحج ٥٢ ـ ٥٤ هي متصلة بهذا المعنى .

وروح الآيات وصيغتها وظروف نزولها تثبت من الوجهة الجدلية عدم انطباقها على أية رواية من روايات وأقوال حكاية الغرانيق ، كما أن آيات سورة الحج غير متصلة بالمرة بها كما يأتي الكلام عليها في مناسبة أخرى ؛ والرواية تشير إلى أن النبي قد قال قولا ، في حين أن الآيات تقول إنه كاد ، أي لم يقع منه قول أو فعل ؛ وسياق آيات النجم لا يمكن أن يحتمل استطراداً من هذا القبيل ، لأنه مصبوب على تسفيه الكفار ؛ وسورة الإسراء نزلت قبل منتصف العهد ولم يكن المهاجرون إلى الحبشة قد هاجروا إليها بعد ؛ هذا إلى أن النبي والمسلمين كانوا في انزعاج دائم ، وكان الضعفاء منهم في أشد أدوار محنة الأذى ، فلم يكن من الممكن أن يقيموا الصلاة جهرة في فناء الكعبة . . .

وكل ما تلهمه الآيات ما قلناه في شرحها ، وهو عرض بعض المعتدلين بعض اقتراحات تساهلية ، وميل النبي إلى الجنوح إلى شيء من التساهل حرصاً على هدايتهم ، ولكن الأمر لم يتعد الخاطر إلى الفعل ؛ ولا نستبعد أن يكون الاقتراح بعض ماذكرته الروايات التي أشرنا إليها . وهكذا يتكرر هذا المشهد الذي بدأ في أوائل البعثة فنزلت به آيات القلم : « فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » . وتكراره يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ما فتئ يبدي حرصه الشديد على كسب فريق من الزعماء لدعوته حتى ليعتلج في نفسه أن لو سايرهم شيئا ما ؛ لأن بقاء الزعماء بعيدين عنها ومعارضين لها هو الذي أبقاها في نطاقها الضيق الحرج ، كما يدل أيضا على أن الفريق المعتدل من زعماء الجاحدين كان لا يفتأ يبحث عن وسيلة إلى حل وسط يقرب بين النبي والجاحدين ؛ غير أنه لم يكن ليحصل ؛ لأن في الحل الوسط شائبة من الشرك ومساومة في دين الله الحق ، وإنما أرسل الله رسوله لمحاربة الشرك بكل أنواعه ، وليكون الدين كله لله ، وليحق الحق حتى لا يبدئ الباطل ولا يعيد : فكان أن ثبت رسوله في الموقف الذي لا يحتمل مساومة ولا تعدداً .

وجملة « لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » بنوع خاص تدل بقوة وصراحة على أن ما خطر بباله من الجنوح للتساهل قد كان شيئا غير مهم ، مما يصح أن يوصف بأنه إنما كان اجتهاداً فيه خلاف الأولى الذي في علم الله وحسب .

ولقد جاء في آخر سورة القصص الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَٰفِرِينَ . وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ... (١) ٨٥ - ٨٨

وسورة القصص تأتي في الترتيب قبل سورة الإسراء مباشرة ؛ ويلمح في الآيات شيء مما جاء في آيات سورة الإسراء بصراحة أكثر ؛ إذ احتوت أمراً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يشهد الله على المهتدي من الضال ، وتنبيهاً له بألاّ يظاهر ولا يواد الكافرين ، وبألّا يدعهم يصدونه عما أنزل الله إليه ؛ وبألاّ يأتي بأي شيء فيه أي معنى من معاني إشراك أحد غير الله مع الله ؛ ويلهم هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يختلج في نفسه مسايرة الزعماء شيئاً ما رغبة في كسبهم إلى صفه ؛ ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء من الفئة المعتدلة التي كان لا يرى منها عنفاً في الصد والمعارضة ويتوسم فيها الارعواء .

---

(١) لقد ذكر بعض الرواة عن ابن عباس رضي الله عنه أن هذه الآيات نزلت في الجحفة في طريق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وأن في الآية الأولى جواباً على ما اعتلج في صدره من حرقة من جراء خروجه من مكة ، في حين روى بعض الرواة عن ابن عباس أيضاً رواية مغايرة لهذه الرواية في صدد الآيات ؛ وهذا التغاير يسوغ التوقف كما هو المتبادر . هذا بالإضافة إلى أن مضمون الآيات يسوغ ترجيح صرفها إلى موقف حجاج ومشهد مساجلة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الكفار وتثبيت للنبي فيه .

وتكرر الإشارات إلى هذا النوع من المشاهد ؛ قد يدل على أن مفاوضات الزعماء المعتدلين ومساجلاتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم كانت تتكرر من حين إلى آخر .

(٨) في سورة يونس الآيات التالية :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ . وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ... ١٥ ـ ١٨

والآيات تتضمن حكاية موقف طلب وحجاج مواجه بين النبي وبعض الكفار ، وقد روى المفسرون أن الطلب المحكي في الآية الأولى : هو قرآن لا يحتوي تسفيه أحلامهم وتسخيف عقائدهم وتقاليدهم .

ومهما يكن من أمر فأسلوب الآية هادئ يلهم بقوة أن الذين طلبوا واعتذروا وأمر النبي بمساجلتهم واعتذارهم ، هم من الفريق المعتدل الذي يجنح إلى النقاش بدون عنف وقوة . . .

(٩) في سورة الأنعام الآية التالية :

« وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ... ١٠٩

والخطاب في « يشعركم » هو للنبي والمسلمين ويلهم أن من المسلمين من كان يتمنى

أن يستجيب الله طلب الكفار فيظهر لهم معجزة فلا يبقى لهم مجال للاعتذار فيسلموا فتنتصر الدعوة .

والذي نرجحه أن هذا لا يعقل أن يكون إلا من طرف أناس معتدلين ، كان الاتصال بينهم وبين المسلمين قائماً ، وكان موقفهم يبعث فى نفوس هؤلاء أملا بارعوائهم وانضمامهم إليهم .

وفي هذا الذي تلهم الآية صورة للحالة في بعض أدوار العهد المكي ، إذ كان المسلمون على صلة مع الفريق المعتدل من الكفار ، وكان الفريقان يتحاجان ويتناظران في أمر الدعوة ، وكان المسلمون يبذلون جهدهم فى إقناع الكفار ويحرصون كل الحرص على كسبهم ، وكان هؤلاء يعتذرون بالأعذار المتنوعة ، ومن جملتها أنهم كانوا يحلفون لهم بأنهم سيؤمنون إذا ما رأوا معجزة مؤيدة لنبوة النبي .

ولقد جاءت بعد قليل هذه الآية :

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ . . . ١١١

وتلهم روحها أنها بسبيل إقناع المسلمين وبالتالي تدعم ما ذكرناه آنفاً .

وفي سورة الرعد الآية التالية كذلك :

« وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ[1] بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ

(١) في الكلام جملة مضمرة تقديرها « لما آمن الجاحدون » على اعتبار أن الإيمان إنما يكون عن انشراح صدر ورغبة ، وأن المطالب التعجيزية لا تصدر عن أصحاب النية الحسنة .

وَعْدَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ... ٣١

وتلهم روحها وصيغتها أن الجاحدين كرروا للمسلمين توكيدهم وتحديهم ، وأن هؤلاء كرروا رغبتهم وأمنيتهم .

(١٠) في سورة سبأ الآيات التالية :

١ — « قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ... ٢٤ ـ ٢٦

٢ — قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ . قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ... ٤٦ ـ ٥٠

ومجموعتا الآيات تتضمن أوامر ربانية للنبي بمناقشة الكفار ومساجلتهم في الحديث. والأسلوب هادئ يلهم أن الطرف الثاني في الموقف هو من الفريق المعتدل الذي لا يعنف عند الاستماع والدعوة .

والآية (٤٦) من المجموعة الثانية لافتة للنظر . فهي موجهة إلى هذا الفريق لتدعوه إلى التفكير الهادئ الذي يكون فيما بين الواحد منهم ونفسه أو ضميره أو فيما بين اثنين فقط بعيد عن الصخب والتشويش اللذين يكونان نتيجة للتقاش في الاجتماعات العامة وحينئذ يتبين له صدق دعوة النبي وكونه ليس مجنونا وإنما هو مشفق عليهم من عذاب الله ومنذر به . ولا مطمع له عندهم بأجر . ولعل في هذا صورة من صور المناوأة التي كان الزعماء العنيفون يعمدون إليها حيث كانوا على ماهو المتبادر من نص الآية وروحها

يعقدون الاجتماعات العامة للدعاية ضد النبي والتشويش على دعوته ويغلبون بذلك الفريق المعتدل على أمره فاقتضت حكمة التنزيل توجيه الخطاب إلى هـذا الفريق بهذا الأسلوب القوي النافذ إلى القلب والعقل معاً .

والصورة المذكورة قد أشير إليها بصراحة في إحدى آيات هذه السورة وهي :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَاداً وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... ٣٣

(١١) في سورة الزخرف الآيات التالية :

« أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَٰكُم بِٱلْبَنِينَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ. وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثاً أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ . وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰباً مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ... ١٦ – ٢٢

والآيات تتضمن تنديداً بعقائد المشركين ، وحكاية لأقوالهم واعتذاراتهم ؛ وتلهم أنها ترديد أو تعقيب على موقف حجاج مواجه بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والأسلوب هادئ وفيه حكاية أخذهم وردّهم مع النبي اعتذاراً وتقريراً ، مما يلهم أن هذا الموقف إنما كان مع الفريق المعتدل الذي يجنح إلى الأخذ والرد والاعتذار ولا يعنف ويقسو في الجحود والتكذيب .

(١٢) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ

وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلاً لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... ٥٧ ـ ٥٩

وقد تضمنت الآيات تعقيباً على مشهد من مشاهد الجدل بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار. فقد سبقها آية تنفي أن يكون الله قد جعل من دونه آلهة تعبد كما ترى في هذه الآية :

« وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ... ٤٥

فقالوا ـ على ماتلهم الآيات ـ كيف هذا والنصارى أهل كتاب وأنبياء ويعبدون المسيح ؟ ثم استطردوا إلى ادّعاء أفضلية عقيدتهم بنوة الملائكة لله وعبادتهم إياهم على عقيدة النصارى بنوة المسيح لله وعبادتهم إياه ؛ والراجح أنهم بنوا هذا التفضيل على أساس أن الملائكة أقرب مماثلة لله من المسيح الذي هو إنسان له طبائع البشر ، وقد ردّت الآية عليهم بأن عقيدة بنوة المسيح وعبادته باطلتان عند الله ، ثم تبع الآيات آيات أخرى بما كان من رسالة عيسى لقومه وبأن الانحراف إنما كان من عند أنفسهم كما ترى فيها :

« وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ... ٦٣ ـ ٦٥

والمهم هنا بالنسبة لبحثنا هو أن الجدل من النوع الهادئ الذي يلهم أنه إنما كان مع الفريق المعتدل الذي يجنح إلى البحث والنقاش في حدود مايظنه المنطق .

(١٣) في سورة الكهف الآيات التالية :

« وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن

ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . . .

٢٨ _ ٣٠

والآيات تأمر النبي بالصبر على صحبة المسلمين المخلصين مهما كان أمرهم ، وبعدم الانصراف عنهم للاهتمام لأصحاب الجاه والمال ، وعدم الاستماع لهؤلاء ، وما قد يقترحون، وبإعلان أن الحق الإلهي واضح جلي ، فمن شاء الخير لنفسه آمن ومن شاء الشر لنفسه كفر ؛ وللمؤمنين الأجر العادل من الله .

وقد ذكرت الروايات في نزول الآيات أن بعض زعماء الكفار كانوا يستطيلون على الفقراء والمساكين من المسلمين بعدم الاستجابة إلى دعوة النبي ويعيرونه بهم ، ويطلبون منه إقصاءهم عنه إذا ماجلسوا إليه أو جلس إليهم ؛ وأن النبي خطر لباله الاستجابة إلى طلبهم أملا بإسلامهم ، وأنه أخذ فعلا يتشاغل عن تلك الطبقة أحياناً وخاصة حينما يتحدث إلى الزعماء في أمر الدعوة انسياقاً وراء هذا الأمل .

وليس في الرواية مالا يتسق إجمالا مع مضمون ومدى الآية الأولى كما هو المتبادر . والمرجح أن الزعماء المحكي عنهم هم من الفريق المعتدل الذي لم تنقطع الصلة بينه وبين النبي والذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوسم فيهم الاستجابة ، والمشهد من المشاهد الخطيرة في العهد المكي كما هو ظاهر .

وفي سورة الأنعام التي نزلت قبل سورة الكهف آيتان يمكن أن يكون فيهما مشهد مماثل ، وإن كانت آية الكهف أشد إيضاحا له ، وهما :

« وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ . وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ... ٥٢ ــ ٥٣

إذ احتوت أمراً للنبي بعدم طرد أصحابه المؤمنين الذين هم على الغالب أولئك الفقراء والمساكين، وحكاية سخرية الزعماء بهم ؛ وينطوي في الأمر إلهام أن النبي صلى الله عليه وسلم قد هم أن يفعل ذلك ليخلي مجلسه لأولئك الزعماء .

وآيات سورة عبس ١ ــ ١٢ التي نقلناها في مناسبة سابقة احتوت مشهداً مماثلا أيضاً.

وتكرار الإشارة إلى هذا في القرآن يدل على ماهو المتبادر على تكرر المشهد بين حين وآخر ، وعلى ما كان يعتلج في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من الحرص الشديدعلى إسلام الفريق المعتدل من الزعماء على الأقل ، لأن الزعماء جميعهم على اختلافهم في الشدّة والاعتدال كانوا القدوة للناس ، وكانوا المؤثر الأقوى في بقاء الدعوة في نطاقها الضيق ومركزها الحرج .

الصورة السابعة

هذا ؛ ونلاحظ أولا أن الصور التي اقتبسناها للمواقف الهادئة والمعتدلة هي أقل بكثير من الصور العنيفة ، وثانياً أن سورة الكهف التي كانت آخر السور مقتبساً في مشاهد هذا القسم ليست من أواخر السور نزولا ، إذ يجيء بعدها سبع عشرة سورة ، منها ثلاث طويلة نوعاً وثلاث متوسطة نوعاً ؛ وأنه لم يبد لنا مشهد بارز طرفه معتدلون في السور التي بعد الكهف في ترتيب النزول . وقد نبهنا على هذا التمهيد إذ قلنا إن طابع الاعتدال والهدوء يضعف فيما تضمنته سور القرآن الأخيرة من مشاهد في حين أن طابع العنف والشدّة يستمر ملحوظاً في جميع السور إلى آخرها نزولا .

ويمكن أن يقال في تعليل هذا إن استمرار الزعماء الطغاة في غلوائهم الذي كان من نتيجته اضطرار عدد كبير من المسلمين إلى الجلاء عن مكة إلى الحبشة ، والذي كان

من نتيجته كذلك ارتداد بعض المسلمين عن دينهم على ماسوف نذكره بعد ـ قد أثر تأثيراً شديداً في سير الدعوة أولا ، وفي الفريق المعتدل حتى انجرف في العداء والصد ، أو انكمش أكثر من ذي قبل عن الاتصال بالنبي والمسلمين ثانياً ؛ فلم تعد السور التي نزلت في الثلث الأخير من العهد المكي تردد مواقف ومشاهد طرفها الثاني معتدلون ، وانحصرت مضامين هذه السور في ترديد مشاهد الشدّة والعنف ، والتنديد بالكفار وإنذارهم بسوء المصير ، وتصبير النبي والمسلمين والتنويه بهم ووعدهم بالنصر والتأييد وحسن العاقبة ، ممايستفاد من السور المذكورة حين إنعام النظر في فصولها ؛ وقد استعرضنا أمثلة كثيرة منها في القسم الأول .

الصّورة الثامنة

وهناك فصول وآيات مكية عدة احتوت حملات على عقائد العرب وتقاليدهم ، ومكابراتهم ومواقفهم الجحودية بصورة مطلقة ، واصطبغ بعضها بصبغة الجدل حيناً ، والتحدي حيناً ، والتسفيه والتنديد والسخرية حيناً ؛ واستعمل فيها ضمير المخاطب كأنما كانت تلقى مواجهة ، وانطوى فيها صور ومشاهد من العهد المكي ، ومواقف مما كان يحدث بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين ـ رأينا أن نلحقها بهذا المبحث للصلة الوثيقة بينها وبين موضوعه ؛ مع التنبيه إلى أن منها ما يمكن أن يكون بين النبي والزعماء العنيفين ، ومنها ما يمكن أن يكون بينه وبين الزعماء المعتدلين وإن لم يمكن تمييز ذلك بجزم أو ترجيح .

(١) فمن ذلك آيات في سورة النجم وهي :

١ — أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ . أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ . إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ... ١٩ ـ ٢٣

٢ ـ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ . وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا ...

٢٧ ـ ٢٨

وقد وجه الخطاب في الآيات الأولى إلى المشركين بأسلوب تنديدي لاذع ؛ ومما لا شك فيه أن النبي قد خاطبهم به مواجهة في إحدى المواقف بينهم وبينه .

(٢) ومن هذا الباب آيات في سورة الصافات وهي :

« فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ . أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ . فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ... ١٤٩ ـ ١٥٧

إذ وجه الخطاب فيها إلى المشركين بأسلوب لاذع كذلك ؛ ومما لا يتحمل شكا أن النبي قد خاطبهم بها في أحد المواقف المواجهة .

(٣) ومن ذلك آيات الأعراف التالية :

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ . وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ . إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ . وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ . وَإِن

تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ...

١٩١ — — ١٩٨

إذ احتوت حملة تنديدية لاذعة على شركاء العرب وأصنامهم فيها سخرية وتحدّ ، وفيها ما هو بمثابة موقف جدلي ، إذ وجه الخطاب في بعضها إلى المشركين . وطبيعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خاطبهم بهذا منددا ساخراً في موقف من المواقف المواجهة .

(٤) ومن ذلك الآيات التالية في سورة لقمان :

« أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ . .

٢٠ — ٢١

إذ احتوت تسفيهاً شديداً لما يحتج به المشركون من تفضيل اتباع الآباء ، وانطوى فيها تعقيب أو ترديد لموقف جدلي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم .

(٥) ومن ذلك الآيات التالية في سورة المؤمنون :

« بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ . قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ . . .

٨١ — ٨٩

إذ احتوت حكاية لموقف مكابرة للجاحدين وتعقيباً عليه وأمراً للنبي صلى الله عليه

وسلم بتوجيه الخطاب إليهم مفحماً متحدّياً . ومن الطبيعي أن النبي قد وجه إليهم الخطاب في المشاهد المواجهة بينه وبينهم .

ومن هذا القبيل آيات في سورة النمل وهي :

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

٥٩ — ٦٨

والتشابه في الموقف والحوار والمكابرة كبير جدا بين الفصلين القرآنيين كما هو ظاهر ، وإن كانت حكاية إنكارهم الآخرة جاءت في آخر الفصل هنا على حين جاءت في أول الفصل هناك ، وطبيعي أنه كان في سياق توجيه الآيات مشهد من المشاهد المواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم والجاحدين .

(٦) ومن ذلك الآيات التالية في سورة فاطر :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ... ٣

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ . إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ... ٥ ـ ٦

٣ — ... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ . إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ . إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ... ١٣ ـ ١٧

٤ — قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ... ٤٠

ففي هذه المقاطع هتافات بالناس ، في صدد الدعوة ، احتوت تذكيراً وتسفيهاً وإنذاراً ، ولا ريب في أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وجهها إلى العرب في مواقف مواجهة كانت بينه وبينهم .

(٧) ومن ذلك الآيات التالية في سورة الأنعام :

« قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ . قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ

رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَـٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١٦١ ـ ١٦٥

وطبيعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نفذ أمر ربه فوجه هذا الهتاف إلى الناس في مشهد أو مشاهد مواجهة كانت تنعقد بينه وبينهم .

ومن هذا الباب آيات سورة يونس التالية :

١ — قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّـٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . . .

١٠٤ ـ ١٠٥

٢ — قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . . .

١٠٨

إذ كانت هذه المقاطع من دون ريب توجه للناس في مشهد أو مشاهد مواجهة تنعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم تنفيذاً لأمر ربه .

الصّورة التاسعة

(٨) ومن ذلك فصل طويل في سورة الأنعام في صدد تقاليد دينية المشركين في الأنعام والنذور ننقله في المقطعين التاليين :

١ — وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ . وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ

أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ
وَمَا يَفْتَرُونَ . وَقَالُواْ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ
وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم
بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ . وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ
عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ... ١٣٦ ـ ١٣٩

٢ — ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ
أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .
وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ
عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّـٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . قُل لَّآ أَجِدُ
فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ
لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم
بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ . فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ
عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ . سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا
وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ
عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .
قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ . قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ
يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ... ١٤٣ ـ ١٥٣

وقد احتوت الآيات حملة تقريعية لاذعة على سخف تقاليد المشركين في الأنعام والنذور وتحليلهم وتحريمهم الكيفي ، كما احتوت تعليماً للنبي بمجادلتهم في ذلك ، وأجوبة منهم في هذه المجادلة . . . والظاهر أنهم احتجوا بما عند اليهود من محرمات وأنهم ليسوا بدعاً ، فردت عليهم أن ما حرّمه الله هو الرجس والفسق ، وأنه إذا كان حرّم على اليهود شيئاً آخر فإنما ذلك عقوبة خاصة بهم ؛ ولقد احتج المشركون بأن ما هم عليه بمشيئة الله ، فعلمت الآيات النبي الرد عليهم وتحديهم ، ثم استطردت إلى أمر النبي بإعلامهم بأن ما حرّم الله من أعمال ودعا إليه من مكارم هو وحده الذي يجب أن يتبع .

وهكذا احتوت الآيات مشهداً جدلياً أو ترديداً وتعقيباً أو تعليما لموقف جدلي مواجه قد وقع حتما تنفيذاً لأمر الله وتعليمه ، بين النبي وفريق من زعماء المشركين ، ويبدو أنه من أهم المشاهد والمواقف الجدلية الموضوعة . وأسلوب الآيات قد يلهم أن الطرف الثاني في في هذا المشهد كان فريقاً معتدلا أكثر منه عنيفاً عاتيا .

ولقد جاء بعد هذه الآيات فصل متصل بالموقف كما ترى فيما يلي :

« ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ... ١٥٤ ـ ١٥٧

إذ استمرت فيها الدعوة بقوة دامغة ، فالله آتى موسى الكتاب ثم أنزل القرآن مصدقاً لما سبقه من كتب الله بلسانهم فيه النور والهدى والرحمة والبينات ، لئلا يحتجوا بأن الكتب السابقة بغير لسانهم ولم يتيسر لهم الاطلاع عليها ودراستها ويعتذروا ويقولوا لو أنه أنزل علينا كتاب بلساننا لكنا أهدى من أصحاب الكتب السابقة .

ويتصل بالموضوع الذي احتواه القسم الأول من الآيات آيات أخرى في سورتي يونس والنحل فيها ترديد أو تعقيب أو تعليم لموقف حجاجي وتنديدي في صدد المحرمات وفي آيات سورة النحل عطف على بعض ما جاء في القسم الثاني من الآيات في صدد المحرمات اليهودية كما ترى فيما يلي :

١ — قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ . وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ . . .

يونس ٥٩ ـ ٦٠

٢ — إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . . .

النحل ١١٥ — ١١٨

وتكرار الكلام على الموضوع يدل على أن الحجاج في صدده ظل يتكرر ، وبالتالي على أنه من المواضيع المهمة التي كانت وسيلة للحجاج والنقاش بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين الذين كانوا على صلة ما بالنبي والمسلمين أو المشركين بوجه الإجمال .

الصورة العاشرة

ومما هو جدير بالتنبيه ومتصل بهذا الباب ، التشابه الموجود بين ما حكته القصص القرآنية عن رسالات الأنبياء السابقين لأقوامهم ومواقف أقوامهم منهم — سواء منها ما كان عربيا غير توراتي كقصص هود وعاد وصالح وثمود وشعيب ومدين ، أو توراتياً كقصص نوح ولوط وموسى وفرعون وبني إسرائيل وداود وسليمان ويونس الخ — وبين ما احتوته الآيات القرآنية من حكاية مواقف جاحدي العرب وأقوالهم ، وما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتوجيهه إليهم من هتاف وخطاب وتنديد وإنذار ؛ ففي هذا التشابه حكمة من حكم تلك القصص ، وورودها مكررة بأساليبها المتنوعة ، إذ كانت تنزل في مناسبات مواقف الجاحدين المتكررة والمتنوعة ، لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأن ما يلقاه من قومه — من جحود أكثريتهم الساحقة وتكذيبهم له ونسبتهم إليه السحر والافتراء والجنون ، وتحديهم إياه بالآيات والخوارق ، واتخاذه هو والمسلمين معه موضع سخرية وهزء واستخفاف ، واستكبارهم ومكابرتهم وعنادهم ومؤامراتهم ومكرهم

ومكايدهم ـ قد لقيه من قبله من الأنبياء والرسل ، وللتنديد بالجاحدين بأن ما يقع منهم قد وقع مثله ممن قبلهم أيضاً ، ولإنذارهم بأن الله محيط بهم ومنكل كما أحاط ونكل بمن سبقهم من أمثالهم ؛ وهكذا يصح أن يقال إن القصص القرآنية تحتوي بطريقة غير مباشرة صوراً لمشاهد ومواقف للجاحدين في العهد المكي الذي نزلت جميعها تقريباً فيه .

ومن هذه القصص ما جاء مسهبا ومنها ما جاء مقتضباً ، وهي منبثة في سورة الأنعام والأعراف وهود وإبراهيم والحجر ومريم وطه والأنبياء والفرقان والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت ويس والصافات وص وغافر وفصلت والزخرف والدخان والأحقاف وق والقمر والقلم والحاقة ونوح والفجر ؛ ومن التطويل الذي لا حاجة إليه نقل نصوصها هنا ؛ وإن المتمعن فيها ثم المتمعن في الآيات والفصول التي نقلناها في هذا المبحث ، والتي سننقلها في المباحث التالية ، ليجد التماثل بينها قويا ويسلم بصحة ما نبهنا إليه في صددها .

وتنبه خاصة في هذا الصدد إلى ما ورد في القرآن ولم يرد في التوراة من قصص إبراهيم صلى الله عليه وسلم مع أبيه وقومه وأقواله ومواقفه ودعائه ، وهي مبثوثة في سور الأنعام وإبراهيم ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات والزخرف ؛ في هذه القصص تنديد بالأصنام وعبادتها ، وتبرؤ إبراهيم صلى الله عليه وسلم منها ومن قومه وأبيه بسببها ، وإعلانه إسلام وجهه لله وأنه كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين ؛ وفيها تعقيبات بالدعوة إلى الاقتداء به والتنديد بجاحدي العرب بسبب شذوذهم عن الطريق الحق . وعدم ورود هذه القصص والمواقف في التوراة مما يسوغ القول أنها مما كان متداولا معروفاً في أوساط العرب كرويات ومنقولات عربية

عن الآباء إلى الأبناء استتباعاً لصلة الأبوة التي كانت متداولة معروفة بين العرب على ما ذكرناه في كتابنا عصر النبي وبيئته . وثمة حكمة من حكم التنزيل في إيرادها ، هي تذكير العرب بما كان عليه أبوهم ، والتنديد بهم لمخالفتهم إياه إلى الشرك والوثنية وبالتالى يصح أن يكون فيها مقاصد ومواقف وهتافات توجيهية للعرب السامعين كما هو المتبادر .

المبحث الرابع

الصلات بين المسلمين والكفار

بالإضافة إلى ما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار من محاورات ومصاولات ومشادات عنيفة حيناً وهادئة أو معتدلة حيناً فقد كان يحدث مثل ذلك بين بعض المسلمين والكفار أيضاً . وإذا لم يكن هذا متصلا بالسيرة النبوية مباشرة فإن فيه صوراً من صور العهد المكي في ظل هذه السيرة وكأثر من آثارها حيث يبرر ذلك استعراض هذه الصور في مبحث خاص .

(١) في سورة يس الآية التالية :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ... ٤٧

حيث ينطوي فيها صورة لمحاورة جرت بين بعض المسلمين والكفار في صدد مبادئ الدعوة الإسلامية وبخاصة في صدد السير بالفقراء والمعوزين تنم عما كان من المسلمين من اهتمام للتبشير بهذه المبادئ والحض على إطعام الفقراء ومن الكفار من العناد والمكابرة والاحتجاج الساخر برغم ما فيه من بطلان . والصورة على كل حال من دلائل التلاقي والتساجل بين الفريقين كما هو واضح .

(٢) في سورة الأنعام الآيات التالية :

« وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ . وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . . .

٦٨ — ٦٩

والخطاب في الآية الأولى وإن كان موجهاً إلى النبي «صلعم» أو بصيغة المفرد فإن صيغة الجمع في الآية الثانية تبرز القول بأن الصورة لم تكن بين النبي «صلعم» والكفار فقط بل كان يشترك فيها غيره من المسلمين . وأنها تفيد أن المسلمين كانوا يختلطون مع الكفار ويجلسون في مجالسهم .

والآيات لا تنهي عن المخالطة . وإنما تنهي عن الجلوس مع الكفار أثناء خوضهم في آيات الله خوضا مؤذيا لنفوس المسلمين حيث يبدو من هذا أن المصالح والعلاقات كانت متشابكة بين الفريقين . ولم يكن بينهما قطيعة ولا مقاطعة . وقد توخت الآية مراعاة ذلك فلم توجب المقاطعة والقطيعة وإنما أمرت عدم الجلوس مع الكفار بدينهم حينما يخوضون في آيات الله .

(٣) وفي سورة الأنعام أيضاً هذه الآية :

« وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . . .
١٠٨

وقد روى المفسرون أن بعض زعماء قريش قالوا للنبي «صلعم» « لتكفنّ عن سب آلهتنا أو لنشتمن إلهك » فنزلت الآية . والآية في صيغة الجمع التي تلهم أنها موجهة للمسلمين حيث يتبادر أن بينها وبين الأمر الذي احتوته الآيتان السابقتان (٦٨ — ٦٩) اللتان أوردناهما آنفاً صلة ما . وحيث يحتمل أن يكون بعض المسلمين ردوا بسبّ شديد على الذين سمعوهم يخوضون في آيات الله خوضاً مؤذياً في مجلس من المجالس ، فقوبلوا بالمثل ، فاقتضت الحكمة تنزيل الآية على سبيل التهدئة والتنبيه .

(٤) وفي سورة الأنعام كذلك الآية التالية :

« وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ

لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ . . .
١٢١

وهذه الآية تتمة لفصل فيه إباحة بأكل ما ذكر اسم الله عليه . وقد روى المفسرون أنه كان من عادة الكفار ألاّ يأكلوا من القرابين التي تذبح لله أو لآلهتهم وأن يأكلوا ما يموت حتف أنفه بدون ذبح ومن دون أن يذكر اسم الله عليه . وأنه صار يقع جدال بينهم وبين المسلمين بسبيل ذلك فاقتضت حكمة التنزيل إيحاء الفصل . والمتصل بالموضوع هو صورة المجادلة التي كانت تقع بين المسلمين والكفار حول هذه الأمور حيث يفيد هذا ما تفيده الآيات السابقة من التعامل والتواصل والتلاقي بين المسلمين والكفار .

(٥) وفي سورة الأحقاف الآية الآتية :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ...
١١

حيث يفيد مضمون الآية أن بعض المؤمنين تحاججوا مع بعض الكفار ودعوهم إلى الإيمان كما آمن غيرهم فأجابوهم بهذا الجواب الذي فيه اعتداد ومكابرة واستخفاف بالذين آمنوا . وحيث يفيد هذا ما أفادته الآيات السابقة من التواصل والتلاقي بين المسلمين والكفار .

(٦) وفي سورة مريم الآية التالية :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ...
٧٣

حيث ينطوي في الآية صورة أخرى من صور اعتداء الكفار بما كانوا عليه من قوة ومال وحسن استمتاع وتبجحهم في ذلك على المؤمنين الذين لم يكن لأكثرهم مثل

ذلك . ومن المحتمل القوي أن يكون هذا وقع في موقف من مواقف الجدل . وأن المسلم دعا الكافر إلى الإسلام حتى ينال رضا الله وثوابه فأجابه بما حكته الآية على سبيل الزهو والاستغناء . وفي الصورة ما في الصور السابقة من دلائل التلاقي والتواصل والتحاور بين الفريقين .

(٧) وفي سورة العنكبوت هذه الآية :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ... ١٢

وقد روى المفسرون أن أبا سفيان قال لبعض المسلمين ما حكته الآية . ومهما يكن من أمر فالآية احتوت هي الأخرى مشهداً من مشاهد الحوار والمساجلة الهادئة بين بعض المسلمين والكفار . ومن المحتمل أن المسلم ذكر الآخرة وما أعده الله للمؤمنين من نعم وثواب وللكافرين من عذاب وعقاب وطلب من الكافر أن يؤمن لينجو من العذاب والعقاب وينال النعم والثواب فأجابه بما حكته الآية من جواب فيه طرافة مع العناد والمكابرة .

(٨) ويسلك في هذا الباب ما شرحناه في البند (٨) من الفقرة (٥) من المبحث السابق من دلالة آية سورة الأنعام (١٠٨) وآية سورة الرعد (٣١) على ما كان يقع من تواصل وتحاور بين المسلمين والكفار حيث كان بعض الكفار حينما يطلب المؤمنون منهم أن يؤمنوا مثلهم يحلفون لهم إنهم مستعدون لذلك إذا ما جاءتهم آية أي معجزة تقنعهم !

المبحث الخامس
مشاهد التحدي

مدى هذه المشاهد وبواعثها ـ كثرة التحدي والموقف السلبي الذي يمثله القرآن المكي إزاءه ـ فصول قرآنية صريحة بعيدة المدى في الدلالة على الموقف السلبي من التحدي ـ ما يلهمه هذا الموقف من آثار في سير الدعوة وموقف الزعماء ـ تحديات متصلة بالقرآن خاصة ـ تحديات مقابلة لها ـ تمحل المشركين بعربية القرآن ـ القرآن ليس معجزة تحد وإنما هو معجزة بذاته ـ الموقف السلبي في صدد المعجزات . أما البراهين والخطاب والحجاج ففيها إيجابية قوية ـ ما تلهمه الآيات من حكمة الموقف السلبي ـ مزية الرسالة المحمدية وترشحها للخلود ـ استدراك في صدد معجزات انشقاق القمر والإسراء والمعجزات المروية والتأييدات الربانية للنبي ـ المقصد من المعجزة التي كان الموقف سلبياً من تحديها ـ الإسراء والمعراج حادثان خاصان بالنبي ولا يدخلان في نطاق معجزة التحدي ـ بحث في معجزة انشقاق القمر ـ التأييدات الربانية التي تسمى معجزات لا تدخل في نطاق معجزة التحدي ـ استدراك في صدد وجوب الإيمان بقدرة الله على المعجزات ووجوب الإيمان بما أخبر به القرآن منها ـ مشهد من مشاهد العهد المدني حول الإسراء النبوي .

الصورة الأولى

من أهم مشاهد النشاد والجدل التي كانت تقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء العرب في مكة نتيجة للموقف السلبي والعدائي الذي وقفوه منذ البدء ، مشاهد التحدي المتقابلة ؛ فإن الزعماء لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم بطبيعة بشرية مثل طبيعتهم ، ورأوا في دعوته تحدياً لزعامتهم ، وتهديداً لمكانتهم ، وضربة على تقاليدهم المتنوعة ، ومبعث خوف على إمامة مكة ومركزها ومنافعها المادية والمعنوية ـ وقفوا منذ البدء موقف الإنكار والجحود والصد والتعطيل ، والتهويش والتضليل ، واستمروا في هذا الموقف الشديد العنيد ، واتخذوا نعته بالجنون والسحر والشعر والكذب والكهانة والاتصال بالشياطين والتعلم والاقتباس الخ ديدناً يكررونه في كل مناسبة ، تدعيما لذلك

الموقف ؛ وإن كان بعضهم فعل هذا مع الاعتدال وبدافع الشك والارتياب فحسب . ولم يسكت القرآن لهم على هذا الموقف بطبيعة الحال ؛ فرد عليهم منذ البدء ، ثم استمر في رده يندد بأقوالهم ويحمل عليهم حملات قارعة لاذعة ، ويكذبهم ، ويسفههم وينذرهم ويتوعدهم بمختلف الأساليب من جهة ، ويثبت النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيده في موقفه ودعوته ، ويؤكد صدق دعواه وأقواله من جهة أخرى ، مما هو منتثر في مختلف السور والفصول القرآنية في مختلف أدوار التنزيل المكي ؛ وقد نقلنا منه أمثلة كثيرة فيها الكفاية .

ولقد كان من جملة ردود القرآن ، تقرير كون الأنبياء السابقين هم من البشر مثل النبي صلى الله عليه وسلم سواء بسواء ، وكون النبي ليس بدعاً في رسالته ودعوته وبشريته كما ترى في الآيات التالية :

١ — وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ... الفرقان ٢٠

٢ — وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ... يوسف ١٠٩

٣ — قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ... الأحقاف ٩

٤ — وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ... الأنبياء ٧ ــ ٨

فوقف الزعماء إزاء هذا الموقف القرآني من تحديهم ، وأخذوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات والآيات برهاناً على صدق دعواه أولا ، ثم أخذوا يدعمون مطالبهم بتحد آخر ، وهو سنة الأنبياء السابقين الذين جاءوا بالآيات والمعجزات كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ... الإسراء ٩٠ — ٩٣

٢ — وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ... الحجر ٦ — ٧

٣ — وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ... الفرقان ٧ — ٨

٤ — فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ . . .

القصص ٤٨

٥ — بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ... الأنبياء ٥

ولعل ماجاء في آيتي القصص والأنبياء وأمثالها من أقوالهم المحكية قد كان مع ما يحتمل أن يكونوا عرفوه من أخبار الأنبياء عن طريق الكتابيين ، بناء على ما كان يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم من قصص الأنبياء التي أخذت تنزل فصولها منذ عهد مبكر واحتوت أخبار تحدي الأمم السابقة لأنبيائها وأخبار الخوارق والآيات التي حدثت على أيديهم .

ولقد تكرر طلب الآيات من جانب الجاحدين ، أو بالأحرى زعمائهم . كثيراً حتى حكى القرآن المكي ذلك عنهم نحو خمس وعشرين مرة صريحة ، عدا ما حكى عنهم من

التحدي الضمني ومن التحدي بالإتيان بالعذاب واستعجاله والتساؤل عن موعده .

ولا نعدو الحق إذا قلنا إن المستفاد من الآيات القرآنية المكية أن الموقف تجاه هذا التحدي المتكرر كان سلبيا ؛ إذا ما استثنينا الإشارة إلى القرآن كآية كافية ، أو إلى احتوائه ما في الكتب السماوية كآية على صحة وحي الله به ، ثم آيات انشقاق القمر التي سنعرض لها بعد ؛ كما ترى في الأمثلة التالية :

٥ — وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ... طه ١٣٣

٦ — أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . الشعراء ١٩٧

٧ — وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... العنكبوت ٥٠ ــ ٥١

٨ — وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ... العنكبوت ٥٣ ــ ٥٤

٩ — وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ... الملك ٢٥ ــ ٢٦

الصورة الثانية

بل هناك ماهو أبعد مدى في الدلالة على الموقف السلبي المذكور يتجلى في بعض الفصول القرآنية ، منها آيات الأنعام ١٠٩ ــ ١١١ التي نقلناها في المبحث السابق والتي استلهمنا منها أن المسلمين كانوا يتمنون استجابة الله لتحدي الكفار وإظهاره معجزة تبهتهم فيؤمنون برّاً بإيمانهم ؛ إذ اقتضت الحكمة الإيحاء بالآيات استمراراً بالموقف السلبي

ومعللا بما تأويله : «إن الله يعلم من الكفار نية العناد والمكابرة وأنه لو أنزل عليهم أعظم الآيات لما آمنوا إلا أن يشاء الله ، لأن الإيمان لا يتوقف على المعجزات وإنما هو منوط بحسن القصد وشرح الله صدر المرء به » .

ولعل آيات الحجر والأنعام التالية .

١ — وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ... الحجر ١٤ — ١٥

٢ — وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ... الأنعام ٧

من هذا الباب من ناحية توكيد نية المكابرة والعناد في الكفار ، والاستمرار في الموقف السلبي من أجل ذلك .

وفي الأنعام آية وجه الخطاب فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، تدل على أنه هو نفسه كان يتمنى أن يحدث الله على يده آية تبهت الكفار وتحملهم على الإذعان تأثراً بموقف الإعراض والصد والتحدي الذي يقفونه وهي :

« وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ... ٣٥ — ٣٦

والموقف والتعليل متجليان في الآيتين كما هو واضح .

وفي سورة هود آية عظيمة المغزى من ناحية شعور النبي صلى الله عليه وسلم هذا ، وهي هذه :

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ

لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ... ١٢

إذ تكشف عما كان يخالج نفس النبي صلى الله عليه وسلم من حيرة وضيق بسبب تحدي الكفار إياه بالمعجزات ، حتى لقد كان أحياناً يهم بتفادي تلاوة بعض مايوحى به إليه عليهم أو يكاد صدره يضيق به لتوقعه منهم التحدي .

وقد روى الرواة في صدد الآية مافيه توضيح أكثر ، إذ قالوا إن الكفار كانوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات فلا يستجيب إليهم ، ثم توحى إليه الآيات القرآنية فيسخرون منه ويقولون هلا استنزلت ملكا أو كنزاً بدلا من هذه الآيات ؟ فكان يخجل ويتهرب منهم أحياناً !

ونعتقد أن من السائغ أن يقال إن هذا الموقف السلبي كان من عوامل تكرر التحدي من جانب الزعماء المكابرين المستكبرين وانقلاب أسلوبهم فيه إلى التعجيز حيناً كما هو ظاهر في آيات الإسراء ٩٠ ـ ٩٣ وإلى السخرية حيناً كما هو ظاهر في آيات الحجر ٦ ـ ٧ وفي آية الأنفال التالية التي وردت للتذكير .

« وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... ٣٢

كما كان دعامة لصدهم وتعطيلهم وخبث دعايتهم ومكرهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته أيضاً ؛ بل لعله كان من أسباب تمسك المعتدلين بجحودهم أولا ، وانجرافهم مع المعاندين أخيراً .

الصورة الثالثة

ومن الجدير بالذكر والتنبيه في صدد هذا الموقف ومشاهده أن حجة كفاية القرآن كآية كانت سبباً لتحديات أخرى متصلة بالقرآن نفسه حكيت عن الكفار بطلب الإتيان بقرآن غيره أو تبديله أو إنزال القرآن جملة واحدة ، ثم بنعته أنه من أساطير الأولين

وأنه قول بشر وأنه مفترى ، وبقولهم إنهم لو شاءوا لقالوا مثله كما ترى في الآيات التالية :

١ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ[1] ... الأنفال ٣١

٢ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... يونس ١٥

٣ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ... الفرقان ٤ ـ ٥

٤ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ... الفرقان ٣٢

فكان ذلك التحدي القرآني لهم بالمقابلة بالإتيان بكتاب من عند الله أو بعشر سور مفتريات أو بسورة مثله أو بحديث منه كما ترى في الآيات التالية :

١ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... يونس ٣٨

٢ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... هود ١٣

٣ — قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... القصص ٤٩

---

(١) هذه الآية وإن كانت مدنية قد جاءت في جملة آيات تذكر بما كان من مواقف وأقوال الكفار في مكة .

٤ — أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ... الطور ٣٣ ـ ٣٤

ثم كان الإفحام القرآني بتقرير عجزهم أفراداً وجماعات عن ذلك ؛ كما ترى في الآيات التالية :

١ — وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ . . .(١)

البقرة ٢٣ ـ ٢٤

٢ — فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٢) ... هود ١٤

٣ — قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ... الإسراء ٨٨

٤ — فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . . .(٣)

القصص ٥٠

وهكذا تكرر التحدي من الكفار وتكرر التحدي المقابل من القرآن بحيث يصح أن يقال إنهم كلما وصفوا القرآن بوصف من تلك الأوصاف الكاذبة تحداهم القرآن تحدياً قويا مفحماً ولاذعاً يتجلى فيه الاستعلاء وتلقين الثقة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ؛ وأعلن عجزهم عن الاستجابة وكذبهم فيما يدعون ويتحدون .

---

(١) هذه الآيات مدنية وهي تسجل استمرار عجزهم عن الاستجابة للتحدي .

(٢) هذه الآية جاءت بعد التحدي الذي احتوته الآية التي قبلها .

(٣) كذلك هذه الآية فإنها جاءت بعد التحدي الذي احتوته الآية التي قبلها .

ونلفت النظر خاصة إلى آيات البقرة التي هي مدنية ، إذ تسجل وقوف الكفار موقف العاجز طيلة العهد المكي بتمامه أمام التحدي القرآني وتقرر أبدية استمرار العجز منهم بعد ذلك .

وواضح أن في هذا التحدي المتقابل مشاهد من السيرة في عهدها المكي بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين ؛ وليس من شك في أن الزعماء هم الذين كانوا الطرف الثاني لهذه المشاهد .

ومما يتصل بهذا الباب آيات في سورة فصلت يستلهم منها صورة طريفة لموقف من مواقف المشركين الحجاجية إزاء القرآن وهي :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ...

٤١ ـ ٤٤

والظاهر أن المشركين قالوا فيما قالوه في مواقف التكذيب والتحدي إن الكتب السماوية هي بغير اللغة العربية ، ورأوا في عربية القرآن شذوذاً عن ذلك فاعتبروا هذا ثغرة يمكن مهاجمة النبي صلى الله عليه وسلم منها فنزلت الآيات تندد بهم لمكابرتهم وتمحلهم . وفي سورة الشعراء التي نزلت قبل سورة فصلت آيات فيها شيء من هذه الصور وهي :

« وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ . . .

١٩٨ ـ ١٩٩

مما يمكن أن يلهم أن هذا التمحل منهم وقع في أكثر من موقف واحد وظرف واحد .

هذا ؛ ونعتقد أن مما يصح قوله مع هذا كله ومع الإيجابية القوية التي تنطوي في تحدي القرآن للكفار ، أن المعجزة القرآنية إنما هي معجزة لذاتها وماهيتها وليست معجزة تحد ، أي أن القرآن لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم جواباً على تحدي الكفار ، بل ولم تنزل آيات منه بناء على طلب أو تحد ؛ وإن هذا كان وسيلة من وسائل المكابرة والجحود كما تلهمه آية سورة يونس ١٥ التي نقلناها وكما تلهمه هذه الآية من سورة الأعراف :

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا [1] قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... ٢٠٣

وإنما نزل عليه لاصطفائه من قبل الله بالرسالة والتنزيل ، وكان وظل تنزيله وكنه الوحي به مما هو خاص الإدراك فيه وحده ؛ وأن هذا من هذه الناحية يؤيد القول الذي قلناه استنتاجاً من نصوص القرآن عن الموقف السلبي العام تجاه تحدي القرآن .

الصورة الرابعة

وتنبه مع ذلك إلى أن الموقف السلبي الذي تمثله النصوص القرآنية لم يكن سلبيا بوجه عام إلا من ناحية الإجابة على التحدي بالإيجاب . أما من ناحية الحجاج والبرهنة والتدليل والتنبيه إلى أهداف الدعوة النبوية فإنها كانت إيجابية كل الإيجابية ؛ وهذه نقطة جديرة بالتنبيه في صدد الرسالة المحمدية وخصائصها من دون ريب .

ففي سياق الرد على جحود الكفار لوحدة الله وإشراك غيره معه في الاتجاه والعبادة، وفي سياق البرهنة على وحدة الله واستحقاقه وحده العبادة والخضوع ووجوب وجوده واتصافه بصفات الكمال ، وفي سياق الحملة على الكفار والتنديد بهم بسبب عقائدهم الشركية والوثنية الأخرى كعقيدة بنوة الملائكة لله ، وفي سياق إثبات حقيقة الحياة الأخرى وعذابها وثوابها وقدرة الله على إعادة الخلق الذي بدأه وما ينطوي في هذه

---

(١) يظهر أنهم كانوا يقترحون على النبي موضوعاً بعينه فإذا لم يجبهم سخروا منه قائلين: هلا اخترعتها !

الحقيقة من حكمة العدل والحق والتنزه عن البعث ، وفي سياق الدعوة إلى الأعمال الصالحة وتقبيح الأعمال السيئة على أنواعها وإثبات أن هذا إنما هو اصالح الإنسانية وخيرها وسعادتها ، وبعبارة واحدة : في سياق الدعوة إلى أهداف الرسالة المحمدية المتنوعة قد ورد في القرآن المكي آيات وفصول كثيرة جدا فيها من قوة الحجة ونصاعة البيان ، واستحكام البرهان ، وأسلوب الخطاب الموجه إلى العقل والقلب معاً ما فيه كل الإيجابية وما لا يسع أي منصف حسن النية والرغبة غير متعمد للعناد والمكابرة إلا التسليم به ، ولم نر حاجة إلى إيراد الأمثلة ؛ لأن هذه الآيات والفصول منتثرة في جميع السور المكية بل تكاد تكون نصوص القرآن المكي مقصورة عليها .

ويقال هذا كذلك فيما احتواه القرآن في سياق رده على الكفار تهجمهم على النبي صلى الله عليه وسلم ونعتهم إياه بالساحر والشاعر والمجنون والمفتري والكاذب وللتعلم ، ونعتهم القرآن بالمفتري وأساطير الأولين الخ ـ من الردود القوية كل القوة ، واللاذعة أنكى اللذاع ، والمفحمة أقوى الإفحام ، والدامغة أشد الدمغ ، وبأساليب تتجلى فيها صميمية النبي صلى الله عليه وسلم وصدقه واستغراقه في مهمته تجلياً رائعاً مما هو منتثر في سور القرآن وقد نقلنا منه أمثلة عدة في الفصل الأول مما يصح أن يعد إيجابيا في بابه أيضاً ، كما يقال هذا بتمامه كذلك في تحدي القرآن للكفار بالقرآن نفسه أيضاً .

وهذه النواحي الإيجابية في النصوص القرآنية يصح أن تكون مفسرة لحكمة ذلك الموقف السلبي ، بحيث يصح أن يستلهم منها وأن يقال ـ وقد ألمع إلى ذلك غير واحد من الباحثين أيضاً ـ إن حكمة الله اقتضت ألّا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد عليه السلام وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته التي جاءت بأسلوب جديد هو أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة ، والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة ووحدته واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه ، وبطلان الشرك

والوثنية وسائر العقائد والتقاليد المتناقضة مع هذا الأصل النقيّ البسيط ، ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب في الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل وإثبات قدرة الله على الحياة الأخرى وفكرة الحق والعدل فيها ، وعلى اعتبار أن الدعوة التي تقوم على تقرير وجود الله واستحقاقه وحده للعبودية واتصافه بجميع صفات الكمال ، وعلى التزام الفضائل واجتناب الفواحش هي في غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بهـا بالذات .

وفي هذا ما فيه من وضوح مزية الرسالة المحمدية وترشحها للخلود والتعميم . وآيات الأنبياء السابقين الخارقة حادثات وقعت وانقضت ، ولكن أسلوب الدعوة القرآنية هذا الذي اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة على بعض أولئك الأنبياء هو أسلوب خالد حي قوي في كل زمان ومكان ببراهينه ودلائله وحيويته ونفوذه وفصاحته ومعقوليته ومنطقه وسموه ؛ ولذلك كان وظل معجزة النبوة الخالدة الكبرى من هذه النواحي .

الصورة الخامسة

نقول ما قلناه ونحن نعرف . . .

(١) أن كثيراً من المفسرين قالوا إن آيات سورة القمر الأولى احتوت خبر معجزة انشقاق القمر فعلا فى مكة ، ورووا أحاديث عدة مؤيدة لقولهم ، وفى بعضها مايفيد أن هذه المعجزة قد وقعت جواباً على تحدي الكفار .

(٢) أن حادث الإسراء الذي ذكر بصراحة في الآية الأولى من سورة الإسراء يسلك في عداد المعجزات النبوية ، ومثله حادث المعراج الذي ذكر ضمناً على رأي بعض العلماء في بعض آيات سورة النجم .

(٣) أن في القرآن تأييدات ربانيـة للنبي صلى الله عليـه وسلم والمسلمين في بعض المواقف والأزمات وخاصة في أثناء الجهاد ، كما أن فيه مايدل على أن النبي صلى الله عليه

وسلم قد اطلع على بعض الأمور المغيبة مما عد في عداد المعجزات النبوية .

(٤) أن في كتب السيرة والحديث والشمائل روايات كثيرة عن معجزات نبوية منها ماروي أنه وقع في مكة جواباً على تحدي الكفار .

غير أننا في الحق نرى الموقف السلبي الذي تمثله آيات القرآن عاما قويا من الصعب أن ينقضه ذلك .

ونقول قبل كل شيء إننا نقصد بالموقف السلبي عدم إجابة تحدي الكفار النبي صلى الله عليه وسلم بالإتيان بمعجزة ؛ وهذا المفهوم الذي هو طابع ذلك الموقف قد صار مصطلحاً عليه في تعريف المعجزة النبوية . فإذا مااستعرضنا الآيات التي تحكي تحدي الكفار وترد عليه بصورة عامة - وهي كثيرة وواردة في مختلف أدوار التنزيل المكي وقد استعرضنا جملة منها - وجدناها تمثل ذلك الموقف تمثيلا تاماً ؛ ثم وجدنا إلى جانبها آيات كثيرة واردة في مختلف أدوار التنزيل المكي مما استعرضنا منه جملة أيضاً تؤكد أن الله لم ينزل آيات ولم يستجب إلى تحدي الكفار ؛ لأنه يعلم أن المتحدين إنما يتحدون عناداً ومكابرة وأنهم لن يؤمنوا ولو جاءتهم أقوى الآيات وأعظمها .

وإذا مادققنا في مدى آية الإسراء :

« سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ... ١

وجدنا أن الإسراء النبوي الذي أشارت إليه الآية لم يكن جواباً على تحد . وإنما كان حادثاً خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليريه ربه من آياته ، وأنه لم يدركه ويشعر به غيره ؛ واستطعنا بالتالي أن نقول إنه لا يدخل في مدى اصطلاح المعجزة ، ولا يصح أن يعد والحالة هذه ناقضاً للموقف السلبي العام . ونصل إلى النتيجة نفسها إذا ما دققنا في مدى آيات النجم التي قال بعض المفسرين إنها تضمنت خبر المعراج النبوي وهي :

« وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ . إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ... ١٣ ـ ١٨

وهذا بغض النظر عما هناك من أقوال وروايات مختلفة في كيفية وظروف الحادثتين ، حيث هناك روايات بأن كليهما رؤيا منامية ، أو أنهما كانا في اليقظة والجسد والروح ، أو بالروح دون الجسد ، أو بأن الإسراء كان باليقظة والروح والجسد دون المعراج الذي كان مناماً أو كان بالروح ، أو بأن حادث المعراج النبوي لم يقع وإنما الواقع الثابت هو حادث الإسراء ، أو بأن الإسراء كان في وقت والمعراج في وقت آخر ، أو بأنهما كانا في ظرف واحد ، وبأنهما وقعا في أوائل البعثة ، وفي أواسطها ، بل هناك قول بأنهما وقعا قبل البعثة بسنة .

وانشقاق القمر الذي ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآيات تشير إليه :

« ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ . وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ . وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ... ١ ـ ٥

موضوع بحث ونظر ؛ فالسورة من المبكرات في النزول أولا ، ولم يحك في السور النازلة قبلها عن الكفار تحد وطلب بإتيان معجزة ثانياً . وقد حمل بعض المفسرين تعبير « اقتربت الساعة وانشق القمر » على معنى أنه مقترب وأنه منشق على نحو « أتى أمر الله » و « اقترب للناس حسابهم » إذ المجمع عليه أن المعنى هو أن أمر الله آت لا ريب فيه وأن حساب الناس مقترب الأوان من دون شك ، وقالوا إن الآيات بسبيل ما كررت آيات كثيرة ذكره من تبدل نواميس الكون عند قيام الساعة ، مثلا :

١ ــ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ . وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ . . . التكوير ١ ـ ٣

٢ — فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ... القيامة ٧ ـ ١٠

ولم يأخذوا بالروايات المروية عن انشقاق القمر فعلا في مكة والتي فيها بعض الاختلاف [1] .

ومن الجدير بالتنبيه أن الحادث لم يشر إليه ثانية في السور والفصول القرآنية المكية التي نزلت بعد سورة القمر وهي أكثر مما نزل قبلها ، مع أنها حكت تحديات الكفار بطلب الإتيان بالآيات مرارا وتكراراً ، ومع أنها أشارت ثانية إلى أثر حادث الإسراء في آية من آيات السورة نفسها على ما ذهب إليه جمهور المفسرين وهي :

« ... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ... الإسراء ٦٠

فهذا السكوت عن الحادث على خطورته ، وخاصة إزاء تكرار تحدي الكفار قد يلهم وجاهة توجيه الذين لم يأخذوا بالروايات وصرفوا العبارة القرآنية إلى أشراط الساعة كما هو المتبادر ، وهذا منسجم كما هو ظاهر مع الموقف السلبي العام الذي نبهنا إليه .

أما التأييدات والإلهامات الربانية للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين التي تضمنت أخبارها آيات قرآنية عدة مثل آيات سورة الأنفال هذه :

---

(١) ـ ١ في البخاري ومسلم أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين . ونقل الترمذي الحديث بزيادة . فنزلت « اقتربت الساعة . . . إلى قوله : سحر مستمر » .

٢ ـ في البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقتين فلقة فوق الجبل وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله صل الله عليه وسلم : اشهدوا .

٣ ـ في البخارى ومسلم عن ابن عباس أن القمر انشق في زمن رسول الله .

٤ ـ في مسلم عن ابن عمر قال : انشق القمر على عهد رسول الله فلقتين فستر الجبل فلقة وكانت فلقة فوق الجبال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهدوا .

٥ ـ في الترمذي عن جبير بن مطعم : انشق القمر على عهد رسول الله فصار فرقتين ، فقالت قريش: سحر محمد أعيننا ! فقال بعضهم : لئن سحرنا مايستطيع أن يسحر الناس كلهم ! وزاد غيره : فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم رأوه فيكذبونهم .

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... ٩ ـ ١٣

ومثل الذي جاء في سورة الأحزاب :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ... ٩

ومثل الذي جاء في سورة التحريم :

« وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ... ٣

فإنها كما هو ظاهر من نصوصها وروحها لا تدخل في عداد معجزات التحدي ، وبالتالي فإنها ليس من شأنها نقض الموقف السلبي العام الذي تمثله الآيات القرآنية .

بقيت المعجزات المروية وخاصة التي يقال إنها وقعت في مكة بناء على تحدي الكفار ، ونعتقد أننا على صواب إذا قلنا إن سكوت القرآن عنها مع كثرة تحدي الكفار ، واقتصار الأجوبة القرآنية على السلب ـ لا يمكن أن يشجعا على التسليم بصحتها . هذا

إلى أن الروايات غير متواترة ولا وثيقة ، وكثير منها إن لم نقل أكثرها لم ترد في المدوّنات الصحيحة أو القديمة . إلى ما فيها من تخالف كبير في الوقت نفسه .

وفي سورة الإسراء آية على جانب عظيم من الدلالة والمدى في صدد ما نحن بسبيله وهي :

« وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ... ٥٩

حيث تضمنت تقريراً ربانياً صريحاً بأن الله عز وجل امتنع عن إظهار المعجزة على يد النبي صلى الله عليه وسلم إجابة على تحدي الكفار . وتعليلا صريحاً لذلك وهو أن الأمم السابقة قد كذبت بالآيات التي أظهرها الله على أيدي أنبيائه وأنها لم تحقق المقصود منها . ويلحظ أن هذه الآية نزلت بعد سورتي النجم والقمر بمدة غير قصيرة . وهي من السورة التي فيها الآية التي تذكر حادث الإسراء النبوي . وهذه الملاحظة مهمة جداً إذ أن الآية تتعارض مع معجزة انشقاق القمر إذا صحت الأحاديث الواردة في ذلك وتكون ناقضة لها . والقرآن يمنع احتمال التعارض والتناقض فيه على ما جاء في آية سورة النساء هذه :

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ... ٨٢

وواضح أن تقريراتنا ليست بسبيل إنكار المعجزة واستحالة خرق العادة على الله على يد نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإنما هي بسبيل توكيد الموقف السلبي من التحدي بالمعجزة الذي تمثله الآيات القرآنية . أما ما يخرج عن نطاق اصطلاح معجزة التحدي فإنه لا يصح أن يكون ثمة أي ريب في وقوع تأييدات ربانية للنبي يصح أن تسمى معجزات ولو لم تكن من معجزات التحدي ، ومنها ما أخبر به القرآن على ما ذكرنا من أمثلته ، وفيه تأييد حاسم ؛ هذا إلى أن المعجزة الربانية على أيدي أنبياء الله

مما أخبر بوقوعه القرآن بنصوص صريحة ، والإيمان به جزء لاينفصل عن الإيمان بالقرآن ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، مع اليقين بقدرة الله عليها وهو الذي بدأ الخلق وبيده ملكوت كل شيء في كونه الأعظم ، مع التنبيه إلى أن كثيراً من الروايات المحتوية أخبار المعجزات النبوية مما يحتمل التوقف ويدعو إلى التحفظ ، وإلى أن أقوال بعض المؤلفين فيها تتضمن تكلفاً لا ضرورة له ولا طائل من ورائه .

الصورة السادسة

هذا ؛ ولقد أشرنا إشارة خاطفة إلى آية في سورة الإسراء قلنا إنها تتضمن خبر أثر حادث الإسراء النبوي ، وهي الآية التالية :

« . . . وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيراً ... » ٦٠

وقد رأينا أن نعود إليها لأنها تتضمن مشهداً من مشاهد العهد متصلا بالحادث المذكور الذي تناوله الكلام في هذا المبحث .

ومع أن هناك من قال إن الرؤيا المذكورة في الآية هي رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم المنامية التي رآها في المدينة بدخوله الحرم والتي ذكرت في سورة الفتح هكذا :

« لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ... » ٢٧

كما أن هناك من قال إنها رؤيا منامية رآها النبي صلى الله عليه وسلم عن الفتن التي تقع بعده ــ مما فيه تكلف ظاهر ــ فإن الجمهور على أنها عنت حادث الإسراء . وهذا القول متسق مع مدى الحادث من جهة ومع الروايات الواردة عن ظروفه وأثره من جهة أخرى . ولقد قال الزمخشري: إن تعبير «الرؤيا» هنا يعني رؤيا البصر والبصيرة وليس رؤيا النوم ؛ وهذا هو المعقول للحادث ومدى الآيات ؛ لأن رؤيا النوم ليس من شأنها أن تكون

فتنة للناس أو أن تثير شكا وجدلا ، ولأن آية الإسراء الأولى لا تساعد على القول بأن حادث الإسراء كان مناما إذا ما أنعم النظر فيها بالرغم من ذكر بعض الروايات ذلك .

وعبارة الآية (٦٠) تلهم أن حكمة الله شاءت أن يكون هذا الحادث الروحاني النبوي اختباراً وفتنة للناس ، أو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قص مُشاهداته فيه على الناس فكان فتنة لهم . ولم يزدهم هو والإنذار بشجرة الزقوم الأخروية إلا طغيانا كبيرا .

ولقد وردت روايات في صدد هذا الموقف تتسق إجمالا مع ما تلهمه الآية ؛ وملخصها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح من ليلة الحادث جاء إلى فناء الكعبة وحدّث الناس بأنه أسرى به الليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وكان من المستمعين أبو جهل ، فلم يفاجئه بالتكذيب والإنكار خشية إنكاره وتراجعه ، بل سارع إلى الناس يدعوهم إلى استماع القصة من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما سارع إلى دعوة أبي بكر رضي الله عنه قائلا له : إن صاحبك يزعم أنه أسري به اللية من مكة إلى بيت المقدس ثم أصبح في مكة ، وأن أبا بكر سأل : أو قال ذلك ؟ فلما أكد له قال : إنه لصادق ، ولو أنه أخبر بأنه عرج به إلى السماء لكان صادقا ؛ وإنه ليخبرنا أن خبر السماء ليأتيه في لحظة فنصدقه ! ثم جاء إلى الكعبة واستمع إلى النبي ثانية فصدقه وأيده ؛ وأن أبا جهل ورفاقه اقترحوا على النبي أن يصف لهم بيت المقدس فكشف الله عن بصره ثانية وأخذ يصفه فأذهل الناس ، ولكن أبا جهل ورفاقه المعاندين المستكبرين كذبوا واستنكروا واستغلوا قصة الحادث في الصد والتكذيب أيضا حتى استطاعوا أن يؤثروا في بعض المسلمين فافتتنوا وارتدوا عن الإسلام[1] .

---

(١) انظر ابن هشام . ج ٢ ص ١ — ٢٠ وتفسير سورتي الإسراء والنجم في كتب تفسير الطبري وابن كثير والخازن والبغوي .

المبحث السادس

محنة الأذى والفتنة ونتائجها

مدى وأثر هذه المحنة - أولى الإشارات القرآنية إلى الفتنة ودلالة تبكيرها - الطبقة الفقيرة غرض المحنة الأولى وبواعث ذلك - الإشارة إلى الهجرة الأولى إلى الحبشة وسببها - التشجيع القرآني على الهجرة - هجرة أبناء بيوتات قرشية ومداها - تعليق على هجرة جعفر بن أبي طالب - تعليق على اختيار الحبشة دار هجرة - تعليق على عدم محاولة الزعماء منع المهاجرين - تعليق على غمز المستشرقين للمهاجرين - إشارة قرآنية ثانية إلى هجرة ثانية لبعض المفتونين ومداها - مشهد لارتداد بعض المسلمين وثباتهم على الكفر وملابساته - حادث تبديل آية قرآنية بأخرى واستغلال الزعماء له وأثره - إشارات قرآنية إلى تبرم المسلمين بالمحنة - محنة بعض المسلمين بآبائهم الكفار - أسلوب من أساليب الزعماء في الصد والفتنة - تشجيع قرآني على الهجرة إلى يثرب وأثرها العظيم - إشارة تنويهية إلى من قتل من المهاجرين ومداها وملابساتها - قرائن قرآنية عدة في صدد محنة الأذى - نصوص قرآنية مدنية في التعقيب والتذكير بالمحنة ودلالتها - نصوص خاصة بشخص النبي - تفكير النبي بالنزوح عن مكة في أواسط العهد المكي - مؤامرة الزعماء على شخص النبي وبواعثها - هجرته مع أبي بكر وأثرها الأعظم - ترجيح عدم وقوع أذى بدني على النبي في مكة - نصوص مدنية في استمرار المحنة على ضعفاء المسلمين في مكة بعد الهجرة - فرار المؤمنات من مكة ومداه - بحث في موضوع مقابلة المسلمين الأذى بالمثل في مكة واستعراض آيات قرآنية في صدده .

الصورة الأولى

لم يكتف الزعماء بمواقف الصدّ والمعارضة والتحدي النظرية ، بل إن بغاتهم تجاوزوا ذلك إلى إيقاع الأذى على المسلمين واضطهادهم وفتنتهم [1] عن الإسلام إلى الكفر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

---

(١) جاءت كلمة الفتنة ومشتقاتها في القرآن بمعنيين : معنى الابتلاء والاختبار كما هو في الأمثلة التالية :
١ - وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا .
٢ - وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، ومعنى رد المسلمين عن دينهم كما هو في الأمثلة التالية :
١ - إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا . .
٢ - والفتنة أكبر من القتل . . . وواضح أن البحث هنا هو فيما تناوله المعنى الثاني .

وقد كان لهذا التصرف منهم أثر خطير في سير الدعوة في العهد المكي بطوله ، بل يصح أن يقال إنه من أهم أحداث هذا العهد وأبعدها أثراً إن لم نقل إنه أهمها . ولقد احتوى القرآن آيات وفصولا فيها مشاهد وصور متعددة لهذا الموقف ونتائجه ، كما أن آيات القرآن تدل على أن هذه المحنة قد بدأت منذ الأدوار الأولى للدعوة ثم استمرت طيلة العهد المكي ، وأن بعض مستضعفي المسلمين ظل يكتوي بنارها إلى السنة الثامنة من العهد المدني . أما أهم نتائجها فهي الهجرات الأولى والثانية إلى الحبشة والثالثة إلى يثرب ، ولجوء النبي صلى الله عليه وسلم قبل هذا إلى الطائف .

الصورة الثانية

وسورة البروج هي أول سورة احتوت إشارة إلى فتنة المؤمنين والمؤمنات ؛ وقد جاءت آياتها كتمهيد احتوى إشارة إلى حادث فتنة وتحريق وقع على بعض المؤمنين في تاريخ سابق وحملة على المعتدي كما ترى فيها :

« وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ . وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ . وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ . قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ . ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ . ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ... ١ — ٩

وقد روى المفسرون في صدد هذه الآيات التمهيدية روايات[1] منها أن تلميذاً لساحر أسلم على يد راهب نصراني في اليمن ، فعذب الملك الراهب والولد وقتلهما ، وقد ظهرت لهما بعض الكرامات بعد موتهما فأسلم الناس وتركوا دينهم القديم ، فأمر الملك بحفر أخدود وتأجيج النار فيه وإلقاء من لم يتب ويرجع عن دينه منهم فيه . ومنها أن بعض أحبار اليهود رحلوا من يثرب إلى اليمن وتمكنوا من تهويد ملكها

---

(١) انظر تفسير الآيات في كتب تفسير الطبري والبغوي والطبرسي وابن كثير وتاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ج ٣ ص ١٦٥ — ٢٠٩

المدعو بذي نواس ، وكان في اليمن نصارى فحرض الأحبار الملك على اضطهادهم ليرجعوا عن النصرانية إلى اليهودية ولـكنهم امتنعوا فأمر الملك بحفر الأخدود وتأجيج النار فيه وإلقاء المعاندين منهم في النار .

ومهما يـكن من أمر فإن روح الآيات واكتفاءها بالإشارة الخاطفة إلى أصحاب الأخدود يلهم أن سامعي القرآن من العرب كانوا يعرفون حادث الأخدود وفتنة الناس به عن دينهم من دون ذنب إلا الإيمان بالله ، وأنه كان مما يثير في نفوسهم الامتعاض والنقمة، فأشير إليه في مطلع السورة تمهيداً تنديدياً بالذين ارتـكبوا مثله من زعماء مكة في حق الذين آمنوا بالنبي في مكة .

أما الآيات التالية لهـذه الآيات فالإجماع منعقد على أنها بصـدد حوادث اضطهاد المسلمين وفتنتهم عن دينهم ، وروح الآيات ومضمونها يؤيدان هـذا الإجماع ، وهذه هي الآيات :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ . إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ . وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ... ١٠ ـ ١٤

وقد احتوت الآيات إنذاراً شديداً للفاتنين إن لم يتوبوا ويرتدعوا عن إثمهم ، وتنويها بالمؤمنين وطمأنة لهم ، وسورة البروج من السور التي نزلت مبكرة جداً ، وهذا يدل على أن الزعماء قد أخذوا يؤذون المسلمين منذ عهد مبكر من الدعوة .

ويفهم من الروايات المروية عن هذه المحنة أنها أكثر ما وجهت إلى الأرقاء والمستضعفين من رجال المسلمين ونسائهم . ويبدو أن الزعماء لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم مستمراً في دعوته رغم ما بدا منهم لها من معارضة ومناوأة وتـكذيب وصد ، ورأوا أنها أخذت تستجاب من مختلف الطبقات ، وخاصة الطبقات الفقيرة والضعيفة التي رأت فيها ملاذاً وفرجاً وطمأنينة

نفس ، ورأوا أن النبي يشجع هـذه الطبقة بتلقين القرآن ويدعو إلى البر بها ويهتم لأمرها وتحريرها ورفع مستواها ، في حين أن الجماهير إنما كانت تتألف منها وكانت تقاسي الاضطهاد منهم على ما ذكرناه قبل ، خشوا أن يستشري أمر الدعوة ويتسع في هذه الطبقة فتكون الثغرة التي ينفذ منها إليهم ، وينهدم بها كيانهم ، فجنحوا إلى سدها منـذ البدء باضطهاد من في حوزتهم من أرقاء ، ومن يقدرون عليه من مستضعفين ، وإجبارهم على الرجوع عن الدين الجديد ، كمناوأة عملية للدعوة ، ووسيلة لتخويف من تحدثه نفسه من عامة الناس وضعفائهم وفقرائهم بالالتحاق بها .

ولقد رويت روايات عدة عن هذه المحنة[1] يفهم منها أنها كانت من أشد ما أهم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين هماً عظيما ، وأنه كان من صورها أن يعرى المسلم ويطرح فوق الرمال والصخور المحرقة المتوهجة من شدة حرارة الشمس ، ويوضع على أجسادهم الصخور الثقيلة ، ويمنع عنهم الماء والطعام ، وتقيد أيديهم وأرجلهم بقيود الحديد ، ويجلدوا بالأسواط شديد الجلد ، وأنه كان من نتائجها إزهاق أرواح بعضهم فضربوا مثلا خالدا على التمسك بالعقيدة وتحمل أنواع الأذى والتضحية بالنفس في سبيلها ، وأن بعضهم كان يضطر إلى إعـلان براءته من الإسـلام وعودته إلى الشرك ، وأن بعض أغنياء المسلمين وخاصة أبا بكر رضي الله عنـه كانوا يشترون الأرقاء المضطهدين من مالـكيهم وينقـذونهم من الاضطهاد . وهنـاك روايات يستفاد منها أن عـدداً من الذين لهم عصبيات قرشيـة اضطهدوا أيضاً بأساليب مختلفة من قبـل ذويهم ، استياء من تبديلهم دينهم وتحولهم عن تقاليدهم ، ومنعاً لاستشراء أمرهم وعدواهم أيضاً . فكان ذلك سبباً لهجرة كثير منهم إلى الحبشة على ماسوف يأتي شرحه بعد .

ويلتفت النظر خاصة إلى ذكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين في الآيات ، وما في ذلك من دلالة على أن من النساء من سارعن إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم منذ البدء وبالرغم عن ضعفه وما كان يلقاه المسلمون من أذى واضطهاد ، وعلى أن منهن من تعرضن

(١) انظر كتب التفسير السابقة الذكر أيضا .

فعلا للأذى والفتنة . وفي الروايات أسماء نساء مسلمات زهقت أرواحهن في سبيل التمسك بدينهن الجديد كالرجال .

الصورة الثالثة

وسورة النحل ـ التي يجيء ترتيب نزولها متأخراً بعض التأخر ويدل على أنها نزلت في أواسط العهد المكي ـ قد احتوت إشارتين إلى هذه المحنة وإلى الهجرات كنتيجة لها : الأولى في الآيتين . التاليتين :

« وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . . .

٤١ ـ ٤٢

وفي الآيتين صراحة بأن الهجرة في الله إنما كانت بعد الظلم الذي وقع على المهاجرين ، كما أنهما احتوتا بشرى بعناية الله بهم وبتبوئتهم في هجرتهم مبوءاً حسناً ، وتنويها بما كان من صبرهم واعتمادهم على الله . وكل هذا يدل على ما كان يلقاه المستضعفون من المسلمين من الأذى وعلى ما كان من صبرهم وقوة إيمانهم وروحهم إجمالا .

ومن الجدير بالذكر أن سورة الزمر التي يجيء ترتيبها قبل سورة النحل بقليل ، قد احتوت آية فيها حث على تقوى الله والتمسك بدينه وتشجيع على الهجرة كما يستلهم منها وهي :

« قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ... ١٠

فكأنما جاءت هذه الآية بالإذن للمظلومين بالهجرة ، ثم جاءت آيتا النحل تحتويان إشارة إلى إقدامهم عليها فعلا[١] .

(١) مما يؤيد صحة استلهامنا بأن آية الزمر في صدد تشجيع الهجرة ، آية في سورة النساء ربطت الهجرة بأرض الله الواسعة وهي هذه : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . . . ٩٧ »

وليس ثمة محل للشك في أن آيتي النحل قد تضمنتا الإشارة إلى الهجرة الأولى التي كانت إلى الحبشة في أواسط العهد المكي والتي تواترت الروايات فيها حتى بلغت مبلغ اليقين . وكانت على دفعتين . حيث خرج في الدفعة الأولى أحد عشر رجلا وأربع نساء وفي الثانية ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشرة امرأة .

ولقد ذكرت الروايات أن النبي (صلعم) قال للمسلمين لما اشتد الأذى عليهم: «لو خرجتم إلى الحبشة . فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد . وهي أرض صدق . حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه». فخرجت الدفعة الأولى وكلهم من قريش عدا اثنين كانا من حلفائهم .وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله . وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو . والزبير بن العوام من بني أسد . ومصعب بن عمير من بني هاشم . وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة . وأبو سلمة من بني مخزوم وزوجته أم سلمة بنت أمية بن المغيرة . وعثمان بن مظعون من بني جمح . وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي وزوجته ليلى . وأبو سبرة بن أبي رهم العامري . وحاطب بن عمرو بن عبد شمس .وسهيل بن بيضاء من بني الحارث. وعبدالله بن مسعود حليف بني زهرة رضي الله عنهم .

وبعد شهرين من وصولهم إلى الحبشة بلغهم أن قريشا أسلمت فعادوا إلى الحجاز فوجدوا الخبر غير صحيح . وعاد ذووهم إلى أذاهم واشتد الأذى على غيرهم فخرجت الدفعة الثانية التي كانت نحو ثمانية أضعاف الأولى . وفيهم معظم الدفعة الأولى . ومعظمهم كذلك من قريش . من بني هاشم. وبني أمية. وبني أسد . وبني عبد شمس . وبني نوفل . وبني عبد بن قصي . وبني عبد الدار . وبني زهرة . وبني تيم . وبني مخزوم . وبني جمح . وبني سهم . وبني عدي . وبني عامر . وبني الحارث . ومعم نفر من حلفائهم من هذيل وبهراء ودوس وعنز وزبيد واليمن . ومن الرجال والنساء القرشيين من كان آباؤهم أو زعماء أسرهم أو أعمامهم من أشد المناوئين للنبي (صلعم) .

وهذا الشرح يزيل ما قد يكون علق في بعض الأذهان من أن المهاجرين كانوا من الفقراء والمساكين . ومن أن القرشيين كانوا ـ وظلوا ـ ممتنعين عن الإسلام في العهد المكي .

ويظهر أن زعماء الكفار استعظموا أن يكون أبناؤهم أو أبناء عشائرهم من رجال ونساء قد استجابوا إلى الدعوة الإسلامية ورأوا في ذلك إحباطا لجهودهم في مناوأتها . وإغراء لعامة الناس فاشتدوا في أذاهم واضطهادهم فاقتضت حكمة الله ورسوله الإذن لهم بالهجرة .

وباستثناء النفر من حلفاء قريش ونسائهم لا تذكر الروايات أسماء أرقاء ومساكين في جملة المهاجرين . وقد تبادر لنا تعليلا لذلك أن ضغط زعماء قريش كان أكثر شدة على أبناء أسرهم لأنهم تحسبوا من عواقب إسلامهم بالنسبة لعامة الناس وسائر شباب الأسر في حين أنه لم يكن ما يخشونه من مثل ذلك من المساكين والأرقاء ، والفقراء والغرباء . وهذه صورة مخالفة لما قد يكون في الأذهان .

وممن ذكرت الروايات أسماءهم في المهاجرين الأولين ، جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولا ندري أكان هو أيضا مضطهداً من ذويه أو غيرهم فاضطر إلى الهجرة ، أم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ندبه ليكون وكيله في المهاجرين ورسوله إلى ملك الحبشة . ونحن نرجح هذا ، لأن بني هاشم كانوا ينصرون النبي صلى الله عليه وسلم مع احتفاظ أكثرهم بدينه ، ومن الصعب التوفيق بين موقفهم هذا واحتمال اضطهاد جعفر ، لا سيما أنه ابن رئيسهم الذي تولى قيادة النصرة والتعصب للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما لا يحتمل أن يكون غيرهم قد اضطهده واضطره إلى الهجرة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ظل في مكة ولم يضطر إلى الهجرة ، وبالتالي لم يكن ضعيف العصبية مضطهدا [(١)] . . .

أما اختيار بلاد الحبشة دار هجرة فمن الممكن أن يكون بالإضافة إلى الصفة التي وصف ملكها بها في الحديث المروي عن النبي (صلعم) الذي أوردناه آنفا بسبب تيسر السفر إليها ومساعدة الرياح الموسمية لهذا السفر البحري في ظروفه ؛ على أننا نعتقد على كل حال

---

(١) مما رواه ابن هشام أن جعفر كان الذي يتكلم بلسان المهاجرين في مجلس ملك الحبشة مما يمكن أن يكون مؤيداً لترجيحنا (انظر ج ١ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠).

أنه يمت إلى ما كان من ذهنية الحزبية الواحدة بين الدعوة الإسلامية ومعتنقيها وبين أهل الكتاب وخاصة النصارى ، وقد وطدتها في المسلمين آيات مكية عدة احتوتها السور التي نزلت قبل سورة النحل ، سواء ما كان في صدد استشهاد الكتابيين على صحة رسالة النبي ، أوما تضمن صوراً لمواقفهم الإيجابية والإيمانية ، وقد نقلنا جملة من ذلك في المباحث السابقة مثل آيات الأنعام (٢٠) والقصص (٥٢ ـ ٥٣) والإسراء (١٠٧ ـ ١٠٩) والشورى (١٣) والأعراف (١٥٧) ؛ بل إنه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النصرانية أمل وجود مجال للدعوة فيها ، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلا بهذا الأمل ، ولعل فيما روي أكثر من مرة عن إسلام النجاشي وغيره من الأحباش ووفادة بعضهم على النبي صلى الله عليه وسلم مسلمين مستطلعين ما يستأنس به على صحة هذا الخاطر ؛ إذ يرى أثر نجاح لهذه الدعوة في هاتيك الديار .

ولعل حادثة انتصار الأحباش لنصارى اليمن التي كانت حاضرة في أذهان العرب ، كانت ذات تأثير أيضا في توجيه هذه الهجرة إلى هذه البلاد ؛ فالمسلمون بهذا يكسبون حليفا قويا تجمع بينهم وبينه الحزبية الدينية ، والمشركون يقع في نفوسهم شيء من الخوف والتوجس والجنوح إلى الارعواء بسبب توثق الصلة بين المسلمين وهذا الحليف القوي . وهذه الخواطر قد تفسر لنا آيات سورة الروم الأولى التي تضمنت الإشارة إلى ما كان من غم المسلمين لانكسار الروم وما احتوته من وعد الله بالنصر وفرح المؤمنين به إذ ذاك ، وماروي في صددها من استبشار المشركين بانكسار الروم :

« الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ . وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ... ١ ـ ٦

ومن الجدير بالذكر أن روايات السيرة القديمة لم تذكر أن زعماء قريش حاولوا منع المهاجرين من الهجرة حينما أزمعوها ، كما أنها لم تذكر أن المهاجرين أجبروا عليها إجبارا وطردوا عن مكة طردا ؛ وليس مما يرد أن يكون خروجهم خلسة لم يشعر به أحد إلا بعد أن ركبوا البحر ؛ لأنهم لم يكونوا قليلي العدد ، وقد يدل هذا على أن الهجرة إنما كانت تبرما من الإزعاج والمضايقة والقطيعة والاضطهاد ، ورغبة في التخلص منه ومن نتائجه التي قد تكون أذى أشد وفتنة عن الدين، إلى حيث الأمن والحرية والطمأنينة. ولعل تعبير آية النحل « هاجروا من بعد ماظلموا » يلهم هذا أيضا . ولعل زعماء قريش ارتاحوا إلى حركة الهجرة لأنها ستضعف نشاط النبي صلى الله عليه وسلم وتقلل الناس الذين حوله من مختلف الطبقات ، والذين يمكن أن يؤثروا في غيرهم . وإذا كان ماروي من خبر إرسال قريش وفداً إلى ملك الحبشة يقنعه بخطر المهاجرين ويغريه بطردهم ، ويثيره مع رجال الدين عليهم بما احتواه القرآن من إنكار ألوهية عيسى- إذا كان هذا صحيحاً ونحن لانرى مايمنع صحته جاز أن يكون هذا خاطراً عنّ على بالهم مؤخراً توجساً من النتائج التي ألمعنا إليها آنفا . وقد ذكر الخبر أن الإخفاق كان نصيب الوفد ، لأن ملك الحبشة رأى في المسلمين إخلاصاً ورأى في المبادئ الإسلامية اتساقا مع المبادئ المسيحية الجوهرية ، وأن المسلمين لقوا عناية وبراً منه ؛وهذا مصداق مااحتوته الآية « لنبوئنهم في الدنيا حسنة ». وقد ذكر الخبر أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي كان لسان المهاجرين الناطق والمدافع في مجلس ملك الحبشة ، ويستأنس بهذا على ماقلناه في صدده قبل قليل[1] .

ولقد حاول بعض المستشرقين[2] غمز المهاجرين في صبرهم وجلدهم ورسوخ عقيدتهم ، وفي رغبتهم في النجاة بأنفسهم وتخليهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وليس في هذا شيء من الحق من جهة ؛ وهو ملقي جزافا بعقل اليوم المجرد وآت من

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ – ٣٦٢ طبعة مصطفى البابي الحلبي .

٢) كايتان في فصل الهجرة إلى الحبشة .

عدم معرفة ظروف البيئة النبوية والمهاجرين وتقديرها من جهة أخرى . فالذين هاجروا كانوا بين أمرين : إما أن يظلوا يتعرضون للأذى وقد تخون بعضهم أعصابهم فيضطرون إلى الارتداد ، وإما أن يصبروا حتى يودي الصبر بحياتهم، وليس في هذا مصلحة للمسلمين: ولقد وقعت الحالتان في بعض الذين أسلموا فليس في تفادي مثل ذلك بالهجرة محل للغمز ؛ بل هي دليل على تعلق المهاجرين بدينهم ، وخوفهم من الافتتان عنه ، وتضحيتهم بوطنهم وعائلاتهم وأموالهم – ومنهم من كان ذا مال كبير – في سبيله ؛ وفي هذا مايستوجب الإكبار والثناء . وقد أثنى القرآن فعلا على صبرهم واعتمادهم على الله بعملهم ، وفيما قرره القول الفصل حتى من الناحية التاريخية ، لأنه نزل في ظروف الواقعة وبعد وقوعها . والغريب أن الغامزين يتجاهلون حالة واقعية متكررة وسائغة في كل ظرف ومكان منذ الأجيال البشرية الأولى إلى الآن وإلى ماشاء الله ، بسبيل شفاء النفس بالتعليق والغمز ...

الصّورة الرابعة

أما إشارة سورة النحل الثانية فهي في الآية التالية التي تضمنت إشارة إلى مشهد من مشاهد الفتنة ، ومشهد من مشاهد الهجرة معاً :

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١١٠

إذ يستدل منها على أن بعض المسلمين قد فتنوا عن دينهم وارتدوا ، ثم أنهم أو أن بعضهم سنحت لهم الفرصة للهجرة فهاجروا وعادوا إلى الإسلام والتحقوا بزمرة المجاهدين في سبيله والصابرين الثابتين عليه .

والراجح أن كلمة « وجاهدوا » في هذا المقام لاتعني جهاد الحرب ، وإنما تعني المجاهدة في الصبر وتحمل المشاق في سبيل الله ودينه ؛ لأن الآية مكية ، ولم يكن مجال للجهاد في هذا العهد كما لايخفى . وقد استعمل التعبير نفسه في آية مكية أخرى في نفس المعنى الذي ذكرناه كما ترى فيما يلي :

« وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ . . .

العنكبوت ٦٩

وقبل آية النحل المذكورة آيات احتوت حملة على فئة من المسلمين ارتدت عن الإسلام واندمجت في الكفر ثانية وشرحت صدراً به ، وهي :

« مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ... ١٠٦ – ١٠٩

واستلهاماً من الآيات يمكن أن يقال إننا إزاء مشهد جديد من مشاهد الفتنة ذي مظهرين . واحد كان بدون إكراه . واستحباباً للحياة الدنيا على الآخرة الذي يعني على الأغلب أنه إغراء بمنافع دنيوية . وآخر بالإكراه . والراجح أن الآية (١١٠) من سورة النحل التي يجيء ترتيبها بعد الآيتين اللتين ذكر فيهما المشهد الجديد بمظهريه قد عنت الفريق المفتون بالإكراه الذي وجد فرصة سانحة فنجا وعاد إلى دينه القويم فاستحق التنويه والغفران الربانيين .

وقد جاءت الحملة على الفريق الأول شديدة متناسبة من دون ريب مع بشاعة العمل وسوء أثره الشديد . ونعتقد أنه كان له وقع أليم جداً على النبي والمسلمين للحادث بالذات أولا ، ولما يمكن أن يحدثه أو أحدثه فعلا من أثر سلبي في سير الدعوة ثانياً ؛ لاسيا أنه قد جاء على أثر هجرة عدد كبير من المسلمين فراراً من الظلم وتفادياً من الفتنة .

ولقد روى في صدد هؤلاء المرتدين أن ارتدادهم قد وقع حينما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخبر إسرائه من مكة إلى بيت المقدس ، وقد أشرنا إلى هذا من قبل ؛ ونحن لا نستبعد أن يكون خبر افتتان بعض المسلمين في سياق خبر ذلك الحادث ، ونتيجة لتهويش

الزعماء واستغلالهم على ما ذكرناه قبل ـ صحيحاً ؛ بل إن صحة هذا راجحة استلهاماً من نص آية الإسراء (٦٠) « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » . غير أننا نرجح أن حادث الارتداد الذي أشارت إليه الآيات قد كان بسبب آخر ، وهو سبب وظروف ما حكته الآيات التي سبقت هذه الآيات من تبديل آية بآية ، وما كان من استغلال زعماء الكفار المعاندين للحادث وتهجمهم على النبي صلى الله عليه وسلم بمناسبته ينسبون إليه الافتراء والتعلم من الأعجمي . وترجيحنا قائم على أن الآيات جاءت عقب آيات الحادث أولا ، وقد سبق آيات الحادث آيات فيها تشديد على الوفاء بعهد الله وميثاقه ؛ وتنديد بالناقضين وتنويه بالموفين بعهد الله والمستمسكين به . وهكذا تكون سلسلة الآيات آخذا بعضها برقاب بعض .

والحادث على ما يبدو من آياته ومما سبقها ولحقها من آيات تتضمن آثاره ونتائجه من الأحداث الخطيرة في العهد المكي ؛ سواء في ذاته أو فيما كان من استغلال زعماء الكفار له في سبيل الصد والفتنة ، أو فيما كان من آثاره ونتائجه التي ذكرناها قبل . وهذه هي الآيات التي تتضمن الإشارة إلى الحادث :

« فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ . إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ . وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ... النحل ٩٨ ـ ١٠٥

وروح الآيات ومضمونها في الجملة يلهم أنها نزلت في صدد حادث له صلة بالقرآن ،

ويلهم أنه أوحى للنبي صلى الله عليه وسلم ببعض الآيات لتكون مكان بعض آيات أخرى؛ فلما تلا الجديدة وأهمل الأولى استغل زعماء الكفار ذلك، فأخذوا يشنعون عليه ويهاجمون دعواه كون القرآن وحياً إلهياً، وينسبون إليه الافتراء والتعلم من الشخص الأجنبي المعين؛ ولعلهم قالوا إن الشيطان هو الذي يوسوس له ويلقي عليه لا الملك، وأن التبديل دليل على ذلك، فالشيطان محل خطأ والملك لا يصح أن يخطيء؛ واستغلوا الحادث في الصد والتأثير في بعض المسلمين، وتوسلوا بالإغراء إلى جانب الاستغلال والتهويش، وكان من نتيجة ذلك أن ارتد بعضهم استجابة لهذه الدعاية واستحباباً لمنافع الدنيا معاً؛ فجاءت الآيات تثبت النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وتهاجم الصادين والمرتدين وتحمل عليهم الحملة الشديدة التي تمثلها الآيات؛ فليس للشيطان سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله؛ وإنما سلطانه على الذين يشركون به، وهم المشركون، وإن الله هو الأعلم بمقتضيات حكمة التنزيل، وكل تبديل وتنزيل إنما هو من وحي الله وتنزيل روح القدس ملك الله الأكبر، وليس للنبي إلا اتباع ما يوحي به إليه؛ وإن الذين لا يؤمنون بآيات الله كما تنزل وفق حكمة تنزيله هم الكاذبون المفترون، وهذا مما تنزه عنه النبي؛ والرجل الذي ينسبون إليه تعليم النبي هو أعجمي اللسان في حين أن القرآن عربي مبين؛ فحجتهم ساقطة بنفسها .. الخ. أما الآيات التي سبقت هذه الآيات فهي هذه:

« وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلَا تَشْتَرُواْ

بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... النحل ٩١ ـ ٩٧

ومع أن الآيات عامة التلقين الأخلاقي والاجتماعي ، فإن روحها ، وبعض عباراتها عند إنعام النظر فيها ، ثم ورود آيات الحادث ونتائجه عقبها ـ كل ذلك يلهم أنها نزلت بمناسبته ، وجاءت كحملة تمهيدية على الصادين عن سبيل الله والناقضين لعهده ، واحتوت حثا على الصبر وعدم نقض عهد الله بالثمن الدنيوي ، لأن ما عند الله خير مما عند الناس . والمتبادر لنا من روح الآيات ومضمونها أن نقض عهد الله فيها يعني نقض عهد الإسلام .

وواضح أن نزول الآيات بمناسبة الحادث وما تضمنته من حملة وحث وتلقين في صدده لا يتعارض مع عمومية تلقينها ، بل إن هذا هو الذي جرى عليه القرآن عامة ؛ فالآيات والفصول القرآنية كانت تنزل بمناسبات أحداث ومشاهد السيرة ، مع تضمنها تلقينات وتشريعات وتعليمات عامة مستمرة المدى . . .

الصورة الخامسة

في سورة العنكبوت مقاطع عدة متصلة بمحنة الأذى والفتنة ومشاهدها :

(١) فقد جاء في مطلعها الآيات التالية :

« الٓمٓ . أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ . أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ . مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٰتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ

لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... ١ — ٧

وبعض الروايات يذكر أن الآيات مدنيات ؛ وطابع الآيات وأسلوبها ومضمونها يتسق مع رواية مكيتها كما هو المتبادر .

ويستلهم منها أن صبر بعض المسلمين على الإزعاج نفد أو كاد ، وأن الضيق عليهم بلغ مبلغاً شديداً حتى أخذوا يشكون ويتذمرون ؛ فقد احتوت عتاباً ممتزجاً بالتشجيع وحسن الوعد .

(٢) وقد تبع الآيات المذكورة الآيتان التاليتان .

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ... ٨ — ٩

وبعض الروايات يذكر كذلك أن الآيتين مدنيتان نزلتا في مسلم اضطهده والداه فعصاهما وهاجر ، كما أن بعضها يذكر مكيتهما ونزولهما في حق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه التي غضبت من إسلام ابنها وأخذت تلح عليه بالارتداد[1] ، ومكيتهما هي الراجحة استلهاماً من مضمونهما الذي يتسق مع كونهما بحق مسلم في مكة متعرض لإلحاح والديه بالكفر أكثر منهما بحق مسلم عصا والديه وهاجر من مكة ؛ إذ تستهدفان تثبيت الابن المسلم في إسلامه فتقرران أن ليس على المرء لوالديه إلا الرفق والحسنى ، وليس عليه لهما الطاعة إذا أراداه على الكفر والشرك بالله . ويبدو أن في هذا استدراكا لوصايا الله التي وردت مطلقة بحق الوالدين في سور متقدمة على هذه السورة ، مثل ما ورد في سورة الإسراء :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ... ٢٣

---

(١) مما رواه الطبري في سياق تفسير آيات سورة العنكبوت أن سعداً رضي الله عنه قال لأمه (يا أمه والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفسا ما تركت ديني)

ومثل ما ورد في سورة الأنعام :

« قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... ١٥١

إذ يحتمل أن تكون جعلت بعض المسلمين يغالون في تقدير واجبهم نحو والديهم الكافرين ، فرأوا أنفسهم في موقف حرج إزاء أمرهم إياهم بالارتداد ، فأوحى الله بالآيات لوضع الأمر في نصابه الحق . ولقد احتوت سورة لقمان آيتين مماثلتين وهما :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ... ١٤ ـ ١٥

وهاتان الآيتان جاءتا استطراداً على الأرجح في سلسلة مواعظ لقمان ، ويدل مضمونهما على أنهما استهدفتا نفس الهدف الذي استهدفته آيتا العنكبوت ، واحتوتا إيضاحاً أكثر ، بما هو الواجب على الولد نحو والديه الكافرين ، وهو الحسنى بما يتعلق بأمور الدنيا فحسب .

وهذا التكرار يدل على أن محنة غضب الوالدين واضطهادهما وإلحاحهما لم تكن مقصورة على حادث واحد ، بل تعرض لها أكثر من واحد من المسلمين في مكة ممن كانوا يمتون إلى البيوت القرشية الوجيهة . وهذا مشهد جديد من مشاهد الأذى والفتنة كما هو المتبادر ، كما أن فيه مغزى عظيما وهو أن بعض فتيان هذه البيوت أقبلوا على الدعوة والاستجابة إليها والالتفاف حول صاحبها برغم مواقف آبائهم وذويهم من معارضتها والصد عنها حتى إذا اشتد عليهم الضغط والإلحاح هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم على ما نبهنا عليه ونوهنا به قبل قليل .

(٣) وقد تبع الآيتين الآيتان التاليتان أيضاً :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ . . .

العنكبوت ١٠ – ١١

والروايات تذكر أن الآيتين مدنيتان ، وبعض عباراتهما مثل « ولئن جاء نصر من ربك » ومثل « والمنافقين » يمكن أن يقويا رواية مدنيتهما ، لأنها أشبه بصور المدينة وظروفها ؛ غير أن محتويات القسم الأول من الآية الأولى هي مشاهد وظروف مكية في الغالب ، كما أن محتويات الآيتين التاليتين لهما والمعطوفتين عليهما وهما :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ... ١٢ – ١٣

هي مشاهد وظروف مكية أيضاً ، ولذلك فإنا نرجح مكية الآيتين ١٠ – ١١ ولقد احتوتا مشهداً من مشاهد الأذى والفتنة ؛ إذ تلهمان أن بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام الأذى والاضطهاد وعمدوا إلى النفاق للكفار ومسايرتهم .

(٤) أما الآيتان ١٢ – ١٣ ففيهما مشهد متمم لذلك المشهد ، وأسلوب جديد من أساليب صد الزعماء عن الإسلام وإغراء المسلمين وفتنتهم ؛ إذ تلهمان أنهم كانوا يعمدون أحياناً إلى طمأنة المسلمين الذين يستشعرون فيهم عدم العمق في الإيمان أو انهيار الأعصاب فيتعهدون لهم بحمل ذنوبهم وخطاياهم إذا هم رجعوا إلى دين آبائهم وتخلوا عن الدين الجديد . والراجح أن الزعماء كانوا يستعملون هذا الأسلوب مع الذين لا يقدرون على اضطهادهم من أهل العصبية من المسلمين . على أنه لا يبعد أنهم كانوا يقولون هذا القول للمسلمين في معرض الحجاج والجدل حينما كان هؤلاء يذكرون لهم

هول القيامة ومصير الكفار الآثمين فيها ، وإن كنا نرجح الأول بسبب مجيء الآيتين بعد آيتي الفتنة والأذى وما كان لهما من أثر في بعض الضعفاء في الأعصاب أو الإيمان :

الصُّورة السَّادسة

في سورة الحج الآيات التالية :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ . يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ . يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ . إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ... ١١ ـ ١٥

وأكثر الروايات على أن سورة الحج مدنية ، وبعضها يذكر أنها مكية . ولقد توصلنا في درسنا لفصول هذه السورة إلى أن أكثرها مكي وأقلها مدني ، والآيات التي نقلناها الآن من الآيات التي رجحنا مكيتها استناداً إلى أسلوبها ومضمونها .

ولقد احتوت على ماتبادر لنا مشهداً أو صورة تمت إلى مشاهد وصور محنة الأذى والفتنة التي تعرض لها المسلمون في مكة ، وأن فيها بعض المماثلة للمشهد الذي تضمنته آيتا العنكبوت (١٠ ـ ١١)؛ إذ يظهر أن بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام المحنة ولم يطيقوا تحمل الأذى والاضطهاد أو المقاطعة والصبر عليها، وأنهم أبدوا شكهم في نصر الله الموعود للمسلمين ؛ فنزلت تحمل على هذا النوع من الناس بأسلوب عام حملة لاذعة ، في سياق بيان مراتب الناس من عبادة الله والاعتراف به والإخلاص له ؛ فالمخلص يجب أن يؤمل في رحمة الله ونصره وإن تأخرا ، وإذا لم ينلهما في الدنيا فهو نائلهما في الآخرة ، والإيمان

المشروط بألاّ ينال صاحبه إلا النفع لا يليق بمؤمن صادق ، لأن الإيمان مسألة مستقلة لا علاقة لها بأعراض الدنيا المتقلبة على الناس ؛ ومثل المغيظ المحنق من بطء نصر الله ، والذي يرتد ويجحد من أجل ذلك ، مثل الذي يغتاظ من أمر ما فيعمد إلى شنق نفسه بالحبل ، فهو في عمله غير مشتف من غيظه وغير ضار بأحد وغير مهلك إلا نفسه . وفي الآية الأخيرة خاصة معالجة روحية قوية نافذة من دون ريب في مثل الحالات التي جاءت بصددها ، كما أن مجموع الآيات هي في الوقت نفسه بسبيل طمأنة من تعرض للأذى والحرمان بسبب إسلامه ، والتنديد بالذين لم يصبروا عليهما فخاروا وارتدوا . . .

الصُّورَة السَّابِعَة

في سورة العنكبوت الآيات التالية :

يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَٱعْبُدُونِ . كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ . ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ... ٥٦ — ٦٠

والآية الأولى متقاربة مع آية الزمر (١٠) التي أشرنا إليها في فقرة سابقة من هذا المبحث وقلنا إنها جاءت بين يدي الهجرة إلى الحبشة مثبتة مشجعة آذنة بالهجرة . ولما كانت سورة العنكبوت من آخر ما نزل من القرآن في مكة فإن من السائغ أن يقال إن هذه الآيات قد نزلت في ظرف اشتدّت فيه الأزمة على المسلمين من جهة ، وتم فيه الاتصال الأول بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء يثرب ورحب هؤلاء بمن يريد أن يهاجر من المسلمين المضطهدين إليهم من جهة أخرى ؛ فاحتوت التثبيت والتشجيع والإذن ؛ ويحتمل بل يستلهم منها أن بعض المسلمين قد تهيبوا الهجرة وخافوا ، أن يلقوا حتفهم أو يلقوا العنت والحرمان وضنك العيش في دار الغربة ، فبثت الآيات فيهم الطمأنينة ونفت عنهم المخاوف ؛ فأرض الله واسعة وعلى عباده أن يعبدوه دون مبالاة بشيء ،

والموت على رقاب الناس جميعاً أينما كانوا فليس ثمة محل للتخوف منه ، والله الذي يرزق كل دابة وفي الدواب كثير لا يكسب رزقه ـ حقيق بأن يتكفل برزقهم فليس ثمة مبرر للخوف من الجوع والحرمان . . .

ولا نشك في أن الآيات قد بثت في نفوس الخائف الطمأنينة ، وأن حركة هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب قد بدأت وتوالت بعدها ؛ وهي الحركة التي كان فيها للمسلمين الفرج الأعظم من شدتهم ، والتي كان فيها بدء عظمة الإسلام وقوته وتعاليه بعد أن ظل في نطاق ضيق محفوف بالمحن والأخطار ؛ بل التي لو لم تكن لكان من المحتمل أن يتغير مجرى حدث من أعظم أحداث التاريخ ؛ إلى غير ذلك مما هو مندمج في هذه الآية التذكيرية من آيات الأنفال :

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .

٢٦

ولقد كان إقدام المهاجرين على الهجرة في سبيل الله وقد تخلوا عن أموالهم ووطنهم واسترسلوا في عداء وقطيعة شديدين مع قومهم عملا رائعاً عظيما عبر عنه الثناء القرآني العظيم :

« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . . .

الحشر ٨

هذا ؛ ولقد جاء في سورة آل عمران الآية التالية :

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ...

١٩٤

ويلاحظ أنه ورد فيها كلمات الهجرة والإخراج والأذى معاً ؛ ولا بد أن يكون قد قصد بجمع الكلمتين الأوليين خاصة ، الدلالة على معنيين في صدد الهجرة ، وهما فيما يتبادر لنا ؛ الهجرة الحرة والهجرة الاضطرارية ؛ ونعتقد أنه من السائغ أن يقال إن من المهاجرين من هاجر استجابة لتشجيع النبي صلى الله عليه وسلم وإذنه وتبرما بحالة المسلمين في مكة بوجه عام دون أن يكون مطارداً أو مضطهداً بالذات ، ومنهم من هاجر نتيجة للأذى والخطر اللذين كانا يناله شرهما .

الصورة الثامنة

في سورة الحج الآيات التالية :

« وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ...
٥٨ ـ ٥٩

وفيها النص الصريح على أن فريقاً من المسلمين هاجروا من مكة فلاقوا حتفهم موتاً وقتلا ، وإنهم بسبيل التنويه بهم والإخبار عنهم : ولقد سبق الآيتين آيات روي أنها نزلت في طريق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه من مكة إلى المدينة ، وهي :

« وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ . وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . . .
٥٢ ـ ٥٤

ولقد روي أن هذه الآيات نزلت في شأن حكاية الغرانيق التي قيل فيها : إن النبي تلا أثنـاء تلاوته سورة النجم في فناء الـكعبة آيات ليست من القرآن وهي « تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى » ، وإنها من إملاء الشيطان ، وإن معنى « تمنى » في الآية الأولى « قرأ » ومعنى « أمنيته : قراءته » غير أن في هذا التفسير تكلفاً ظاهراً ، منه أنه يقتضي أن يكون كل رسول ونبي قبل النبي قد وقع له مثل ما وقع للنبي وجرى على لسانه أثناء قراءته كلام الله : آيات ليست منها ، كما أن في الرواية تهافتاً من وجوه عدة وغير متسقة مع مضمون ومدى الآيات على ما فصلناه في تفسيرنا وألمعنا إليه في مناسبة سابقة . ولقد رجحنا أن يكون الوجـه في تأويلها هو « أن الله لم يرسل نبيـا أو رسولا وتمنى أمراً — وما يتمنونه هو نجاحهم في الدعوة — إلا وقف الشيطـان في طريق تحقيق هذه الأمنية ، ولـكن الله يؤيد رسوله ويحكم آياته ويحبط وساوس الشيطان وموقفه بحيث لا يغوى بها إلا مرضى القلوب وقساتهـا وخبثاء النية والسريرة ، أما الذين أوتوا العـلم والإذعان فيدركون أن ما جاء من آيات الله هو الحق فيؤمنون به وتخشع له قلوبهم » وهذا التأويل يتسق مع رواية نزول الآيات على النبي في طريق هجرته ، ويتجلى به قصد الله في بث السكينة والطمأنينة في نفس نبيه ممـا ألم به من إخفاق الدعوة واضطراره أخيراً إلى هجرة وطنه خفية ، وفي بث السكينـة والطمأنينة كذلك في نفوس المسلمين الذين انضووا إلى الدعوة وثبتوا عليها . وإذا كان هذا التأويل صواباً وهو ما نرجوه فمن المحتمل كثيراً أن تـكون الآيات التي بعدها بما فيها الآيات ٥٧ — ٥٩ قد نزلت معها في الظرف نفسه وتـكون هذه الآيات مما يتصل مباشرة بسلسلة الفتن والأذى والإزعاج التي ذاق المسلمون مرارتها في مكة ، وخاتمة لها في آخر العهد المـكي وبدء العهد المدني ؛ ولعل بينها وبين آيات العنـكبوت ٥٦ — ٦٠ مناسبة موضوعية ؛ إذ احتوت هذه تشجيعاً ونفياً للمخاوف من الجوع والموت ، واحتوت تلك طمأنة وتثبيتاً بمناسبة لقاء بعض المهاجرين حتفهم ؛ وقد انطوت المجموعتان على كل حال على ما كان للهجرة إلى يثرب وظروفها وحركتها من آثار نفسانية متنوعة المدى .

الصورة التاسعة

وتنبه إلى أن ماأوردناه في الفقرات السابقة هو ماذكر فيه الأذى والفتنة صراحة، وانطوى فيه صور ومشاهد عنهما؛ وأن هناك آيات مكية كثيرة احتوت تسلية وتصبيراً للنبي والمسلمين، ووعداً بنصر الله وتهديداً وإنذاراً للكفار، نزلت في مختلف أدوار التنزيل المكي يصح أن تعد قرائن على ما كان يلقاه المسلمون من الكفار أو بالأحرى من زعمائهم من عنت وشدة، وأن تلحق في باب محنة الأذى والفتنة التي امتحن بها المسلمون، وتتم بها حلقات السلسلة التي بدأت - كما قلنا - في عهد مبكر واستمرت طيلة العهد المكي، مما يمثله صراحة الآيات التي نقلناها، ويمثله ضمناً وبالقرينة الآيات الأخرى التي يمكن أن تمثل لها بما يلي:

١ — وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَـٰئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ...
إبراهيم ٢ - ٣

٢ — وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ... إبراهيم ٤٢

٣ — وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ...
إبراهيم ٤٦ - ٤٧

٤ — إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ . وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ... النمل ٩١ - ٩٣

٥ — وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ . وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ . . .

الصافات ١٧١ ــ ١٧٩

٦ — إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ . . .

غافر ٥١ ــ ٥٢

٧ — فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ...

الزخرف ٤١ ــ ٤٢

٨ — وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ . إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ . وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ . إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا . وَأَكِيدُ كَيْدًا . فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ...

الطارق ١١ ــ ١٧

الصورة العاشرة

وإتماماً للبحث نرى من المفيد أن نستعرض بعض الآيات المدنيـة المتصلة بمواقف الأذى والفتنة المكية ؛ منها ما هو بمثابة التعقيب والتذكير ، ومنها ما فيه مشاهد من المحنة استمرت تصيب المسلمين الذين عجزوا عن الهجرة إلى المدينة .

وإليك مما هو من النوع الأول :

١ ــ في سورة الحج الآيات الآتية :

« إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ

لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ . . . ٣٨ ـ ٤١

وطابع العهد المدني واضح على هذه الآيات . وفيها مما له صلة بمحنة الأذى والفتنة ، تقرير كون المسلمين مبغيا عليهم ، وأنهم اضطروا إلى الخروج من ديارهم نتيجة للأذى والاضطهاد ، لا لذنب إلا أنهم آمنوا بالله واعترفوا بربوبيته وحده ، وفيها كذلك وعد من الله بالدفاع عنهم ونصرهم وتمكينهم في الأرض وبأنه سوف يوفقهم إلى إقامة شعائر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد قال المفسرون والرواة [1] : إن هذه الآيات أولى آيات نزلت بالإذن للمسلمين بالقتال مقابلة لما يقع عليهم من ظلم وأذى ، بعد أن كانوا يؤمرون بالصبر وعدم المقابلة . وعلى هذا تكون قد نزلت قبل آيات القتال في سورة البقرة ، وأول تعقيب على الهجرة إلى يثرب وأول آيات احتوت الطمأنة والتشجيع للمسلمين في عهدهم الجديد .

ومع ذلك فهناك ملاحظتان يحسن إيرادهما في صدد هـذه الآيات . الأولى أنها لا تأذن ولا تأمر بالقتال خلافاً لما ذكرته الروايات التي رواها المفسرون . وإنما تقرر حالة الظلم الواقع على المسلمين وتعدهم بنصر الله . وقد تكون تضمنت تبرير المقابلة بالمثل . والثانية أن الآية الأولى منها صريحة بأن المسلمين كانوا يقاتلون في حين أنه ليس هناك رواية فيما اطلعنا عليه تذكر أنه كان عدوان حربي جماعي من مشركي قريش على المسلمين حينما كانوا في مكة . أو أنهم بدأوا بحركات هجومية على المسلمين بعد خروجهم

---

(١) انظر تفسيرها في تفسير الطبري والبغوي وابن كثير والخازن والطبرسي.

من مكة . فإما أن تكون الآية عنت ما كان ينال ضعفاء المسلمين في مكة من عدوان وأذى فردى يصل أحياناً إلى إزهاق الروح . وإما أن يكون المشركون قد اعتدوا على فريق من المسلمين عدواناً حربيا بعد الهجرة لم يرد ذكره في الروايات وسنعود إلى هذه النقطة في الجزء الثاني المعقود على السيرة في عهدها المدني لأنها ألصق به .

٢ ـ في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . . . ١٩٠ ـ ١٩٥

وفي الآيات ما هو متصل بمحنة الأذى والفتنة في مكة وهو تقرير لكون الفتنة أشد من القتل وتبرير قتال الكفار حيث وجدوا وإخراجهم مقابل ما كان من إلجائهم المسلمين إلى الخروج . والفتنة عن الدين والإلجاء للخروج إنما كان في العهد المكي . أما بقية نصوص الآيات فإنها تنظم شروط وظروف قتال الكفار وتحث على الإنفاق في سبيل الله لمنع الوقوع في الخطر والتهلكة . ومضامن الآيات تدل على مقدار ما كان لأذى زعماء الكفار واضطهادهم وفتنتهم المسلمين ومطاردتهم إياهم واضطرارهم إلى الهجرة من وطنهم من مرارة وأثر بعيد المدى في سير الدعوة في مكة وفي نفوس المسلمين أيضاً . وقد تلهم هي ومضامين الآيات بمجموعها أن محنة اضطهاد الكفار وأذاهم وفتنتهم

للمسلمين ما زالت قائمة ، إذ تأمر المسلمين بالجد في قتالهم والاستعداد له ، لأن الخطر عليهم وعلى دينهم لم يزل وإن هاجروا . ومما يتضمنه معنى بقاء المحنة أن مستضعفي المسلمين في مكة الذين لم يستطيعوا الإفلات لم يزالوا معرّضين للأذى . وقد ذكر هذا في آيات أخرى بصراحة .

وقد قال المفسرون والرواة : إن هـذه الآيات أول آيات نزلت في الأمر بقتال الكفار ؛ وليس ثمة تناقض بين هذا وآيات الحج السابقة التي إنما احتوت تقرير كون المسلمين مبغياً عليهم ، وإذناً بالقتال والدفاع ، في حين احتوت آيات البقرة أمراً بالمباشرة وتحديداً للحدود التي يحسن أن يسار في نطاقها ...

٣ ـ في سورة البقرة الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ... » ٢١٦ ـ ٢١٧

وصلة الآيات بصورة عامة والآية الثانية بصورة خاصة بمحنة الأذى والفتنة في مكة بادية ؛ إذ تبرر قتال الكفار في أي وقت ومكان بقطع النظر عن الحرمات التقليدية ، مقابل ما بدا منهم من كفر وصد واضطهاد وإخراج أهل الحرم من موطنهم ظلما وأذى ، وفتنة المسلمين عن دينهم وهي أكبر عند الله من القتل ومن تلك الحرمات ، وإذ تنذر المسلمين بشدة الكفار وتصميمهم على الاستمرار في خطتهم الباغية في قتالهم حتى يردوهم عن دينهم . وفي كل هذا ترديد في الوقت نفسه لما كان لتلك المحنة من آثار بعيدة المدى في سير الدعوة وفي نفوس المسلمين ، وإنذار لما يمكن أن يكون لها من مثل

ذلك إذا تساهل المسلمون ولم يحزموا أمرهم ...

٤ ــ في سورة الأنفال الآية التالية :

« وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ... » ٣٩

وقد ورد قريب من هذا في آية البقرة (١٩٣) . وتكرار الأمر والمدى بعد وقعة بدر ــ لأن سورة الأنفال نزلت عقبها ــ يدل على أن خطر فتنة الكفار ما زال مستمراً فاقتضت الحكمة التكرار حتى يظل المسلمون منتبهين حذرين مستمرين في أسباب إزالة هذا الخطر ، وعدم الاكتفاء بما نزل عليهم من ضربة بدر القاصمة .

الصورة الحادية عشرة

ومما يتناسب مع البحث الإشارة إلى ما كان من صد مشركي مكة المسلمين عن زيارة الكعبة ، وواجبات الحج التي ثبّت القرآن المكي جُل تقاليدها تثبيتا تشريعيا ؛ إيغالا في الأذى والنكاية والقطيعة والعداء ، ورغم ما في ذلك من نقض لتقليد مقدس راسخ يقوم عليه في الوقت نفسه أود مكة المعاشي ومجدها ونفوذها الأدبيان .

١ــ في سورة البقرة الآية التالية :

« وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ . . .

١٩٦

وتلهم أن من المسلمين من كان يمتنع عن الحج والعمرة فاقتضت حكمة التشريع ذلك :

٢ ــ وفي سورة الأنفال الآية التالية :

« وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... » ٣٤

٣ ــ وفي سورة الحج الآية التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ

لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ... » ٢٥

وهما تنصان نصا مطلقا على صد المشركين عن المسجد الحرام .

٤ ـ وفي سورة الفتح الآية التالية :

« هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ... » ٢٥

وتشير إلى حادثة معينة وهي صد مشركي مكة النبي والمسلمين عن المسجد الحرام حينما خرجوا في أواخر السنة الهجرية السادسة للزيارة وانتهت بصلح الحديبية على ماسوف نبسطه .

٥ ـ وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... » ١٣ ـ ١٥

وسورة التوبة من آخر مانزل من القرآن ، والآيات نزلت قبيل فتح مكة ، والتحريض الذي احتوته على قتال أهل مكة متلازم كما هو ظاهر مع التذكير بما كان منهم في العهد المكي من عدوان وبغي على المسلمين وتآمر على النبي . وهذا يدل على ما كان لبغيهم وعدوانهم وتآمرهم من أثر مستمر ، وما كان قائما من خطر لم يكن ليزول إلا إذا خضدت شوكتهم نهائيا .

٦ ـ وجاء في مطلع سورة الممتحنة الآيتان التاليتان :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم

بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ... » ١ ـ ٢

والآيتان متصلتان بذكريات محنة الأذى والفتنة اتصالا وثيقا كما هو ظاهر ، إذ تذكران بما كان من معالنة زعماء مكة الرسول والمسلمين بالعداء ومبادأتهم بالبغي وإلجائهم إياهم إلى الخروج من وطنهم ، وتنبهانهم إلى الخطر المستمر عليهم منهم بحيث أنهم لن يترددوا في بسط أيديهم وألسنتهم إليهم بالسوء وقتالهم وفتنتهم عن دينهم إذا ما أمكنتهم الفرصة ، ولقد نزلتا قبل الفتح المكي كآيات التوبة . وهكذا تكونان قد تضمنتا ما تضمنته تلك الآيات من تقرير استمرار أثر بغي أهل مكة وعدوانهم على المسلمين في العهد المكي .

ولقد رددت الروايات في سياق الآيتين أنهما نزلتا في مهاجر اسمه حاطب أرسل إلى بعض زعماء مكة رسالة قبيل الفتح يخبره فيها بتأهب النبي لغزو مكة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم حينما عاتب الرجل اعترف بالحقيقة ثم أكد له حسن إسلامه ، واعتذر بأن له أهلا ومالا في مكة وليس له عصبية فأراد أن يتخذ يداً عند الزعيم الذي كتب له يقي بها أهله وماله . وليس في الرواية مالا يتسق مع الآيتين إلا ما تلهمه الآية التي تلت الآيتين وهي « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم » من أن للأرحام والقربى أثراً ما في هذا الموقف . وعلى كل حال فإن الآيات لا تخلو من صلة بالمحنة وأثرها .

الصورة الثانية عشرة

وهناك بضع آيات خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ومتصلة بهذا المبحث . منها آية في سورة الإسراء وهي:

« وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ... ٧٦

ولقد جاء في بعض الروايات أنها مدنية وأنها نزلت بمناسبة تحريض اليهود النبي على الخروج للشام وقولهم له : إن الأنبياء جميعهم إنما ظهروا فيها ، وإن عليه إن كان نبيا حقا أن يتأسى بهم ؛ فتأثر النبي بذلك حتى يكاد يزمع الخروج . ونحن نشك في مدنيـة الآية وفي هذه الرواية غير الموثقة ، لا سيا أن الآية متسقة مع السياق اتساقاً تاما نظماً ومضموناً إذا ما أنعم النظر ، ، وليس مما يعقل أن يستمع النبي صلى الله عليه وسلم لوساوس اليهود الذين جحدوا رسالته ونشب بينه وبينهم خلاف وجدل في عهد مبكر من الهجرة ، ونزل فيهم قرآن كثير احتوى حملات شديدة عليهم ، وصار العـداء بينه وبينهم قائما مستحكماً . هذا إلى عدم معقولية وضع الآية في سياقها إن كانت مدنية .

والذي نرجحه إن لم نقل نجزم به أن الآية تنطوي على مشهد من مشاهد العهـد المـكي ، وأنها بسبيل وصف شدة عناد وصد طغاة الزعماء ومواقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم التي أزعجته إزعاجاً شديداً حتى فـكر في النزوح عن مكة في أواسط العهد المـكي ، ولعل هذا كان إبان اشتداد الأزمة على المسلمين وتفـكيرهم في الهجرة إلى الحبشة ، فآية النحل (٤١) التي تضمنت الإشارة إلى هذه الهجرة إنما ذكرت حادثاً كان قد وقع قبـل نزولها ، ولا نستبعد استلهاماً من آية الإسراء أن يكون النبي قد فـكر في الخروج مع الخارجين ثم ألهمه الله البقاء وثبّته مع الذين بقوا وثبتوا في مكة ؛ كما لا يستبعد أن يكون قد فـكر في الخروج بعدهم وقد قل أصحابه من حوله قلة كبيرة وكان هـذا مما قوى ساعد المعارضين والصادين وأعلى صوتهم وزاد في إزعاجهم .

ولقد ذكر ابن هشام أن أبا بـكر رضي الله عنـه خرج من مكة مهاجراً في ظرف من ظروف الإزعاج ، وذلك بعـد هجرة المهاجرين إلى الحبشة ، فلقيه ابن الدغنة زعيم الأحابيش ، ولما عرف أنه خرج مهاجرا كبر عليه ذلك وقال له : إن مثلك لا يخرج .

وعلى كل حال فالآية صريحة بأنها انطوت على مشهد أو حادث خطير من مشاهد السيرة في العهد المكي متصل بشخص النبي صلى الله عليـه وسلم لم يرد عنه أي إشارة في كتب السيرة فيما اطلعنا عليه . نقول هذا ونحن نعرف أنه ورد أن النبي خرج إلى الطائف قبل سنتين من الهجرة إلى يثرب ؛ ولـكنا نعتقد أن الآية ليست بسبيل الإشارة إلى هذا لأنها لا تذكر خبر خروج فعلي حين أن الخروج المروي إلى الطائف كان فعليا .

٢ ــ وحادث خروج النبي (صلعم) إلى الطائف ذكر في روايات التفسير والسيرة في سياق تفسير آيات سورة الأحقاف هذه :

« وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ . قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ... ٢٩ ــ ٣٢

بحيث نرى مسوغاً لإيراد خبره في هذه السلسلة في نطاق منهج الـكتاب . وقد كان من آثار محنة الأذى .

ومما ترويه الروايات المذكورة[1] أنه لما ماتت السيدة خديجة أم المؤمنين في السنة الثامنة ثم لحقها أبو طالب في نفس السنة وكان الاثنان من أقوى أنصار رسول الله ومؤيديه نالت منه قريش من الأذى مالم تـكن تنال منه في حياتهما وبخاصة أبي طالب حتى لقد روى أن سفيهاً من قريش نثر التراب على رأسه فعاد إلى بيته فقامت إحدى بناته تغسله عنه وهي تبكي فقال لها: لاتبكي يابنية فإن الله مانع أباك ثم قال (مانالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨ ــ ٣١ وانظر تفسير آيات الأحقاف في تفسير الطبري والبغوي والخازن وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٨٠ ــ ٨٢ .

مات أبو طالب). ثم اعتزم الخروج إلى الطائف رجاء هداية زعمائها والحصول على نصرتهم ومنعتهم فذهب وتحدث إليهم فسخروا منه وكذبوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم فسبوه وحصبوه حتى ألجأوه إلى حائط (بستان) فأخذ يناجي ربه ويقول (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي . وقلة حيلتي وهواني على الناس . ياأرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين. وأنت ربي إلى من تكلني . إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي . ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات . وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك) ورق له قلب ابني ربيعة عتبة وشيبة فدعوا غلاما نصرانياً لهما اسمه عداس وأمراه بأخذ قطف من عنب وتقديمه إليه ففعل، فلما وضع رسول الله يده قال بسم الله ثم أكل فقال عداس ليس هذا مما يقوله أهل هذه البلاد فسأله وما دينك؟ فقال له أنا نصرانى من نينوي فقال له من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له ومايدريك به ؟ فقال له هو أخي كان نبياً وأنا نبي. فأكب عداس على رأس رسول الله ويديه وقدميه . فلما عاد إلى ابني ربيعة سألاه فقال لهما : مافي الأرض خير منه لقد أخبرني بأمر مايعلمه إلا نبي . ثم انصرف رسول الله راجعاً إلى مكة وفي طريق عودته أوحى الله إليه بآيات الأحقاف يخبره فيها بأن نفراً من الجن استمعوا إليه وهو يتلو القرآن فآمنوا فكان في ذلك له تعزية عظيمة . فإذا كان مشركو العرب يكذبونه ويؤذونه فالجن الذين هم أقوى منهم وأعتى يؤمنون به ويبشرون برسالته .

٣ – ومنها آية في سورة الروم وهي :

« فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ... ٦٠

والآية تلهم أنها نزلت في ظرف اشتداد الأزمة والمناوأة حتى فكر النبي صلى الله عليه وسلم بالقيام بحركة ما فتضمنت تثبيتاً وتوكيداً بنصر الله وتحقيق وعده ، وأمراً بعدم التأثر من موقف الكفار تأثراً يحمله على مافيه حركة غير مناسبة الأوان . وسورة الروم من آخر مانزل من القرآن المكي ؛ولا نستبعد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد اتصل

قبل نزول الآية بأهل يثرب ورأى منهم ترحيباً، وأن يكون قد فكر في الاستعجال بالخروج إليهم فثبته الله؛ لأن الوقت المناسب لم يكن قد حل بعد .

٤ ــ ومنها آية في سورة الأنفال المدنية جاءت للتذكير وهي :

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ... ٣٠

والآية صريحة بأن الحقد والعداء قد بلغا في زعماء مكة نحو النبي صلى الله عليه وسلم مبلغا جعلهم يأتمرون فيما بينهم في الوسائل التي يقضون بها عليه أو يحولون دون استمراره في الدعوة بعد أن رأوا أن كل ما كان منهم من صد ومناوأة وأذى لم يجد نفعاً : وبعد ما أملوا في موته وانقضاء أمره كما حكته عنهم بعض آيات سورة الطور :

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ... » ٣٠ ــ ٣١

فلم يتحقق أملهم ؛ ولقد فكروا على ما ذكرته الآية في ثلاث وسائل وهي حبسه أو اغتياله أو نفيه . وروايات السيرة تذكر أن قرارهم قر على الاغتيال على شريطة اشتراك شبان من مختلف بيوتات قريش فيه حتى يتوزع ثأره ولا يبقى إمكان لآله أن يطالبوا به والروايات تذكر كذلك أن هذا قد كان في أخريات العهد المكي وأن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم شخصياً قد وقعت على أثر وصول خبر قرار الاغتيال إليه . ولقد ذكرت الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم اتصل في السنة الحادية عشرة من البعثة ببعض أهل يثرب فآمنوا به وأنه جاء في السنة التالية وفد منهم وبايعوه ، وأن الإسلام بعد ذلك أخذ يفشو في يثرب ، وأن وفداً كبيراً آخر جاء إلى يثرب فجددوا البيعة ورحبوا بهجرة النبي والمسلمين إليهم ، وعاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على نصرته والدفاع عنه ، وأن الهجرة إلى يثرب قد بدأت بعد ذلك . والروايات سائغة وليس فيها ما يحمل على التوقف .

فمن المحتمل كثيراً أن زعماء مكة قد أخذوا يتوقعون العواقب الوخيمة لنجاح هذه الحركة وانتشار الدعوة وفوزها ، وسقوط هيبة مكة وإمامتها ومنافعها ، ونشوب العداء بينهم وبين أهل يثرب وهي على طريق قوافلهم التجارية ، فرأوا أن الوسيلة الوحيدة لتدارك هذه العواقب هي القضاء على شخص السيد الرسول . وعدم تفكيرهم بمثل ذلك إلا بعد اتصال النبي بأهل يثرب وبدء حركة هجرة المسلمين إليها مما يدل على أنهم لم يكونوا يشعرون بخطر عظيم للدعوة ، وأنهم كانوا يرون أن ما كان منهم من مناوأة لها وصد عنها ، وموالاتهم لأذى من يقدرون عليه من المسلمين ـ كاف لإبقائها في نطاق ضيق محفوف بالخطر من شأنه أن ينتهي بالمسلمين إلى التبرم بها والسأم منها وضيق الذرع بها وتفرقهم عنها ، كما أنهم كانوا يرون على كل حال أن هذه النتيجة حاصلة إذا مالقي النبي صلى الله عليه وسلم حتفه عاجلا أو آجلا مادامت دعوته تظل في هذا الحال من الضيق والحرج . ففضلوا تربص ريب المنون به كما حكته آية الطور ، بل إنهم رأوا أمارات ذلك حينما مات أبو طالب أقوى حماته العصبيين والسيدة خديجة رضي الله عنها أقوى أعضاده الروحيين ، واشتد عليه الحرج حتى خرج إلى الطائف ولم يستطع أن يدخل مكة بعد عودته منها مخفقاً إلا بجوار أحد الزعماء على ما ذكرته روايات السيرة . فمن الطبيعي والحالة هذه أن يهمهم أمر اتصاله بأهل يثرب وتفاهمه معهم وهجرته إليهم ، وأن يحسبوا لذلك أعظم الحساب بعد أن رأوا أن الغلبة لهم قد تمت أو كادت ، وأن دعوته قد أخفقت أو كادت ، وأن أمره لن يلبث أن يذهب بدداً .

وما ذكرته الآية من التآمر على حبسه أو إخراجه بالإضافة إلى قتله يدل على أن السلطات الرسمية في مكة قد اشتركت آخر الأمر في هذا الموقف الخطر واندمجت فيه لأنها استشعرت الخطر العظيم الذي قد يحدق بمكة ويهدد مصالحها الكبرى من نجاح هجرة النبي إلى يثرب وعواقبها . ويتبادر لنا أن القصد من فكرة الإخراج هو نفي النبي بالقوة من مكة إلى مكان يضطر إلى البقاء فيه مشلول الحركة مأمون الخطر والعاقبة ؛

فليس ثمة معنى غير هذا للتآمر على إخراج النبي في جملة ما خطر لبالهم من وسائل يتفادون بهـا خطره .

٥ ــ ومنها آية في سوة التوبة وهي :

« إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٤٠

والآية تذكر بمـا كان من عناية الله ونصره لنبيه حينما اضطر إلى الخروج من مكة على أثر وصول الخبر إليه بقرار اغتياله على ما ذكرناه سابقاً .

والمجمع عليـه أن صاحبـه هو أبو بـكر رضي الله عنـه الذي خرج وإياه من مكة مستخفيين . ولقـد ذكرت الروايات[1] أنه قـد كبر على زعمـاء قريش إفلات النبي من أيديهم ، وقـد كانوا أدركوا الخطر العظيم الذي يحـدق بهم في حالة إفلاته ووصوله إلى يثرب ؛ فأرسلوا خلفه من يبحث عنه ويقبض عليه ، ويحول دون استمراره في طريقه ؛ وشعر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فاختفى هووصاحبه في الغار الذي تذكر الرواياتأنه في جبل أبي ثور من الجبال المحيطة بمـكة ريثما يخف الطلب ، وليس في الروايات ما لا يتسق مع الآيات .

والآية تتضمن التنويـه بالعنـاية الربانيـة بالنبي أولا ، وبمـا كان من رباطـة جأشـه في هـذا الموقف العصيب ثانيـاً ، ثم بمـا كان من أثر إفلاته ونجـاحه والتحاقه بالمـدينـة في قوة الإسـلام وانتشـاره وكبت أعـدائه مما هو منـدمج في الفقرة الأخيرة منهـا .

ومما لا ريب فيـه أن هـذا الحـادث العظيم من أعظم حوادث السيرة النبوية شأناً

---

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٣٨ ـ ٥٣

وأبعدها فيها مدى ، وأنه التاج الذي كلل حركة هجرة المسلمين إلى يثرب التي بدأت قبله، والتي قلنا إنها كانت بدء تعالي الإسلام وعظمته ؛ بل من الحق أن يقال : إن نجاح النبي في الإفلات هو الأصل الأقوى فيما كان من آثار هذه الحركة .

ومهما كان من أمر زعماء مكة وتآمرهم ، وظروف هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية ، فإن هناك نقطة جديرة بالذكر والتنويه في صدد عظمة أخلاق السيد الرسول ورباطة جأشه وحرصه على المؤمنين ورأفته بهم ؛ وهي أنه لم يستعجل بالهجرة شخصيا عقب أخذه البيعة على النصر والدفاع من زعماء يثرب ، وظل في مكة يدبر أمر هجرة أصحابه ويشجعهم عليها ويرعى سيرها ، ويخلفهم – على ما يتبادر – في قضاء ما كان حتما عليهم قضاؤه من أمور إلى أن تمت هجرة من اعتزم الهجرة أو غالبيتهم .

الصّورة الثالثة عشرة

هذا وبمناسبة هذه الآيات الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم في صدد محنة الأذى والفتنة ونتائجها رأينا أن نبحث عما إذا كان نال النبي شخصيا شيء من الأذى عدا ما كان من التآمر عليه ، واضطراره إلى الخروج خفية ومحاولة اللحاق به فنقول :

أولا : إنه ليس في القرآن شيء صريح من ذلك إلا ما حكته آيتان في سورتي الأنبياء والفرقان من استهزاء الكفار به وهما هاتان :

١ — وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ...

الأنبياء ٣٦

٢ — وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا . . .

الفرقان ٤١

ثم النعوت المتنوعة التي كانوا ينعتونه بها من كاذب ومفتر وساحر وشاعر وكاهن ومجنون مما أوردنا الآيات التي ذكرت فيها في مناسبات سابقة .

وفي سورة الحج هذه الآية :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ... ٧٢

وقد تضمنت ذكر ما كان من شدة وقع القرآن على الكفار حتى يكادون يسطون بالنبي . غير أن ذلك ظل في نطاق التصور .

ثانيا : إن ابن هشام يروي روايات عديدة تذكر وقوع بعض الأذى عليه . منها ما روينا آنفاً وقوعه من نثر التراب على رأسه في مكة وسبه وحصبه في الطائف . ومنها هذه الوقائع :

١ ـ مر أبو جهل برسول الله عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف من أمره فبلغ ذلك عمه حمزة ولم يكن قد أسلم فثار غضبه فأقبل على أبي جهل في فناء الكعبة فضربه بقوسه فشجه شجة منكرة ثم قال له : أتشتمه وأنا على دينه فردّ عليّ إذا استطعت . فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل فقال لهم دعوه فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً[1] .

٢ ـ جلس عقبة بن أبي معيط إلى النبي فاستمع له فجاء إليه أُبي بن خلف فقال له وجهي من وجهك حرام إن جلست إليه واستمعت له ثانية وإن أنت لم تأته فتتفل في وجهه ففعل عدو الله ذلك[2] .

٣ ـ اجتمع أشراف قريش يوماً في الحجر فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل وقد صبرنا منه على أمر عظيم . وبينما هم في كلامهم جاء رسول الله فاستلم الركن ثم طاف فلما مر بهم غمزوه ببعض القول فكظم غيظه ثم طاف فغمزوه ثانية فوقف عليه فقال أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبيح . فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر فصاروا يرفئونه بأحسن القول

---

(١) ج ١ ص ٣١١ ـ ٣١٢ (٢) ص ٣٨٧

ويقولون له انصرف يا أبا القاسم فو الله ما كنت جهولا . ثم اجتمعوا في الغد فتذاكروا ما كان بالأمس وندموا على تركه فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون أنت الذي تقول كذا وكذا في عيب آلهتنا وديننا فقال لهم نعم أنا فتقدم واحد منهم فأخذه بمجمع ردائه فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله . وقد نالوا من أبي بكر حتى صدعوا فرق رأسه[1] .

٤ ـ كان أبو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن أبي معيط جيراناً لبيت رسول الله فكانوا يطرحون عليه رحم الشاة وهو يصلي . ومنهم من كان يطرحها في قدره إذا نصبت[2] ولا نريد أن ننفي احتمال وقوع هذه الوقائع . غير أن عدم ذكر القرآن شيئاما يدل على ذلك مع ذكره محاولات الزعماء أو فريق منهم التقرب إليه والتفاهم معه . وما يستفاد من الآيات القرآنية الكثيرة من وقوفه دائماً موقف القوي المستعلي فيما كان يتلوه من آيات فيها عنف وصفعات وبراهين دامغات . وتنديدات لاذعات يجعلنا نميل إلى التوقف في هذه الوقائع .

ولقد بقي ذوو العصبيات من المسلمين في نجوة من الأذى ، ولقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم عصبية قوية ؛ فمن المعقول أن يكون قد بقي هو كذلك في نجوة من الأذى . ولقد روى أن الزعماء كانوا يتحاشونه ويخافونه ويناشدونه الرحم أحياناً حينما يبدو عليه الغضب من موقف ما حتى لا ينزل عليه قرآن فيهم يدمغهم ويسجل عليهم اللعنة الخالدة . ونعتقد أن هذا محتمل الصحة جدا حتى مع ذكر أنهم غير مؤمنين بنبوته ؛ فقد كانوا ينعتونه بالشاعر ، وكان العرب وزعماؤهم في مقدمتهم يتحاشون الشعراء لئلا يهجوهم بهجو تسير به الركبان . كذلك كان بعضهم يعتقد أنه ساحر وبعضهم يعتقد أنه كاهن ، وكانت هذه الطبقة مما يبعث في نفوس الناس الرهبة والهيبة ؛ هذا إلى ما نعتقده من أن كثيراً من

---

(١) ج ١ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ (٢) ج ٢ ص ٢٥

الزعماء كانوا يعتقدون صدق نبوته ، وكان موقفهم منه موقف المعاند المكابر المغيظ استكباراً واندفاعا بالأنانية والأغراض الذاتية كما ذكر القرآن ذلك في آيات كثيرة نقلنا فيما سبق جملة منها .

وفي سورة الحجر آيتان مهمتان في صدد تأييد ما نميل إليه وهما :

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . . .

٩٤ ـ ٩٥

حيث يطمئن الله عز وجل رسوله ويبشره بأنه مانع عنه كيد الكافرين ومكرهم وأذاهم .

وهذا التطمين منطو كذلك في آية أخرى في سورة الطور التي هي من السور المتأخرة في النزول وهي :

« وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ . . .

٤٨

والله سبحانه وتعالى أعلم .

الصورة الرابعة عشرة

وإليك الآن ما يتصل باستمرار المحنة على المسلمين الذين ظلوا في مكة :

١ ـ في سورة النساء الآية التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا من لَّدُنكَ نَصِيراً ...

٧٥

والآية صريحة بأنه كان في مكة رجال ونساء وولدان مسلمون عجزوا عن الهجرة

وبأنهم كانوا في كرب عظيم من أهل مكة أو من ذويهم ، يدعون الله بالفرج من شدتهم . ولقد جاءت الآية في سياق تحريض المسلمين على قتال أهل مكة ؛ وهذا متصل بالعداء الذي بدأ بعدوان هؤلاء على المسلمين في مكة ؛ والآية صريحة بأن التحريض يستهدف إنقاذ المستضعفين أيضاً ؛ وهذا إنما يكون بسبب استمرار محنة الأذى والفتنة عليهم بطبيعة الحال .

٢ ــ وفي سورة النساء أيضاً الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً . إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً . وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ... ٩٧ ــ ١٠٠

والآيات صريحة بأنه كان هناك مسلمون لم يهاجروا ، وبأن منهم من كان مستضعفاً عاجزاً حقا ، كما أن منهم من ثقل عليه أمر الهجرة لسبب من الأسباب لا يبرره الإخلاص لدين الله ، ففضل البقاء ولو تعرض لمحنة الأذى والفتنة . وقد حملت الآيات على هؤلاء وأنذرتهم ، ثم حرضت على الهجرة مطلقاً وأوجبت على كل مسلم متخلف اغتنام الفرصة الممكنة لها ، لأنها تنقذه من المحنة ، وتيسر له الحرية والطمأنينة ووسائل إزعاج العدو معا . وكل هذا متصل بمحنة الأذى في مكة وآثارها كما هو المتبادر .

٣ ــ في سورة الفتح الآيات التالية :

« هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم

مِنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . ٢٥ ـ ٢٦

والآية الأولى صريحة بأنه كان في مكة رجال ونساء مؤمنون ؛ وقد تلهم روحها بأنهم كانوا يكتمون إسلامهم خشية الأذى والفتنة ؛ كما تلهم أن بقاءهم في مكة لعذر مقبول: هو العجز أو الضعف على ما هو المتبادر .

أما الآية الثانية فالمجمع عليه أنها في صدد ما كان من مفاوضة بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش في الحديبية ؛ والروايات تذكر أن النبي خرج مع المسلمين في السنة السادسة للهجرة بقصد زيارة الكعبة ، فتصدى لهم أهل مكة ومنعوهم ، وكاد ينشب القتال بينهم ، ثم جنح إلى المفاوضة في عقد صلح ؛ وقد تمسك المفاوضون القرشيون ببعض الشروط بسائق الحمية الجاهلية ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم مسايرتهم اجتهاداً منه بأن في عقد الصلح فوائد عظيمة ، وكانت هذه المسايرة مما آلم المسلمين في بادئ الأمر ؛ وقد كان من جملة هذه الشروط أن يرد النبي من يأتي إليه مسلماً من مكة إلى المدينة برغم أهله ، وعدم تقيد أهل مكة بمثل هذا الشرط فيمن يعود من المدينة إلى مكة من المهاجرين. والروايات متسقة إجمالا مع روح الآية كما هو المتبادر[1] .

ومما روى أن ابن سهيل بن عمرو مندوب قريش في المفاوضة وكان مسلماً قد فر يرسف في أغلاله التي قيده بها أبوه وجاء إلى معسكر المسلمين في الحديبية بعد أن تم الاتفاق على الشروط ، فلم يسع النبي صلى الله عليه وسلم إلا الوفاء بالشرط ورد الابن لأبيه .

وفي كل ما ذكر مما ألهمته الآيات وأوضحته الروايات المتسقة معها مشاهد متصلة بالمحنة كما هو ظاهر .

---

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٣٩ ـ ١٥٠ وابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥ ـ ٣٧١ .

٤ – في سورة الممتحنة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ... ١٠ – ١١

والآيــة الأولى صريحــة بأن بعض النساء المسلمات اللاتي عجزن في أول الأمر عن اللحوق بالمهاجرين أمكنتهن الفرصة فسارعن إلى اغتنامها . ومضمون الآيات متسق مع الروايات[1] التي تذكر أن هذا الحادث وقع بعد صلح الحديبية واغتناما لفرصته . وقد جاء ذوو النساء إلى المدينة يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصلح ، فنهت الآية عن إعادتهن وأمرت بالتعويض على ذويهن . وفرار النساء يدل بطبيعة الحال على أنهن كن يلقين الأذى ويتعرضن للفتنة في مكة ، ويدل كذلك على قوة إيمانهن وشجاعتهن في الوقت نفسه مما يحتوى في حــد ذاتــه مشهــداً رائعــاً من مشاهــد السيرة ومواقف النساء فيها .

وفي الآيتين ما يدل على أن بعض زوجات المسلمين المهاجرين قد تمسكن بكفرهن طيلة العهد المكي ، ولما هاجر أزواجهن رفضن اللحوق بهم ، وفضلن البقاء ، مع أهلهن الكفار في مكة ، كما فيها ما يدل على أن بعضهن تركن أزواجهن في المدينة وعدن منها إلى مكة أيضاً . وفي هذا وذاك مشاهد من العهد المكي كما هو واضح .

---

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٥ – ٣٧٧ وانظر تفسير الآيات في تفسير الطبري والبغوي والخازن وابن كثير .

الصورة الخامسة عشرة

بقيت نقطة نريد أن نبحثها وهي ما إذا كان من المسلمين من كان يقابل الأذى والعدوان بمثله في مكة أو همّ بذلك ، فنقول إن في بعض الآيات مايلهم الإيجاب الذي نعتقد أنه مما يتسق مع طبيعة الأمور ؛ إذ لا يصح أن يفترض خضوع المسلمين كافة للأذى وصبرهم عليه . وكان فيهم الأقوياء بأشخاصهم أمثال عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما ، كما كان فيهم الأقوياء بعصبياتهم أيضاً ، وخاصة في بيئة مثل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعصره قويت فيهما العصبية الاجتماعية ، وكانت ناظماً مهما في علاقات الناس بعضهم ببعض وحفظ حقوقهم وكراماتهم وأعراضهم .

١ – ففي سورة النساء جاءت هذه الآية في معرض التنديد بتقاعس بعض المسلمين عن الاستجابة إلى دعوة الجهاد :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ... ٧٧

وهي صريحة بأن بعض المسلمين أمروا بالكف عن القتال والاكتفاء بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في ظرف سابق ، فلما فرض عليهم القتال احتج بعضهم وبدا عليه الخوف ؛ وقد روى المفسرون والرواة [1] في سياقها أن فريقاً من ذوي العصبيات من المسلمين الأولين في مكة مثل سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم استأذنوا النبي في مقابلة عدوان الكفار وأذاهم في مكة بالمثل فلم يأذن لهم وأمرهم بالصبر ؛ والرواية متسقة إجمالا مع أول الآية ، إذ المتبادر أن يكون الأمر بالكف وعدم الإذن في ظروف مكة ، لأن القتال قد فرض في وقت مبكر من العهد المدني ، ولم يكد

(١) انظر تفسير الآية في كتب التفسير السابق ذكرها

يمر على هجرة النبي صلى الله عليه وسلم بضعة أشهر حتى أخذ يرسل سراياه . ولما لم يكن في القرآن المكي صراحة بذلك فتكون الرغبة من جانب الراغبين ، وعدم الإذن من جانب النبي مما لم ينزل به قرآن ، وهذا مما وقع كثيراً في احداث السيرة . والروايات تذكر أن التنديد موجه للمذكورة اسماؤهم آنفا ورفاقهم من المهاجرين الأولين مع أن هؤلاء كانوا وظلوا من الرعيل الأول المخلصين المستغرقين في دين الله المجاهدين في سبيله . ونستبعد جداً أن يكونوا تذمروا من فرض الجهاد وطلبوا تأجيله بعد الهجرة مع أنهم كانوا يتوقون إليه ويستأذنون به في مكة . وقد محصنا هذه النقطة في تفسيرنا استلهاما من سياق الآيات السابق واللاحق ووصلنا إلى تقرير كون المتذمرين هم من فريق المنافقين ومرضى القلوب . وكل من يتمعن في آيات سورة النساء ٦٠ ــ ٨٣ يصل فيما نعتقد إلى هذه النتيجة التي وصلنا إليها .

٢ ــ وفي سورة الأنعام الآية التالية :

« وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . . .

١٠٨

وفي الآية نهي صريح للمسلمين عن شتم الكفار أو شتم آلهتهم حتى لا يقابلوا بشتم الله ، وتقرير طبيعة بشرية بأن كل أمرئ يرى ماهو عليه هوالصواب فلا يتحمل تسفيهاً فيه ، وفيها تلقين للمسلمين أن يتركوا أمرهم لله الذي سوف يعاملهم يوم القيامة بمايستحقون وبالتالي تلقينهم الأناة وعدم الغضب .

والآية تلهم بقوة أن بعض المسلمين كانوا أحياناً يوجهون الشتائم إلى الكفار بسبيل التنديد بهم وبعقائدهم مواجهة ؛ وهذا لا يكون إلا من أناس أقوياء الشخصية ، جرآء على الباطل مهما قوى أصحابه ؛ وبالتالى تلهم بقوة أن من المسلمين من كانوا كذلك وكانوا لا يرون أن يسكتوا لبغاة الكفار وفجارهم .

٣ ـ في سورة الجاثية الآية التالية :

« قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ يَغفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ... ١٤

وقد نقل الرواة في سياقها أن بعض المشركين شتم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فشتمه وكاد الأمر يتفاقم ، فنزلت الآية تلقن سعة الصدر والصبر وعدم المضي في المقابلة إلى نهاية لاتحمد عاقبتها [1] . والرواية لاتخلو من اتساق مع الآية وروحها فيما هو المتبادر ؛ وإن كان المحتمل أيضاً أن يكون المؤمن الذي أمرت الآية بنصحه قد كان يبدي تذمره من موقف الكفار ضد المسلمين بصورة عامة ويقترح عدم السكوت لهم مما يخرج عن نطاق البحث وتأييده .

٤ ـ في سورة النحل الآيات التالية :

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ . وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ . . .

١٢٥ ـ ١٢٨

ولقد ذكرت الروايات أن الآيات ١٢٦ ـ ١٢٨ مدنيات ، وأنها نزلت على أثر وقعة أحد حينما اشتد الحزن بالنبي صلى الله عليه وسلم على استشهاد عمه حمزة رضى الله عنه وبقر بطنه ، فحلف بأن يمثل بسبعين من كفار قريش انتقاماً .

ومضمون الآيات واتصالها بما سبقها يحمل على التوقف في قبول هذه الرواية في صدد

---

(١) انظر تفسيرها في تفسير الطبري والبغوي والخازن

الآيات ، ويساعد على تأويلها بأنها تحتوي خطة ربانية قرآنية للنبي والمسلمين في الدعوة : فعليهم أن يدعوا بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادلوا بالتي هي أحسن ، فإذا قوبلوا مقابلة سيئة فلهم الخيار في المقابلة بالمثل فحسب ، مع ترجيح الصبر والتسامح وترك الأمر لله . والمتبادر أن هذا التلقين إنما جاء بسبب ما كان من مواقف الكفار التي قد لا تطاق ، وما كان يعتلج في نفوس الأقوياء من المسلمين من الرغبة في الوقوف منها موقف المقابلة ، بل قد تلهم أن بعضهم قد وقف فعلا منها موقفا شديداً ومتطرفاً [1] .

٥ ـ في سورة الشورى الآيات التالية :

« فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ . وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ . وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ . وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ . . . ٣٦ ـ ٤٣

وقد قال بعض المفسرين والرواة إن هذه الآيات أو بعضها نزلت في الثناء على أخلاق الأنصار ، كما قال بعضهم إنها أو بعضها نزلت حينما أخذ المسلمون يجاهدون انتصاراً لأنفسهم من الأذى الذي لحق بهم في مكة ، وهذا يعني أنها مدنيات في حين أن المفسرين لم يذكروا ذلك . والآيات متصلة بما قبلها وما بعدها اتصالا وثيقاً أولا ، وطابع العهد المكي وأسلوبه غالبان عليها ثانيا . وهي سلسلة رائعة في بيان خير الأخلاق التي يتحلى بها المسلم

---

(١) إن المفسر الطبري يروي مدنية الآيات على النحو الذي أوردناه . ويروي مع ذلك رواية عن بعض التابعين أن بعض المسلمين في مكة قالوا يارسول الله لو أذن لنا الله لانتصرنا من هؤلاء الكلاب . فأنزل الله الآيات . وهذه الرواية مؤيدة لما أوردناه كما هو ظاهر .

المخلص ، والحدود التي يجب أن يقف عندها المسلم في مقابلة العدوان بالمثـل ، والحث مع ذلك على الصبر والمغفرة والتسامح ، وقد تكررت السلاسل المماثلة في القرآن المـكي، كسلاسل الأنعام ١٥٠ ـ ١٥٣ والأعراف ٣١ ـ ٣٣ والرعد ١٩ ـ ٢٦ والإسراء ٢٣ ـ ٤٠ الخ .

والذي يتبادر لنـا من روح الآيات ونصها أن بعض المسلمين كانوا يودون مقابلة الـكفار في مكة على أذاهم بالمثل ولا يرون الإذعان والصبر على هذا الأذى فاقتضت حكمة التنزيل إيحاءها لتكون الخطة المثلى للمسلمين في موقفهم الحاضر آنذاك وفي كل موقف مماثل .

المبحث السابع

الأزمات النبوية النفسية

بواعث الأزمات النفسية ومداها في صفحات السيرة النبوية ــ أنواع الآيات الدالة عليها ــ الآيات الدالة على حدة الأزمات وتعليقات عليها ــ الآيات الدالة على حزن النبي وضيق صدره من مواقف الكفار وتعليقات عليها ــ الآيات المتضمنة تسلية النبي ودلالتها ــ الآيات المتضمنة تصبير النبي ودلالتها ــ تأثر النبي بطلب الكفار إقصاء المساكين عنه ــ خطور التساهل مع الكفار على باله إنما هو في ظروف أزمة نفسية ــ ما كان يثيره تمتع الكفار بالمال والقوة من أزمة في النبي ومدى ذلك ــ موقف أكثر أقارب النبي الجحودي في مكة وما كان يثيره في نفسه من أزمات حادة .

الصورة الأولى

في القرآن المكي آيات كثيرة تعبر عما كان يشعر به النبي صلى الله عليه وسلم من حزن وألم ، وتدل على أنه كان يطرأ عليه من حين لآخر أزمات نفسية حادة بسبب موقف الأكثرية الساحقة من العرب عامة وأهل مكة خاصة السلبي من الدعوة ، ثم بسبب موقف أكثر زعماء مكة السلبي والعدواني منها ومن المسلمين ؛ ومما لاريب فيه أن هذا مما يتصل اتصالا وثيقاً بالسيرة النبوية في العهد المكي ، ومما ينطوي فيه بعض صوره ومشاهده ؛ وهو ماجعلنا نفرد لهذا الموضوع مبحثاً خاصا نلم به من مختلف نواحيه .

والآيات المتصلة بهذا الموضوع أنواع : منها الصريح القوي في تعبيره ودلالته ، ومنها مايمكن أن يكون بمثابة قرائن وملهمات ، كما أن منها مايتضمن صوراً من صور العهد ويلهم أنه إنما كان في ساعة أزمة نفسية ؛ وسنستعرض الآيات على حسب هذا التصنيف ، مع التنبيه أولا إلى أننا لم نحص كل مايمكن أن يدخل في هذا الباب ، اكتفاء بما اخترنا إيراده

وعرضه ؛ وثانياً أننا رتبنا آيات سور كل صنف على حسب ترتيب نزولها ، لنساعد القارىء على معرفة ظرف الأزمة التي تعبر عنها أو تشير إليها صراحة أو ضمنا .

الصّورة الثانية

فأولا مايدل على حدة الأزمات :

١ ـ في سورة فاطر الآية التالية :

« أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ . . .

٨

إذ احتوت نهياً للنبي عن إهلاك نفسه حسرة على عدم إيمان الجاحدين ، وتسلية له بتقرير أن الهداية والضلال من الله ، وإذ تلهم أنها نزلت في وقت اشتد فيه الحزن والغم على النبي صلى الله عليه وسلم بسبب موقف الجحود الذي يقفه قومه من دعوته .

٢ ـ في سورة طه الآيات التالية :

« طه . مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ . إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ . . .

١ ـ ٣

إذ احتوت تنبيها للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله لم ينزل عليه القرآن ويندبه لرسالته ليشقى ويحمل نفسه فوق طاقتها ، وإنما لتذكير من حسنت سريرته واستشعر خوف الله ؛ وفي هذا تسلية وتسكين للنبي صلى الله عليه وسلم في ظرف من ظروف اشتداد حزنه وغمه على ماهو المتبادر .

٣ ـ في سورة الشعراء الآيات التالية .

« طسٓمٓ . تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ . لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ . إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ

لَهَا خَٰضِعِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ . . .

١ — ٦

إذ احتوت عتاباً محبباً للنبي صلى الله عليه وسلم على مايبدو منه من حزن شديد يكاد يقتل به نفسه بسبب عـدم إيمان الناس وإعراضهم ، وتسلية له وتثبيتاً ، فالله قادر على إهلاكهم ، وسوف يرون عاقبة استهزائهم بذكر الله وآياته. ومما لاريب فيه أنها نزلت في ظرف اشتد فيه حزن النبي وهمه من مواقف التكذيب والإعراض وهـذا مما احتوته الآيات صراحة أيضاً .

ومن الجدير بالتنبيه أنه أعقب هذه الآيات سلسلة من قصص الأنبياء تضمنت ما كان من مواقف الأمم السابقة عربية وغير عربية من أنبيائهم ؛ وفيها مماثلة لما كان يبدو من كفار مكة وزعمائها من مواقف ويصدر عنهم من أقوال العناد والمكابرة ، مما يصح معه أن يقال إنها جاءت بسبيل تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما ألم به ، وإعلامه أن الأنبياء من قبله قد لقوا مالقيه ، وقد سمعوا ماسمعوه ؛ هذا إلى مافيها من إنذار الكفار بعاقبة مثل عاقبة الذين خلوا من قبلهم ، ووقفوا مثل مواقفهم أيضاً .

٤ — في سورة هود الآية التالية .

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ . . .

١٢

إذ احتوت تنبيها للنبي صلى الله عليه وسلم إلى مايمكن أن يجول في خاطره من تبرم و ضيق صدر ، فيتفادى تلاوة بعض ما يوحى إليه على الكفار بسبب مواقفهم وخشيته تحديهم بالإتيان بملك يصدقه ، أو استنزال كنز يغني به ويقوم دليلا على رعاية الله له ، وإذ احتوت تثبيتا له وطمأنة ، فليس هو إلا نذيراً ، وليس وكيلا على الناس مكلفا حملهم على الإيمان.

وقد روى الرواة أن الكفار كانوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات فلا يستجيب إليهم ، ثم توحى الآيات إليه فيسخرون منه ، ويقولون : هلا استنزلت كنزاً أو أو ملكا بدلا من هذه الآيات إذا كانت من عند الله ؟ فكان يخجل ويتهرب منهم أحيانا. وليس في الرواية مالا يتسق مع الآية إجمالا .وصورة الأزمة الشديدة النفسية في الآية بارزة كل البروز

٥ ـ في سورة الكهف الآيتان التاليتان :

« فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا. إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . .

٦ ـ ٧

والآية الأولى مثل آية الشعراء الثالثة ، وفي الثانية تسلية بأن الدنيا إنما هي دار اختبار لمعرفة أعمال الناس . وتكرار الخطاب المماثل في فترتين متباعدتين يدل من دون ريب على تكرار الظروف ، وبالتالي على تكرار الأزمة من جراء موقف الجاحدين .

الصورة الثالثة

وثانيا الآيات التي تشير إلى حزن النبي وضيق صدره من موقف الكفار وأقوالهم .

١ ــ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . . .

يس ٧٦

٢ ــ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . . .

النمل ٧٠

٣ ــ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . . . الحجر ٩٧

٤ ــ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ

ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ .. الأنعام ٣٣

٥ — وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًـا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . . .
يونس ٦٥

٦ — وَٱصْبِرْ وَمَا صَـبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَاتَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْـكُرُونَ . . . النحل ١٢٧

وهذه الآيات متماثلة بعض التماثل ، وهي بسبيل الإشارة إلى ما كان يعتلج في نفس النبي من حزن وفي صـدره من ضيق بسبب مواقف الـكفار ، أو بالأحرى طغيـانهم ، الجحودية والتـكذيبية والتعطيلية والعدوانية ، وما كانوا يوجهون إليه من تهم وتحديات ويبدوا أن مواقف الجاحدين كانت أحيانا تشتد حتى تؤثر في نفسه تأثيراً شديداً وتثير فيها الحزن ، فكانت الآيات توحي إليه في هذه الظروف . وتـكرار الآيات يدل كما هو المتبادر على تـكرار المشاهد الباعثة من حين إلى آخر . . .

الصّورة الرابعة

وثالثا الآيات التي تتضمن تسلية النبي لعدم اهتداء الناس :

١ — أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً . فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَبْ ... سورة الشرح

٢ — فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ . إِنَّكَ لَا تُسْمِـعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِـعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ . وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِـعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَـا فَهُم مُّسْلِمُـونَ . . . [1]

النمل ٧٩ ـ ٨١

(١) في سورة الروم آيات مماثلة بالنص لهذه الآيات . وسورة الروم من أواخر ما نزل ، والنمل مما نزل مبكراً .

٣ — إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ... القصص ٥٦

٤ — وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ... يونس ٩٩

٥ — وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ...

الأنعام ٣٥ ـ ٣٦

٦ — وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ... الأنعام ١٠٧

٧ — إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ... النحل ٣٧

٨ — فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . . .

الغاشية ٢١ ـ ٢٢

٩ — نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ... ق ٤٥

وهذه الآيات نزلت في مختلف أدوار التنزيل المكي ، وفيها بعض التقارب في المعنى والهدف والنص كما هو ظاهر . وتكرارها يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشتد به الأمر من حين إلى حين ، لظروف أشد من ظروف ، ومواقف أنكى من مواقف ، بسبب عدم اهتداء الناس وموقفهم السلبي على شدة حرصه على اهتدائهم وخاصة من كان منهم محبباً إليه وكان يتوسم فيه الخير والارعواء ، فكانت الآيات تنزل

في هذا الظروف وبين حين وآخر مستهدفة في جملة ما تستهدفه تسليته وتخفيف ما يجده من لوعة ومضاضة .

الصورة الخامسة

ورابعا آيات التصبير :

١ — فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ . لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ... [1] القلم ٤٨ — ٥٠

٢ — فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ... ق ٣٩

٣ — قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ... يونس ١٠٨ — ١٠٩

٤ — فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ... غافر ٥٥

٥ — فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ... الأحقاف ٣٥

٦ — وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ... الطور ٤٨

---

(١) صاحب الحوت هو يونس عليه السلام ، وقد أشارت آيات في سورة الصافات إلى قصته إشارة أوضح يستفاد منها أنه لما واجهه قومه بموقف الجحود يئس منهم وهجرهم حنقا وغيظا .

٧ — فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْـــدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ . . .
الروم ٦٠

وهذه الآيات كتلك نزلت في مختلف أدوار التنزيل المكي؛ وتكرارها يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشتد به الأمر من جراء مواقف الكفار الجحودية ومكايدهم من حين إلى آخر ، بسبب ظروف أشد من ظروف ، ومواقف أنكى من مواقف ، فكانت الآيات تنزل بين حين وآخر لتثبيته ، وبث الطمأنينة والهدوء في نفسه ويُلفت النظر خاصة إلى آيات القلم ، إذ تنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يكون كصاحب الحوت الذي حدا به موقف قومه الجحودي إلى اليأس منهم وهجرهم ، مما يمكن أن يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تأثر من صدمة الجحود منذ العهد الباكر تأثراً غير يسير . كذلك يلفت النظر إلى آية الروم ، إذ توصيه بالصبر ، وألا يحمله استخفاف قومه له على الفتور أو تغيير موقفه ، أو النزوح ، مما يدل على حادث شديد الأثر أثار في نفسه شيئاً غير يسير من القلق .

الصورة السادسة

ونعتقد أن آيات سورة الأنعام ٥٢ ـ ٥٣ والكهف ٢٨ ـ ٣٠ والإسراء ٧٣ ـ ٧٥ والقصص ٨٥ ـ ٨٨ التي شرحناها في إحدى فقرات مواقف الزعماء المعتدلين في المبحث الثالث ،تنطوي على مشاهدمن أزمات النبي صلى الله عليه وسلم النفسية ؛ إذ يصح أن يقال في صدد آيات الأنعام والكهف: إن النبي إذا كان خطر على باله أن يهمل الفقراء والمساكين من المسلمين أو يصرفهم عنه حينما احتج الزعماء وطلبوا إقصاءهم عنه ليجلسوا إليه ويتحدثوا معه ، فإنما كان هذا في ساعة من ساعات أزماته النفسية ومنبعثاً عن حزنه الشديد لتمسك الزعماء بجحودهم ومعارضتهم ، ومتابعة الناس لهم ، وعن أمله في انحياز المعتدلين إلى صفه ؛ وإذ يصح أن يقال هذا كذلك في صدد آيات الإسراء والقصص ، وما يمكن أن يكون قد خطر على باله من التساهل والاستجابة لبعض مقترحات هؤلاء الزعماء .

الصُّورة السَّابعة

ومما يصح إلحاقه بهذا الباب ما كان يثيره في نفسه ونفس المسلمين تمتع الكفار أو بالأحرى زعماؤهم بزينة الحياة الدنيا من مال وبنين وجاه وقوة ، من أزمات ، إذ كان هذا في وقت كان فيه أكثر المسلمين في فقر وعوز شديدين ، وكان الأغنياء القليلون فيهم قد أنفقوا أموالهم ، وتعطلت مصالحهم بسبب مقاومة الزعماء الأقوياء لهم[1] .

وقد انطوت آيات مكية على الإشارة إلى هذا ، إذ جاء في سورة طه الآيتان التاليتان .

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ... ١٣١ – ١٣٢

إذ احتوتا نهياً للنبي عن التأثر بما يتمتع به بعض صنوف الزعماء ، وتذكيراً له على سبيل التسلية بأن هذا ليس إلا فتنة وابتلاء .

وإذ جاء في سورة الحجر أيضاً هاتان الآيتان المماثلتان بعض المماثلة للسابقتين :

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . . .

٨٧ – ٨٨

وقد احتوتا تذكيراً للنبي صلى الله عليه وسلم بنعمة الله عليه واختصاصه بالقرآن ، ونهياً عن التأثر بما يتمتع به بعض صنوف الزعماء ، وعن الحزن على عدم ارعوائهم والفقرة الأخيرة من الآية الثانية ذات مغزى خاص فيما هو المتبادر ، متصل بآيات

---

(١) في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٠ أن أبا جهل كان إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف أنبه وقال له : تركت دين أبيك وهو خير منك ، فلنسفهن حلمك ولنقيلن رأيك ، ولنضعن شرفك ! وإن كان تاجراً أو ذا مال قال له : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك .

الأنعام والكهف التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة ، إذ يستلهم منها أنها بسبيل إثارة عطف النبي على المؤمنين الذين كان أكثرهم فقراء ، واعتبارهم أفضل من الزعماء الكافرين ونتبه أولا إلى أن من المحتمل أن يكون مما أثار هذه الأزمة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من أثر تمسك الزعماء بالجحود والعناد وتأثيرهم بقوة جاههم ومالهم في سائر الناس ، وما كان من اعتدادهم بما كانوا يتمتعون به ، واعتبارهم ذلك دليل حظوة ربانية ، ومانعاً لهم من العذاب ، وسبباً من أسباب الترفع عن الانخراط في سلك واحد مع الفقراء والصعاليك ، ومؤهلا لهم لرسالة الله ، مما رددته عنهم الآيات التالية وأمثالها :

١ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ... مريم ٧٣

٢ — أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ... المؤمنون ٥٥ ـ ٥٦

٣ — وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ... سبأ ٣٥

٤ — وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ... الزخرف ٣١

وثانياً إلى أن القرآن قد حكى مثل هذا الخاطر أو الأزمة النفسية النبوية عن موسى صلى الله عليه وسلم في إحدى آيات سورة يونس وهي :

« وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ... ٨٨

مما يمكن أن تكون مما أورد على النبي صلى الله عليه وسلم خاطره وبرره له ، وأثار فيه أزمته النفسية أسوة بموسى عليه السلام .

الصورة الثامنة

وأخيراً نأتي إلى نقطة هامة نعتقد أنها كانت مما يثير في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أزمات نفسية حادة من آن لآخر ، ونظن أن بعض الآيات التي استعرضناها قد نزلت بسببها ، أو كانت فيما استهدفته في سياق تهدئة روع النبي ؛ ونعني بها تمسك أكثر أقارب النبي الأدنين بدين الجاهلية ، وعدم متابعتهم الدعوة مع أنهم كانوا يتعصبون لنصرته بقوة العصبية الاجتماعية ، وقد كان ذلك موضوع تنديد قرآني في آية من سورة الأنعام على ما قرره كثير من المفسرين وهي : « وهم ينهون عنه وينأون عنه ... ٢٦ » إذ قالوا في تفسيرها ما مفاده أن أقارب النبي الأدنين وخاصة عمه أبا طالب كانوا ينهون عن مس النبي صلى الله عليه وسلم بالأذى في حين يبتعدون عن دعوته .

ومن مشاهد النقطة التي نتكلم عنها ما انطوى في آيات من سورة الشعراء وهي :

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ . وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ... ٢١٤ – ٢١٧

إذ تأمر النبي بإنذار عشيرته الأقربين بصورة خاصة ، وبإعلان البراءة مما هم عليه إذا عصوه ولم يستجيبوا إليه ، فإن من الطبيعي أن يكون هذا الأمر والاختصاص منبعثين عن وقوف أقاربه الأدنين أو أكثرهم موقف السلب والجحود من دعوته .

ولقد روى المفسرون والرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآية دعا أقاربه بني عبد المطلب وكانوا نحو أربعين رجلا إلى وليمة أول مرة فتفرقوا فور انتهاء الطعام؛ لأن أبا لهب قال لهم إن محمدا سحرهم أو سيسحرهم ، وأنه دعاهم إلى وليمة ثانية ، وقال لهم يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرني ؟ فأحجم القوم ، فقال عليّ رضي الله عنه : أنا يا رسول الله ،

فأخذ برقبته وقال : هـذا أخي ووصيي وخليفتي فيـكم فاسمعوا له وأطيعوا ، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيعه ! ومما ذكروه كذلك أنه لما نزلت الآيات صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، وجعل الذي لا يستطيع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ، وأن النبي قال لهم : أرأيتـكم لو أخبرتـكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليـكم أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فإني نذير لـكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ! ألهذا دعوتنا ؟ وهناك روايات أخرى تذكر أنه خاطب بني عبد المطلب والعباس عمه وصفية عمته وفاطمة ابنته وقال لهم : لا أغنى عنـكم من الله شيئا .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات فالآية صريحة بأن أقارب النبي صلى الله عليه وسلم أو أكثرهم كانوا إلى حين نزول الآيات على دين الجاهلية ، فأمر النبي بإنذارهم ؛ كما أنه يستفاد من الروايات بصورة عامة أن أكثر أقاربه الأدنين قد ظلوا في موقفهم السلبي بعد هذا الإنذار ، إذ مات عمه وحاميه أبو طالب على دين الجاهلية ، وظل عمه العباس كذلك إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة بمدة طويلة ، حتى إنه كان في صف الـكفار مقاتلا في غزوة بدر ومن أسراهم ، وكان في صفهم ومن أسراهم عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ابني عمي النبي أيضاً[1] ، وقد ناوأ عمه أبو لهب الدعوة أشد مناوأة إلى درجة أنه أخل بتقليد العصبية ومات على دين الجاهلية . وإذ ناوأه بعض أقاربه وإن كانوا دون أبي لهب شدة ؛ وإذ كان الذين تابعوه في العهد المـكي من أقاربه الأدنين يـكادون يعدّون على الأصابع ، بل إن عمه حمزة الذي أسلم في مـكة قد ظل

---

(١) روى الطبري في تاريخه (ج٢ص ١٦٢) أن العبـاس قال للنبي (صلعم) قد كنت مسلماً فقال له الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يجزيك . وأما ظاهرك فقد كان علينا . فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبـد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبـد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث .

بضع سنين متمسكا بدين الجاهلية ، ولم يسلم إلا في ظرف ثورة عصبية على ما ذكرته روايات السيرة .

وإنه لمن الطبيعي أن يثير هذا الموقف السلبي في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أزمات حادة من حين لآخر ؛ فقد عرفت بيئة النبي وعصره بالتضامن أو العصبية العائلية ؛ ومن المعقول أن ينظر الناس فيما ينظرون إليه من أمر دعوة النبي وسيرها إلى موقف أقاربه الأدنين منها ، وأن يكون لهذا الموقف أثر فيهم ، وأن يتخذ الزعماء موقفهم إذا كان سلبيا — كما كان الأمر واقعاً — حجة للانصراف والمكابرة والتمسك بدين الآباء وتقليدهم ، ووسيلة للدعاية بين عامة الناس ضدها . هذا إلى ما كان يعتلج في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من حزن على ضلال أقاربه وخاصة المحببين إليه منهم وما سوف يصيرون إليه من مصير رهيب ، ومن حرص شديد على هدايتهم ، مما انطوت على التعبير عنه الآيات التي استعرضناها من قبل .

المبحث الثامن

صورة متنوعة للمسلمين في العهد المكي

صلة هذه الصور بالسيرة النبوية — فقراء المسلمين ومساكينهم — أغنياء المسلمين — أقوياء المسلمين — تفاني المسلمين في تأييد النبي واتباع وصاياه — تفانيهم في الله وعبادته — أخلاقهم الكريمة — التفاوت بينهم في الطاعات — أبناء مسلمون وآباء كافرون — آباء مسلمون وأبناء كافرون — استمرار الصورتين المذكورتين إلى ما بعد الهجرة إلى يثرب — صور لما كان يقع بين المسلمين والكفار من جدل وأخذ ورد — سخرية الكفار من المسلمين — ارتداد بعض المسلمين وثباتهم على الكفر — ارتداد بعض المسلمين وتوبتهم — صور لمواقف صنف من بعض المسلمين .

الصورة الأولى

في القرآن آيات عدة نزلت في مناسبات متنوعة وفي مختلف أدوار التنزيل يمكن أن ترى فيها صور متنوعة للمسلمين في العهد المكي . ولما كانت هذه الصور متصلة بالسيرة والدعوة النبويتين وأثراً من آثارهما فقد رأينا أن نستعرضها في مبحث خاص تتم به الصورة العامة لهذا العهد ويختم به هذا الفصل .

وننبه إلى أن من هذه الصور ما مر الكلام عنه في المباحث السابقة ، ولما كان من المفيد أن يكون جميعها منتظما في سلك واحد فإننا سنكتفي بإشارة خاطفة إلى ما مر منها .

الصورة الثانية

وإليك سلسلة من هذه الصور :

(١) إنه كان بين المسلمين عدد غير يسير من الفقراء والمساكين ، وكانوا موضع استهزاء واحتقار من جانب الكفار وخاصة الزعماء ، ووسيلة إلى تعييرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهم ، وإلى الدعاية ضد الدعوة . وهذا منطو في آيات الأنعام (٥٢)

والـكهف (٢٨) التي تـكلمنا عنها في مبحث سابق ، كما هو منطو في الآيات التالية :

«وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ . . . ص ٦٢ – ٦٣

(٢) إنه كان بينهم ذوو ثروة ومال أيضاً ، ويمـكن الاستدلال على هذا بآيات عدة امتدح فيها المسلمون الذين يؤتون الزكاة والذين ينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية والذين يؤدون حق الفقراء المعلوم في أموالهم مما لا يصح أن يكون إلا من مثل هذه الطبقة كما هو المتبادر . وإليك بعض هذه الآيات :

١ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ . . . فاطر ٢٩

٢ — هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . . . النمل ٢ – ٣

٣ — إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . . .

الذاريات ١٥ – ١٩

٤ — أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . . . القصص ٥٤

٥ — قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ . . .

المؤمنون ١ – ٨

٦ — إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ . ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ . وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ . وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . . .

المعارج ٢٢ ـ ٣٤

٧ — تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . . . السجدة ١٦

٨ — وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . . . الرعد ٢٢

ومما يلفت النظر أن الآيات التي تنوه بالمؤمنين الأغنياء وإنفاقهم ، أكثر من التي تتضمن الإشارة إلى الفقراء مهم ؛ والراجح أن هذا يستهدف التنويه بالعمل الذي هو عادة مما يصعب على النفوس من جهة ،وتعظم قيمته في ظروف مثل ظروف العهد المكي وما كان فيه من كثرة الفقراء والمحتاجين بين المسلمين الذين تقتضي تلك الظروف الاهتمام لأمرهم والبر بهم من جهة أخرى .

(٣) إنه كان بينهم الأقوياء بأشخاصهم أو عصبياتهم . وهو مضمون آيات الأنعام ١٠٨ والجاثية ١٤ والشورى ٣٦ ـ ٤١ والنحل ١٢٦ والنساء ٧٧ التي شرحناها في مبحث سابق .

(٤) إنهم كانوا متفانين في تصديق النبي صلى الله عليه وسلم وتأييده ، واتباع أفضل الطرق التي يؤمرون بالسير فيها كما يستلهم من الآيات التالية :

١ — فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . . . الأعراف ١٥٧

٢ — الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الْأَلْبَـٰبِ . . . الزمر ١٨

الصورة الثالثة

(٥) إنهم كانوا متفانين في عبادة الله في الليل والنهار ، والتقرب إليه بصالح الأعمال، والاستشعار لخشيته ، والخشوع للقرآن ، كما يستلهم من الآيات التالية :

١ — أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . . . يونس ٦٢ — ٦٤

٢ — اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ . . . الزمر ٢٣

٣ — إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ . وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . . . فصلت ٣٠ — ٣٣

٤ — إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ . أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ . . . المؤمنون ٥٧ — ٦١

٥ — يُوفُونَ بِالنذْرِ وَيخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً . إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوساً قَمْطَرِيراً . . .

الإنسان ٧ ـ ١٠

٦ من هذا الباب آيات فاطر ٢٩ والأنعام ٥٢ والكهف ٢٨ والذاريات ١٥ ـ ١٩ والمؤمنون ١ ـ ١٠ والمعارج ٢٢ ـ ٢٤ وقد نقلناها سابقاً ؛ ومنه آيات الفرقان ٦٣ ـ ٧٦ التي ننقلها بعد قليل .

(٦) إنهم قد تأثروا بتعاليم الإسلام وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ووصايا القرآن تأثراً عظيماً واستغرقوا في ذلك ، وهذا يستلهم من آيات عدة أثنى الله فيها على أخلاقهم جميل الثناء ووصفها أقوى وصف كما ترى في ما يلي :

١ — وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَـٰماً . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَـٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيماً . وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا . وَالَّذِين لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُوْلَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا . خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ...

الفرقان ٦٣ ـ ٧٦

٢ — وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . . .

النحل ٤١ ـ ٤٢

٣ — أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ . ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ . وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ . وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ... الرعد ١٩ ـ ٢٢

٤ ـ من هذا الباب آيات فصلت ٣٠ ـ ٣٣ والإنسان ٧ ـ ١٠ والشورى ٣٦ـ٤٣ والمعارج ٢٢ ـ ٣٤ والمؤمنون ١ ـ ١٠ وقد نقلناها سابقاً .

(٧) على أنه يستلهم من بعض الآيات أنه كان بينهم تفاوت في الطاعة والتفاني بحيث وصف فريق بالسابقين وفريق بأصحاب اليمين وفريق بالمقتصد وفريق بالسابق بالخيرات ، وبحيث نبه على ما هناك من تفاوت في جزائهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ . . .

فاطر ٣٢

٢ — وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً . فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ . وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ ... الواقعة ٧ ـ ١٤

٣ — فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ ... الواقعة ٣٦ ـ ٤٠

٤ — فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . . .

الواقعة ٨٨ ـ ٩١

الصّورة الرابعة

(٨) إنه كان منهم من أسلم وظل أبواه كافرين وبقي متمسكا رغم إلحاحهما وأذاهما المادي والمعنوي . وهذا منطو في آيات العنكبوت ٨ ولقمان ١٤ التي تكلمنا عنها في مبحث سابق .

(٩) إنه كان منهم كذلك من أسلم وظل أبناؤهم كافرين عاقين آباءهم كما يستلهم من هذه الآية :

« وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ...

الأحقاف ١٧

ولقد ظلت الصورتان المذكورتان إلى ما بعد الهجرة من مكة إلى يثرب ، وكان لهما أحيانا أثر أليم في بعض الظروف يصل إلى حد الحرج كما يستلهم من الآيات المدنية التالية:

١ — لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ...

المجادلة ٢٢

٢ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . . .

التوبة ٢٣

على أن من الحق والواجب أن ننبه على نقطة هامة . فإن تكرر التنبيه إلى عدم الالتزام بطاعة الآباء إذا ما أمروا أبناءهم بالشرك في القرآن المكي . وهو ما جاء في آيات

سورة لقمان (١٣ ـ ١٤) وآية سورة العنكبوت (٨) التي أوردنا نصها في مناسبة سابقة يسوغ القول إن صورة إيمان الأبناء في حالة احتفاظ الآباء بدينهم الجاهلي كانت أقوى وأوسع نطاقاً . وقد عرف هذا معرفة يقينية من تراجم الرعيل الأول من مسلمي مكة وبخاصة قريش . وعرف إلى هذا من هذه التراجم أن معظم هذا الرعيل كانوا في سن الشباب أو في السن التي لم تتجاوز سن الشباب أي في سن النبي «صلعم» حين بعثته وهي سن الأربعين ودونها حيث يبدوا في هذا ظاهرة طبيعية ولكنها هامة في بابها من حيث أن سن الشباب هي السن التي تسمح لصاحبها اعتناق الجديد ونبذ القديم دون سن الشيخوخة التي كانت من أسباب بقاء معظم زعماء قريش في صف الكفار ـ على ماعرف من تراجمهم . ولقد تعرضوا لاضطهاد آبائهم وأعمامهم وزعماء أسرهم فاختاروا الهجرة إلى الحبشة بإذن الله ورسوله فرارا بدينهم . وكان العدد الأعظم من المهاجرين منهم نساء ورجال على ما ذكرناه قبل .

ولقد كانت الدعوة الإسلامية ثورة كبرى من مختلف نواحيها . فهي ثورة دينية . وثورة اجتماعية . وثورة أخلاقية . وثورة نفسية . وثورة فكرية . وثورة إنسانية . وثورة سياسية . وثورة قومية . فكان أن استجاب لها شباب قريش وقاموا بأمرها بتأييد الله وإلهامه بجهادهم وتضحياتهم وتغلبهم على تقاليد آبائهم المتنوعة . فكانوا المثل الرائع الخالد.

(١٠) إن من المسلمين أناساً ارتدوا عن الإسلام وشرحوا بالكفر صدراً وظلوا في صفوف الكفار ، كما أن منهم أناساً ارتدوا ثم ندموا واغتنموا فرصة ما فهاجروا وعادوا إلى حظيرة الإسلام مجاهدين صابرين ، وقد انطوت على ذلك آيات النحل ١٠٦ ـ ١٠٩ و ١١٠ التي شرحناها في مبحث محنة الأذى والفتنة .

(١١) إنه كان يبدو من بعضهم تبرم من شدة الأذى والمحنة والخوف منهما ، حتى إن منهم من كان يصل به الأمر إلى الختال والمراوغة والنفاق في دينه أو اليأس من نصر الله وتأييده مما انطوت عليه آيات العنكبوت ١ ـ ٦ و ١٠ ـ ١١ والحج ١١ ـ ١٦ التي شرحناها في نفس المبحث أيضاً .

فصل في الكتابيين في العهد المكي

صلة الكتابيين بالعرب الحجازيين والدعوة النبوية ـ تصنيف الآيات في أربعة مواضع ـ الأول : القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام ـ أول ذكر الكتابيين في القرآن ومداه ـ أول إشارة إلى الكتب السماوية ومداها ـ صفات النبي ودعوته الشاملة ـ تأييد القرآن لما قبله من الكتب ومداه ـ استشهاد علماء بني إسرائيل على صحة الوحي والتنزيل القرآني ومداه ـ استشهاد الكتابيين مطلقاً ومداه ـ تقرير معرفة الكتابيين للنبي والوحي القرآني ومداه ـ تنويه القرآن بأنبياء الكتابيين ومداه ـ تقرير وحدة الأسس بين الإسلام والأديان السابقة ومداه ـ تحدي الكفار باستشهاد الكتابيين ومداه ـ التقارب بين القصص القرآنية وقصص الكتب السابقة ومداه ـ هدوء الأسلوب القرآني المكي نحو الكتابيين ومغزاه ـ موقف النبي المسالم نحوهم منذ البدء ـ مايلهم الأسلوب القرآني من موقف الكتابيين موقف العطف والتأييد ـ الموضوع الثاني : صورة من سورة القصص لأيمان الكتابيين ومداها ـ صورة أخرى من سورة الإسراء ـ شهادة أحد الإسرائيليين وإيمانه ـ صورة أخرى من سورة العنكبوت لأيمان الكتابيين ـ صورة من سورة الرعد بفرحهم ومداها ـ استدراك وتعليق في صدد آية في سورة العنكبوت ـ الموضوع الثالث : الآيات التي تشير إلى اختلافات الكتابيين ومداها وأثرها ـ الموضوع الرابع : عدم ورود تفصيل عن الخلافات والانحرافات اليهودية في القرآن المكي بالنسبة لليهود المعاصرين ومغزاه ـ ماجاء في سورة مريم عن ولادة يحي وعيسى ومداه ـ ماجاء في سورة الزخرف عن عيسى ومداه ـ الفصول القرآنية عن المسيح الختوت حلا صادقاً للمشاكل والخلافات فيه ـ أثر التقريرات القرآنية في استجابة النصارى للدعوة الإسلامية

الصورة الأولى

عرف العرب الحجازيون أهل الكتاب من يهود ونصارى في بلاد الحجاز والشام واحتكوا بهم ، وأخذوا عنهم كثيراً من الأفكار والمعارف ، ومنهم من دان باليهودية والنصرانية وتضلع باللغة العبرانية ، واطلع على ماعند اليهود والنصارى من كتب ؛ وقد عرفوا كذلك ما كان عليه أهل الكتاب من خلاف وشقاق في الأمور الدينية والمذهبية، وكان لكل ذلك صدى وأثر في نفوسهم وأذهانهم على مابسطناه في كتابنا عصر النبي وبيئته قبل البعثة .

وقد كان في مكة خاصة بعض الجاليات الكتابية ، يرجع تاريخ سكناها إلى ما قبل البعثة ، وشهدت أدوار الدعوة النبوية ولم تكن في عزلة عنها بطبيعة الحال .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إن بين الدعوة النبوية القرآنية والديانتين الكتابيتين جامعة تجمع بينها وهي وحدانية الله صريحة ومؤولة ، ووحدة المصدر الذي صدرت عنه الديانات الثلاث وكتبها ، وقد كان الكتابيون ممن وجهت إليهم الدعوة بصورة عامة وخاصة .

ولقد ردد القرآن المكي كل هذا في فصول وآيات كثيرة احتوت صوراً متنوعة . ومن الممكن تصنيفها في أربعة مواضع :

الأول : القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام .

الثاني : الكتابيون إزاء القرآن والدعوة المحمدية .

الثالث : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين .

الرابع : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى انحرافات الكتابيين العقائدية واستدراكاتها وتصويباتها .

الصُّورَة الثانيَة

فأولا القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام :

(١) في سورة المدثر الآية التالية .

« وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ... ٣١

ومضمونها يلهم تقرير وجود توافق بين ماجاء في القرآن وما عند أهل الكتاب ، وهذا من أسباب استهداف استيقانهم بصحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني ، وتقرير عدم وجود محل لارتيابهم فيه .

والآية من الآيات التي نزلت مبكرة جدا بحيث يسوغ أن يقال إنها أولى الآيات التي ذكر فيها الكتابيون .

وهكذا يبدو أن مايلهم مضمونها من التقريرات قد كان منذ أوائل التنزيل ، ثم أخذ يزداد قوة ووضوحاً .

(٢) في سورة الأعلى الآيتان التاليتان :

« إِنَّ هَـٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ . . . ١٨ ــ ١٩

وفيهما كما هو ظاهر توكيد بأن بعض ماتضمنته آيات السورة من مبادئ الإسلام والسعادة الأخروية للمؤمنين الصالحين والشقاء للكافرين الفاجرين ، هو مما تضمنته الصحف المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وفيها بالتالي تقرير لوحدة الهدف والدعوة بين القرآن والكتب السماوية الأولى .

وقد ورد في سورة النجم آيات تماثل في نصها نص هذه الآيات ، وفي سياق تقرير المبادئ الإسلامية ، واتفاقها مع ما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

وسورتا الأعلى والنجم ، وخاصة الأعلى . مما نزل مبكراً جدا ؛ وفيها تقرير تصديق القرآن لما تقدمه من كتب سماوية مما ظل القرآن يردده في مختلف أدوار التنزيل .

(٣) في سورة الأعراف الآيتان ١٥٦ ــ ١٥٧ اللتان نقلناهما في الفصل الأول ، ولقد جاءتا عقب انتهاء فصل من فصول قصة بني إسرائيل وعطفاً عليها بأسلوب الاستطراد الذي جرى عليه القرآن كثيرا .

والأولى تضمنت تقريراً بأن الكتابيين يجدون صفات النبي الأمي ــ العربي ــ محمد عليه السلام في التوراة والإنجيل ، وتنويها بالذين آمنوا به منهم وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ؛ والثانية تضمنت دعوة عامة إلى الناس جميعاً للإيمان بالنبي الأمي ــ العربي الذي يؤمن بالله وكتبه السماوية ــ كلماته ــ فدخل الكتابيون في شمول الدعوة أولا ، وأعلن أن النبي مؤيد ومصدق للكتب السماوية السابقة ثانياً .

وسورة الأعراف من السور المبكرة في النزول ، ولقد كانت الآيات تتلى في مكة ويسمعها الكتابيون الذين شملتهم الدعوة بطبيعة الحال ، ثم آمنوا بالنبي وصدقوا بما جاء به كما ذكرت ، وفيهم نصارى وفيهم يهود على ما سوف نذكره بعد . ولقد ذكرت آيات مدنية نقلناها في مناسبة سابقة أن اليهود كانوا يستفتحون على العرب بالنبي العربي القادم ونددت بهم لكفرهم بما عرفوا حسداً وبغياً (البقرة ٨٩ ـ ٩٠) ، فلم يبق مجال للشك في أن الكتابيين كانوا يتحدثون عن صفات النبي الأمي ـ العربي ويبشرون به قبل بعثته ، استناداً إلى بشارات ونعوت كانت في الأسفار التي بين أيديهم ، ولما بعث آمن به منهم من طابت نفسه وتجرد عن الحقد والهوى والحسد .

وهكذا تكون الآية الأولى قد تضمنت تقرير حقيقة كان يجهر بها الكتابيون قبل نزول القرآن ، وبالتالي تقرير التوافق والتساوق التامين بين التقريرات القرآنية وما عند الكتابيين وفي كتبهم من حقائق وبشارات ونعوت عرفوا أنها بشارات النبي العربي ونعوته .

الصورة الثالثة

(٤) في سورة فاطر الآيتان التاليتان :

« وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ . . .

٣١ ـ ٣٢

والأولى تضمنت تقريرا بتأييد القرآن لما احتوته الكتب السماوية ، وتطابقه مع ما جاء فيها من مبادئ وأهداف ؛ وفي هذا توكيد للوحدة بين الدعوة النبوية القرآنية والكتب السماوية عند الكتابيين ؛ أما الثانية فيبدوا أنها بسبيل تقرير أن القرآن قد جاء ليكون هو الكتاب المستقر بعد تلك الكتب ؛ وليكون شريعة الناس جميعاً ؛

وليكون الذين آمنوا بالقرآن والنبي الذى نزل عليه هم الذين اصطفاهم الله تعالى ليكونوا ورثة كتبه . وهذا من جوهر الدعوة النبوية المحمدية ، فهى مصدقة ووارثة لما قبلها وشريعة الناس جميعاً . وقد تكرر مضمون الآية الأولى في كل من سور الأنعام ويونس ويوسف والأحقاف كما ترى فيما يلي :

١ — وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ . . .

الأنعام ٩٢

٢ — وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ... يونس ٣٧

٣ — وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... يوسف ١١١

٤ — وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ... الأحقاف ١٢

(٥) في سورة طه الآية التالية :

« وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ... ١٣٣

وقد تضمنت تقرير أن التساوق والتوافق بين القرآن ، والكتب السماوية الأولى حجة قائمة وكافية على صحة الرسالة المحمدية والتنزيل القرآني ، إلى تقرير الوحدة بين القرآن وهذه الكتب بأسلوب آخر ؛ وفي الآية دلالة على أن العرب كانوا ملمين بما تناولته واحتوته الكتب السماوية الأولى ، كما كانوا ينظرون إلى أهلها نظر الاعتماد والثقة .

(٦) في سورة الشعراء الآية التالية :

« أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... ١٩٧

ولقد قيل إن الآية مدنية ، ولكن الانسجام التام في السياق والنظم والمضمون

وخطاب كفار مكة يحمل على ترجيح مكيتها ، وهي بسبيل الاحتجاج باعتراف علماء بني إسرائيل بالقرآن على صحة وحي الله به ، كما أنها بسبيل تقرير التطابق والتساوق بينه وبين ما يعرفه علماء بني إسرائيل أولا ، وتقرير الاعتماد عليهم والثقة بشهادتهم شهادة إيجابية ثانية . وهي تلهم أن العرب كانوا كذلك يعتمدون عليهم ويثقون بهم ، إذ أريد إقامة الحجة عليهم باعتراف علمائهم بصحة التنزيل .

(٧) في سورة يونس الآية التالية :

« فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ... ٩٤

والخطاب وإن يكن موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم فهو في الحقيقة موجه للسامعين، وهذا مما جرى عليه الأسلوب القرآني كثيراً ، وقد تضمنت الآية استشهاد أهل الكتاب به ، والمتبادر أنه ينطوي في هذا تقرير استعداد أهل الكتاب للشهادة بصحة التنزيل القرآني ؛ كما ينطوي فيه تقرير طبيعة الوحدة والتساوق بين القرآن والكتب السماوية أولا ، والاعتماد على أهل هذه الكتب بالشهادة الإيجابية ثانيا .

(٨) في سورة الأنعام الآية التالية :

« ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... ٢٠

وهذه الآية تضمنت تقريراً قويا وواضحا بمعرفة أهل الكتاب صحة التنزيل القرآني معرفة لا يتطرق إليها أي شك كما يعرف الأب ابنه . وطبيعي أن ينطوي في هذا تقرير الوحدة والتساوق من جهة ، والثقة والاعتماد من جهة أخرى .

وقد جاء في السورة نفسها آية أخرى تضمنت تقرير نفس المعاني بقوة أيضاً وهي هذه :

« أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ... ١١٤

الصّورة الرابعة

(٩) وفي سور الأنعام أيضاً الآيات التالية :

« وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . وَإِسْمَٰعِيلَ . وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ . وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ . أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ . . .

٨٤ ـ ٩٠

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات حكت موقفاً حجاجيا بين إبراهيم عليه السلام وأبيه وقومه . ومع أن التعقيب استهدف إقامة الحجة على المشركين العرب[١] فإن الآيات قد احتوت تنويهاً بأنبياء الكتابيين وما كانوا عليه من هدى وحق ، وأمراً للنبي صلى الله عليه وسلم بجعلهم له قدوة والاهتداء بهديهم . وواضح أن هذا ينطوي أولا على تقرير احترام أنبياء الكتابيين ، وثانياً على تقرير وحدة الطريق والهدى بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته .

---

(١) جملة « فإن يكفر بها هؤلاء » عنت الكفار العرب على الأرجح .

(١٠) في سورة غافر الآيتان التاليتان :

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ . هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ... ٥٣ ـ ٥٤

والآيتان تضمنتا التنويه بموسى وبني إسرائيل والتوراة ، مما هو متصل بما نحن بسبيل تقريره .

(١١) في سورة الشورى الآية التالية :

« شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ...

١٣

وفيها تقرير حاسم لوحدة الأسس فيما أوحى الله إلى الأنبياء ، وخاصة نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وما أوحى إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي تقرير لوحدة الأسس بين القرآن والكتب السماوية ، وبين المسلمين وأهل هذه الكتب وللتطابق والتساوق بين الفريقين .

(١٢) في سورة الأنبياء الآية التالية :

« وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . . . ٧

وقد احتوت تحدياً استشهادياً بالكتابيين أهل الذكر . والمتبادر أنه ينطوي فيها تقرير استعدادهم للشهادة وتقرير الثقة بهم والاعتماد عليهم فيها .

وفي سورة الأنبياء التي نزلت بعد النحل آية مماثلة لهذه الآية ، أوردت لنفس الغاية التي وردت لها آية النحل ، مما يؤكد المعنى الذي قررنا أنه ينطوي في هذه الآية ويدل على تكرر الموقف الذي احتيج فيه إلى تقرير التحدي الاستشهادي .

(١٣) في سورة الأنبياء الآية التالية :

« إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ... ٩٣

وقد جاءت عقب سلسة من قصص الأنبياء ، منها ماهو شخصي ، ومنها ماهو متصل بمواقف الكفار منهم وفيهم إبراهيم وموسى وهرون وإسحق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب ويونس – ذو النون – وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وزكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وقد نوهت الآيات بهم ، وجميعهم من أنبياء الكتابيين . أما الآية فقد احتوت تقرير وحدة طريق الأنبياء ، وأن هذه الطريق هي طريق المسلمين أيضاً ، واحتوت بالتالي تقرير الوحدة في الأسس بين الإسلام وأهل الكتاب .

وقد تكرر هذا المعنى في آية فى سورة « المؤمنون » التي نزلت بعد سورة الأنبياء مما يؤكد المعنى الذي استهدف تقريره كما هو واضح .

ويضاف إلى ماأوردناه من مفردات في كل منها صورة غير الأخرى ، مافي ماتوالى وروده في القرآن المكي من قصص أنبياء أهل الكتاب ، وأحوالهم الخاصة ، وسيرة أقوامهم معهم – في سور الفجر والقمر وق وص والأعراف ويس ومريم وطه والشعراء والنحل والقصص ويونس وهود ويوسف والحجر والأنعام والصافات وسبأ وغافر والزخرف والدخان والذاريات ونوح وإبراهيم والأنبياء والمؤمنون – مما يتطابق قليلا أو كثيراً مع ماورد في كتب أهل الكتاب ومافيها من ثناء على هؤلاء الأنبياء ودعوة للتأسي بهم واحترامهم، مما يتضمن معنى التساوق والاتحاد والتطابق بين القرآن والكتب السماوية ، وبالتالي بين الإسلام وأهل الكتاب .

الصّورة الخامسة

وهكذا فإن القرآن منذ الوقت المبكر من العهد المكي أكد وظل يؤكد طيلة العهد وفي مختلف أدوار التنزيل وحدة المصدر الذي صدر عنه القرآن والكتب السماوية ،

ووحدة الأهداف والمبادئ التي تضمنها القرآن وتلك الكتب ، وتأييد القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم للأنبياء السابقين والكتب السابقة،والتنويه بهم ،وأنه استشهد وظل يستشهد بأهل الكتاب على صحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يلهم استعدادهم للشهادة الإيجابية ،والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها ، كما يلهم طبيعية وتوقع استجابتهم للدعوة المحمدية القرآنية واندماجهم فيها ونصرها وتأييدها .

وإذا استثنينا الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين وانحرافهم عن أصل الدين الصافي ، وأهدافه العليا ، وما فيها من تنديد خاطف غير عنيف على ماسوف نذكره بعد ، فإن الأسلوب القرآني المكي في أهل الكتاب المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم من يهود ونصارى هو أسلوب هادئ محبب ليس فيه عنف ما .

ومن الطبيعي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم الذي أوحى إليه منذ الوقت المبكر بما أوحى وظل يوحي إليه بمثله بأساليب متنوعة ، قد وقف منذ البدء موقف المسالم المتحبب من الكتابيين في مكة المتحد معهم في الأهداف والمبادئ ، والمحترم لأنبيائهم وكتبهم والمعترف بها والمؤيد لها .

ونعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ألهم هذا الموقف قبل نبوته أيضا ، إذ كان بينه وبين بعض الكتابيين في مكة ـ على ما استلهمناه وشرحناه في فصل شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ـ صلة ود ومبادلة عطف وتصديق ، وأن هذا من أسباب هذا الموقف الودي المتبادل ، هذا إلى ما احتواه القرآن من تصديق وتأييد وتنويه بكتبهم وأنبيائهم ، واستشهاد بهم واعتماد عليهم ، وتلقين بالوحدة التامة بينهم .

ومضامين المفردات القرآنية التي نقلناها أولا ، والأسلوب الهادئ الذي ظل متسقاً في أدوار التنزيل واحتوى استشهاد أهل الكتاب وانطوى فيه معنى الثقة بشهادتهم الإيجابية ثانياً ، إلى ما احتواه القرآن المدني من حملات عنيفة على اليهود بسبب مواقفهم الجاحدة الماكرة في المدينة ثالثاً ـ كل ذلك يسوغ القول بجزم أن الكتابيين في الإجمال قد وقفوا منذ البدء من الدعوة المحمدية القرآنية موقف العطف والتأييد وظلوا كذلك إلى آخر العهد

المكي ، وأنه لم يقع بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم احتكاك وعداء كما وقع بينه وبين اليهود في المدينة .

على أنهم لم يبقوا عند هذا الحد ، بل حققوا ما كان متوقعاً من استجابتهم للدعوة واندماجهم فيها على ماسوف نذكره فيما يأتي :

الصورة السادسة

وثانيا : الكتابيون إزاء القرآن والدعوة المحمدية .

(١) في سورة الأعراف الآية التالية :

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . ١٥٧

والآية صريحة بأن فريقاً من النصارى واليهود في مكة وجدوا صفات النبي صلى الله عليه وسلم مطابقة لما في أيديهم من أسفار التوراة والإنجيل فآمنوا به واتبعوه ونصروه فاستحقوا التنويه الذي احتوته الآية .

وسورة الأعراف من السور المبكرة في النزول فتكون الصورة التي احتوتها الآية من الصور المبكرة لإيمان فريق من النصارى واليهود بالرسالة المحمدية .

(٢) في سورة القصص الآيات التالية :

« ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ . أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ .

وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ . . . ٥٢ ـ ٥٥

ومع أن بعض الروايات ذكرت أن الآيات مدنية فإنها غير موثقة ، والانسجام التام في السياق والنظم والمضمون ، والصورة التي احتوتها الآية الأخيرة خاصة ، تسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بمكيتها ؛ وقد تضمنت خبر إيمان الكتابيين بالقرآن وحكاية أقوالهم عن إيمانهم به وتصديقهم بأنه الحق من ربهم ، كما تضمنت خبر تعرضهم للوم المشركين ، وبالأحرى لزعمائهم ، وتأنيبهم فلم يأبهوا لذلك وظلوا متمسكين بموقفهم الإيماني . وهذا موقف عظيم يدل على قوة نفس ورسوخ إيمان ، بحيث لم يبالوا ما يمكن أن ينالهم من أذى أولئك الزعماء الذين لا بد من أنهم قدروا خطورة تصديق أهل الكتاب بالرسالة المحمدية والتنزيل القرآني ، ولهم ما لهم من أثر في أذهان العرب واعتماد عليهم وثقة بهم ؛ ويزداد هذا الموقف عظمة إذا ما لوحظ أنهم في محيط أكثريته الساحقة وزعماؤه الأقوياء أعداء ألداء للدعوة ، يقدمون على كل شيء في سبيل تعطيلها والصد عنها ، وهم أقلية ضئيلة أو أناس غرباء لا عصبية لهم ، وقد أوذي بعض المسلمين من عهد مبكر أشد الأذى ، وظل المسلمون عامة يتعرضون لمحنة الأذى والفتنة ؛ وسورة القصص من السور المبكرة في النزول نوعاً ما ، والآيات تحكي أمراً واقعاً قبل نزولها ؛ ومعنى هذا أن الكتابيين قد أخذوا يستجيبون للدعوة النبوية وينضمون إليها ويجهرون بتصديق النبوة والتنزيل القرآني منذ عهد مبكر .

(٢) في سورة الإسراء الآيات التالية :

« قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا . . . ١٠٧ ـ ١٠٩

وفي هذه الآيات وصف آخر لموقف الكتابيين من القرآن في خشوعهم وبكائهم

من الخشية وسجودهم حينما كان يتلى عليهم إيماناً به وتصديقاً لما جاء فيه .

ولقد جاءت الآيات في مقام التحدي للكفار والتقريع لهم ؛ معلنة أن جحودهم ومواقفهم لا قيمة ولا اعتبار لها ما دام الذين أوتوا العلم يقفون هذا الموقف التصديقي الخاشع ، ولموقفهم الاعتبار الأكبر والقيمة العظيمة . وهذا يلهم أن هذه المواقف والمشاهد كانت مما يقع على مرأى أو علم من الكفار من جهة ، وأنها كانت من عوامل طمأنينة المسلمين ووثوقهم ، وقوة صمود الدعوة واستعلائها من جهة أخرى . وسورة الإسراء هي أيضا من السور التي نزلت مبكرة نوعاً ما ، والآيات تحكي مشهداً واقعاً قبل نزولها ، وفي هذا توكيد لما قلناه من استجابة الكتابيين للدعوة منذ العهد المبكر .

(٣) في سورة الأحقاف الآية التالية :

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . . .

١٠

وقد قيل إن الآية مدنية ، ولكن سياقها ومضمونها الذي يوجه فيه الخطاب والتحدي والإنذار إلى الكفار ، يسوغ ترجيح مكيتها إن لم نقل الجزم بذلك .

وهي صريحة بأن بعض بني إسرائيل شهد بصدق التنزيل القرآني ومماثلته لتنزيل التوراة وآمن به ، وفيها شيء من المعنى الذي احتوته الآيات السابقة : من حيث الاعتداد بإيمان الكتابي الإسرائيلي واعتباره حجة دامغة على المشركين .

(٤) في سورة العنكبوت الآية التالية :

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ . . .

٤٧

وفي الآية صراحة بأن الكتابيين يؤمنون بالتنزيل القرآني . وطبيعي أن هذا لابد أن يكون تقريراً لواقع مشاهد . وفي الآية شيء من المعاني التي تلهمها الآيات السابقة كما يظهر من إنعام النظر فيها .

(٥) في سورة الرعد الآية الآتية :

« وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ... ٣٦

وفيها صراحة بما كان يستشعره الكتابيون من فرح واستبشار بالتنزيل القرآني لما يرون فيه من مطابقة للأهداف العليا التي في كتبهم ومن وحدة المصدر .

وطبيعي أن هذا لابد أن يكون مقترناً بتصديقه وتأييده من جهة ، ومستنداً إلى واقع مشاهد من جهة أخرى .

وفي الآية شيء من المعاني التي تلهمها الآيات السابقة أيضاً .

الصورة السابعة

والآيات باستثناء آية الأحقاف لا تذكر هوية الكتابيين حيث تذكرهم مطلقين ، أما الآية المذكورة فإنها تذكر صفة المؤمن الشاهد صراحة وهو إسرائيلي . وقد استدللنا بها وبقرائن قرآنية أخرى في كتابنا عصر النبي وبيئته ، على احتمال وجود جالية يهودية في مكة ، أو على الأقل على تردد يهود المدينة على مكة ، ووجود علاقات تجارية أو غير تجارية بينهم وبين أهلها ، والمعروف بإلهام القرآن على ما شرحناه في كتابنا الآنف الذكر ، أنه كان عدد غير يسير من جوالى النصارى مستوطنين مكة ، ولقد ذكرت روايات السيرة وكتب التراجم أسماء كثير من الكتابيين الذين اندمجوا في الدعوة في مكة تحمل طابع الأسماء النصرانية ، كما أن بعض الروايات ذكرت قدوم وفد نصراني إلى مكة بعد البعثة مستطلعاً نبأ النبي العربي ، وأعلن إيمانه به .

وهكذا يمكن أن يقال إن أهل الديانتين الكتابيتين اليهود والنصارى في مكة الذين واجهوا النبي محمداً صلى الله عليه وسلم عياناً وسمعوه قد رأوا فيه من الأعلام والصفات النبوية ما هو متطابق لما هو مكتوب عندهم في أسفار التوراة والإنجيل فقابلوا دعوته بترحاب وفرح وشهدوا بصدقها وصدق التنزيل القرآني وآمنوا بهما مع ما كانوا عليه وكان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون عليه من قلة وضعف وتعرض للأذى والمناوأة. وهذا واقع بعيد المدى والخطورة في صدد الدعوة الإسلامية بالنسبة لأهل الكتابين كما هو المتبادر .

وننبه إلى أن الصيغ القرآنية تلهم أن الكتابيين في مكة إطلاقاً وقفوا هذا الموقف ، كما أن تكرار تقرير القرآن ذلك يلهم أن هذا الموقف وهذه المقابلة كانت من كافتهم . وروايات السيرة لم تذكر فيما اطلعنا عليه أنه ظل في مكة كتابيون متمسكون بأديانهم ولم يندمجوا في الدعوة الإسلامية .

ولقد ورد في سورة العنكبوت هذه الآية :

« وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إلا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ . . . ٤٦

والآية احتوت تعليما قرآنياً للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بالخطة التي يجب عليهم أن يسيروا عليها مع أهل الكتاب . وهي خطة متسقة مع المفردات والتقريرات والأسلوب المكي القرآني ؛ ومع ذلك فإنها تلهم أنها تتضمن تقرير أمر واقعي ، وهو أنه كان في مكة كتابيون في أواخر العهد المكي ـ لأن سورة العنكبوت من آخر ما نزل من القرآن المكي ـ وأنه كان يقع جدل ديني بينهم وبين النبي والمسلمين ، وأن منهم من كان يسلك في جدله سلوك المكابرة والتجني والظلم ؛ فإذا كان هذا الاستلهام صواباً فمن الراجح أن يكون هؤلاء ممن وقعوا تحت تأثير زعماء الكفار وصدهم وتهويشهم ،

أو كانت تربطهم بهم مصالح وروابط لم يسعهم أو لم يمكنهم التضحية بها أو التفلت منها؛ ومهما يكن من أمر فإن الايات القرآنية تلهم أن موقف الكتابيين بالإجمال كان موقفاً إيجابيا كما قلنا، وأن شذوذ بعضهم عن طريق الأكثرية سواء كان السبب جدليا أو تعصبيا أو عقليا أو ماديا، من الأمور المتسقة مع طبائع الأشياء والأشخاص والبيئات، وليس من شأنه أن ينقض ما استلهمناه وقررناه.

على أنه لما كانت هجرة المسلمين إلى يثرب بدأت في ظروف نزول سورة العنكبوت على ماشرحناه قبل، فإن من الجائز أن تكون الآية قد تضمنت الخطة الواجب على المسلمين أن يسيروا عليها في المدينة حيث يكثر اليهود، لاسيما وقد جاء بعدها آية تقرر أن الذين أوتوا الكتاب يؤمنون بالنبي والقرآن وبالتالي تقرر موقف الكتابيين الإيجابي تقرير شيء واقعي وهي:

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ...

٤٧

وبهذا التوجيه ينتفي مايمكن أن يكون من وهم التناقض كما هو المتبادر وتتسق التقريرات القرآنية وملهماتها.

الصورة الثامنة

وثالثاً: مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين:

(١) في سورة هود وفصلت آيتان متماثلتان نصاً وهو:

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ...

هود ١١٠ وفصلت ٤٥

(٢) وفي سور الشورى والزخرف والجاثية والسجدة هذه الآيات:

١ — شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ . . .

الشورى ١٣ ـ ١٤

٢ — وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ...

الزخرف ٦٣ ـ ٦٥

٣ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ . وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ...

الجاثية ١٦ ـ ١٧

٤ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ...

السجدة ٢٣ ـ ٢٥

وقد جاءت هذه الآيات في سياق إنذار المشركين ، والتنديد بهم ، والحجاج معهم ؛ وبسبيل نفي الخلاف عن الأهداف والمبادئ السامية ، ونسبته إلى الكتابيين الذين إنما وقعوا فيه بغياً ، أي لأغراض باغيـة لا تمت إلى الحق والحقيقة في تلك المبادئ

والأهداف ؛ ثم بسبيل دحض حجة المشركين العرب باختلاف الكتابيين ، واتخاذهم ذلك وسيلة للتمسك بما عندهم والتبجح به أولا ؛ وبسبيل تقرير كون القرآن قد جاء بالحق ، ووضع الأمر في نصابه الحق ، وإنه لم يبق حجة لمحتج ثانياً .

غير أنه يمكن مع ذلك أن تلهم أنها استهدفت في الوقت نفسه تقرير واقع الكتابيين من الاختلاف والنزاع والانشقاق مذاهب وشيعا فيما بينهم ، ودعوتهم إلى الانضواء إلى راية القرآن الذي يمت إلى المصدر الذي تمت إليه كتبهم ، والذي يعود بدين الله إلى صفائه ومبادئه السامية التي لاتتحمل في أصلها خلافا ، واتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، ونصره وتأييده ، والتسليم بما جاء به القرآن من حلول الحق لمشاكلهم وخلافاتهم المذهبية والنفسية، لاسيما أن الآيات كانت تتلى في مكة ويسمعها الكتابيون فيها .

على أن هذا المعنى منطو في آيتي الأعراف ١٥٧ ـ ١٥٨ اللتين نقلناهما قبل ، ومنطو في بعض الآيات التي نقلناها آنفا ؛ وقد جاء قويا صريحاً في بعض آيات سورة النمل كما ترى فيها :

« إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ... ٧٦ ـ ٧٨

ثم في بعض آيات سورة مريم التي جاءت تعقيباً على قصة ولادة عيسى صلى الله عليه وسلم كما ترى فيها :

« ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ... ٣٤ ـ ٣٦

ولعل من الحق أن يقال إنه كان لهذه التقريرات والدعوة القرآنيـة أثر فيما كان من تنبه الـكتابيين في مكة في مبدأ الأمر إلى ماوصل إليه أمرهم من خلاف ونزاع وانقسام لايمت في أصله إلى مبادئ الدين وأهدافه السامية ، وفي إقبالهم على الإسلام ورؤيتهم فيالتقريرات القرآنية علاجاً شافياً لما هم فيه وفي الإسلام عهداً جديداًيستقبلونه برضى وطمأنينة نفس ؛ هذا إلى ما كان من مطابقة بين التقريرات القرآنية وما كان عليه بعض الفرق النصرانية من عقائد ومذاهب أو من مقاربة ؛ إذ من المحتمل كثيراً أن تكون الجاليات النصرانية في مكة من هذه الفرق ، فكان ذلك عاملا في إقبال الذين أقبلوا منهم على الإسلام بيسر وارتياح وإخلاص [(١)] .

الصورة التاسعة

ورابعاً : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى انحرافات الـكتابيين العقائدية واستدراكاتها وتصويباتها .

ليس في القرآنالمكي من تفصيل عن الانحرافات والخلافات العقائدية التي كان عليها الـكتابيونفي مكة إلا بشأنالسيد المسيح والعقيدةالنصرانية فيه . وكلماورد بشأن اليهود ـ عدا الإشاراتالخاطفة إلىخلافاتهم التي كانوا عليها في عهد النبي ، وقد أوردناه آنفاً ـ هو مواقف اليهود السابقين في عهد موسىوبعده ، وقصصهم وانحرافهم إلى عبادة العجل ، وتمردهم من حين إلى حين على أوامر الله والأنبياء ، وترديهم الأخلاقي والاجتماعي الذي حاق فيهم بسببهالـكوارث والمصائب وأدى إلى تسلطالأقوياء عليهم كما يبدو من قصصهم في سور الأعراف وطه والإسراء بصورة خاصة ؛ هذا في حين أن القرآن المدني احتوى بالإضافة إلى الحملات العنيفة على أخلاقهم ومواقفهم الماكرة الجاحدة ، إشارات إلى عقيدتهم ببنوة العـزيز لله ، وقذفهم مريم وابنهـا بأسلوب يفهم منه أن هذا من عقائد المعاصرين .

(١) في تاريخ انتشار الاسلام للمستشرق الانكليزي أرنولد تقريرات مستندة إلى وثائق ودراسات تدل على أنه كان بين الفرق النصرانية من يتطابق مذهبه مع التقريرات القرآنية في شأن عيسى عليه السلام . .

وقد يمكن أن يستلهم من هـذا أن اليهود في مكة كانوا أفراداً قلائل ، وأنهم لم يحتكوا بالنصارى أولا ثم بالنبي والمسلمين ثانيا احتكاكا عدائيا : هذا إلى أن التطابق بينهم وبين الدعوة الإسلامية الذي كان أشد مما هو بين النصارى وبينها لإيمانهم بالتوحيد الصريح غير المؤول ، لم يدع محلا للتشاد والجدل ، وأوجد بين الفريقين صلات تقاربية وحزبية وثيقة جعل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين يتوقعون أن يستجيب إليهم اليهود بسرعة أكثر من كل ملة ، وهـذا ماهو منطو في الفصول القرآنية المدنية على ماسوف نذكره في حينه .

الصورة العاشرة

أما بشأن السيد المسيح والعقيدة النصرانية فقد ورد أولا فصل طويل في سورة مريم هذا هو :

« كهيعص . ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ . إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا . يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً . قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيَ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا . فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا . يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا . وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيًّا . وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا . وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا . فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا

بَشَراً سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰماً زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيًّا . فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَاناً قَصِيًّا . فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيًّا . فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا . فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا . فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا . يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَادُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا . وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ . . .

والقسم الأول خاص بقصة ولادة يحيى صلى الله عليه وسلم . والقسم الثاني الذي يلهم أن قصة ولادة عيسى صلى الله عليه وسلم ودحض عقيدة بنوته لله هما المقصودان الجوهريان ، يسوغ القول أن القسم الأول جاء مقدمة لقصة ولادة عيسى وتمهيداً ، فقد

كانت قصة ولادة يحيى مما وردت الإشارة إليه في بعض الأناجيل[1] ومما يؤمن به المسيحيون ويعتبرونه معجزة ربانية ؛ فأريد بإيرادها إثبات أن ولادة المسيح هي أيضاً معجزة ربانيه لا تقتضي أن تكون سبباً للاعتقاد ببنوة عيسى لله . وقصة ولادة عيسى عليه السلام متماثلة في الخطوط مع ما ورد عنها في الأناجيل ، وإن كان هناك بعض اختلافات في الجزئيات وخاصة في كلام عيسى في المهد مما لم يرد في الأناجيل ونعتقد مع ذلك أنه كان متداولا بين النصارى هو وغيره مما جاء في القرآن ولم يجيء في الأناجيل . وقد استهدفت آيات قصة عيسى عليه السلام ـ فوق تقرير حقيقة ولادة عيسى وأنها ليست إلا معجزة ـ تنزيه الله عن اتخاذه أبناء واستغناءه عن ذلك وعدم اتساقه مع المنطق الذي يفرض لله الكمال التام ، وأن الله هو وحده رب الناس جميعاً ، وله وحده تجب العبادة ، وأن ما وقع من انحراف عن هذه الحقيقة إنما نشأ عن اختلاف في الفهم ، وتشعب في الآراء بين الأحزاب من بعده .

والفصل يبدو لأول وهلة تقريراً قرآنياً مباشراً ؛ لا سيما وقد تبعه فصول عن أنبياء آخرين بنظم واحد . على أن هذا لا يمنع أن يكون قد حدثت مناسبة قبل نزوله ، كبحث في ماهية المسيح ، أو جدل في عقيدة النصارى فيه بين العرب المسلمين والكافرين ، أو سؤال من هؤلاء أو هؤلاء ، أو موقف جدلي بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى ، ونحن نرجح هذا . ولعل في الآية « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون » قرينة على هذا الترجيح ، إذ تلهم أن الفصل جاء تعقيباً على موقف جدلي اختلف فيه في أمر عيسى فاحتوى القول الحق لوضع الأمر في نصابه الحق .

وقد ورد ثانياً في سوة الزخرف الفصل الآتي :

« وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا

(١) انظر الإصحاح الأول من إنجيل لوقا . وقد جاء فيه قالت : مريم للملاك : كيف أحبل وأنا لا أعرف رجلا . فقال لها إن اليصابت نسيبتك وزوجة زكريا حبلت أيضاً بابن في شيخوختها مع أنها كانت عاقراً . وأنه ليس أمر غير ممكن لدى الله .

عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَاءِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ... ٥٧ ـ ٦٥

والآيات قد سيقت على سبيل الحجاج مع مشركي العرب والرد عليهم ، إذ احتجوا بإشراك النصارى المسيح عليه السلام في العبادة مع الله ، ورأوا في إشراكهم الملائكة منطقاً أكثر سلامة على ما شرحناه في مكان آخر ، غير أنها على كل حال متصلة بماهية عيسى وعقيدة النصارى فيه ، وتقرير أنه إنما هو عبد لله ، وأن دعوته إلى الله وحده وأن الانحراف عن هذا إنما كان بسبب اختلاف الأحزاب بعده وتشعب الآراء فيه ؛ كما تضمنت الإشارة إلى انحراف العقيدة فيه ، والتنديد بذلك وقررت وجه الصواب في الأمر بأسلوب آخر انتهى إلى النهاية نفسها التي انتهى إليها فصل سورة مريم .

وفي سورتي الأنبياء والمؤمنون ثالثاً إشارتان خاطفتان إلى ولادة عيسى عليه السلام كما ترى فيما يلي :

«وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ...

الأنبياء ٩١

« وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

المؤمنون ـ ٥٠

والقصد ظاهر في الآيتين اللتين وردتا عقب فصول في سيرة الأنبياء السابقين ، وهو الإشارة إلى أن ولادة عيسى عليه السلام إنما كانت معجزة وعناية ربانية خاصة ، وبالتالي

تصويب العقيدة المنحرفة فيه . ومن الجدير بالذكر أن آية سورة الأنبياء سبقت بآيتين فيهما حكاية نداء زكريا ربه واستجابة الله وهبته له يحيى .

الصورة الحادية عشرة

وفي الجملة فإن من الممكن أن يقال إن قصة ولادة عيسى وشخصيته كانتا موضع جدل ومناقشة وأخذ ورد وقيل وقال قبيل البعثة ، واستمر ذلك بعدها ؛ فالعرب من جهة كانوا يرون فيما عليه أهل الملل الكتابية في أمر عيسى عليه السلام ما يدعو إلى العجب ، حتى كانوا يرون أنفسهم على هدى أكثر من النصارى في تأليه الملائكة ونسبتهم بالبنوة إلى الله ، واليهود كانوا يرمون السيدة مريم بالبهتان بسبب حملها بعيسى بدون أب شرعى ظاهر ، ويصفونه بالكذاب والدجال . والنصارى كانوا في أمره أحزاباً وفرقاً ، منهم من يرى أن ماهية الله هي نفسها ماهية عيسى ، ومنهم من كان يعتقد أنه أقنوم من أقانيم الألوهية الثلاثة ، ومنهم من كان يعتقد بألوهيته ، ومنهم من كان يعتقد بأن له صفتين ناسوتية ولاهوتية ، ومنهم من كان يعتقد بأن له صفة واحدة وهي اللاهوتية ، ومنهم من كان يعتقد بأن صفته هي الناسوتية ويؤمن بالله ويعتقد بأن المسيح نبي رافقت ظروف ولادته معجزة ربانية ، ومنهم من رفع السيدة مريم إلى درجة الألوهية أو اللاهوتية الخ مما حكته آيات قرآنية مدنية[1] وما نقلته الأخبار[2] فجاءت هذه الفصول والآيات القرآنية تضع الأمور في نصابها الحق فتقرر أن فيما عليه هؤلاء وهؤلاء وأولئك تفريطا وإفراطاً وغلوًّا ، وبعداً عن المنطق والحق وعقيدة التنزيه والتوحيد ، وأن هذا إنما كان بعد عيسى وناشئا عن اختلاف الآراء والتأويلات والمذاهب فيه ، فولادة عيسى تمت بمعجزة ، وقد

---

(١) اقرأ آيات النساء ١٥٦ و ١٧١ والمائدة ١٧ و ٧٣ و ١١٦ والتوبة ٣٠ والصف ٧

(٢) اقرأ تاريخ انتشار الاسلام للمستشرق الانكليزى أرنولد . واقرأ المجلد ٣ الجز ٢ ص ٥٥٦ — ٦٣٥ و المجلد ٤ الجزء ٢ ص ٨٠ — ٩٠ و ٢٣٠ — ٢٣٩ و ٢٦١ — ٢٧٤ و ٣٧٦ — ٤١٦ و ٥٢٦ — ٥٢٨ من تاريخ سورية للمطران الديس . وفي انجيل برنابا نصوص كثيرة جداً تتطابق مع ماجاء في القرآن عن عيسى ومحمد عليهما السلام .

سبقت بمعجزة مقاربة من حيث النوع ومعترف بها ، فلا يقتضي هذا أن ترمى مريم بالبهتان ، وأن يوصف ابنها بغير الشرعية ، وينعت بنعوت بذيئة كما فعل اليهود ، ولأن يحار في التعليل ويذهب فيه مذاهب ويجعل عيسى إلهاً ، أو جزءاً من الإله ، ويرى فيه لا هوتية أو لاهوتية، وناسوتية معاً، وترفع مريم إلى الألوهية أو اللاهوتية كما فعل النصارى — وتقرر أن عيسى عبد من عباد الله ونبي من أنبيائه ،أرسله ليدعو إليه وحده بالبينات والحكمة ، وليحل ما صار إليه اليهود من خلافات، وتقرر له التكريم ،ولأمه التنزيه في نطاق عبوديتهما لله ، وهكذا تضع حلا للخلافات القائمة حول ماهيته وشخصيته لدي اليهود والنصارى والعرب معاً وتهيئ الطريق أمام غلاة النصارى للرجوع عن غلوائهم ، وتفتح الباب لهم وللذين تتناسب عقائدهم في المسيح مع هذه التقريرات خاصة ليدخلوا منه إلى الإسلام ، ويخلصوا مما هم فيه من شكوك وخلاف وريب ونزاع ، وتسد على العرب طريق الاحتجاج والمماحكة ، وتلزم اليهود حدهم فيما كانوا يرسلونه من أقوال بذيئة ضد المسيح وأمه في المحيط العربي .

وطبيعي أن هذه التقريرات كانت تتلى جهرة ، ويسمعها الكتابيون الذين آمنوا بنبوة النبي والتنزيل القرآني وشهدوا على صحتهما وأظهروا فرحهم بهما ، فمن الحق أن يقال إنهم قد وجدوا في هذه التقريرات حقاً وصدقاً ، ومنطقاً سليما وحجة كافية ، وحلا لما هم عليه من خلاف وشقاق وتضاد في أمر المسيح ، فكان مما حدا بهم إلى الاستجابة لداعي الإسلام ونبي القرآن ، بالاندفاع والفرح ، والخشوع ورضى النفس على ما وصفهم القرآن .

....

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

وأوله

عهد السيرة النبوية المدني

فهرس الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

موجز ترجمة حيـــاة المؤلف الأستاذ محمد عزة دروزة ، وآثاره العلمية

هويته الشخصية :

الاسم : **محمـــد عـــزة بن عبد الهـــادي دروزة .**

مكان الولادة : ولد في نابلس – فلسطين – في شوال لسنة ١٣٠٥هـ . الموافق حزيران سنة ١٨٨٨ م . ، وهو سوري الجنسية .

دراسته :

درس وتخرج في مدارس نابلس الإبتدائية والرشدية والإعدادية ، ولم يقسم له دراسة جامعية فثقف نفسه بنفسه ، وبهذه الطريقة تقوى في اللغـــة الفرنسية ، التي تلقى مبادئها في المدرسة الإعدادية .

عضويته في مجمع اللغة :

في سنة ١٩٥٦ انتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغـــة العربية في القـــاهرة .

عضويته في المجلس الأعلى:

في سنة ١٩٥٨ عين عضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الإجتماعية ، ثم مقرراً للجنة التاريخية ، وفي سنة ١٩٥٩ استقال من العملين بسبب حالته الصحية .

موجـــز أعمـــاله :

١ – مارس وظائف متنوعة ؛ في دائرة البرق والبريد في العهد العثماني ، من سنـــة ١٩٠٦ إلى ١٩١٨ ، وكان آخـــرها سكرتيرية مجلس المـــديرية العـــامة في بيروت .

٢ – تولى إدارة مدرسة النجاح الوطنية الإبتدائية والثانوية في نابلس من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٧ م .

٣ — تولى وظيفة مأمور أوقاف نابلس من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٣٢م .

٤ — تولى مديرية الأوقاف الإسلامية العامة في فلسطين من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٧ وأقاله الانكليز لمساهمته في الحركة الوطنية والثورية ، ولم يمارس بعد ذلك عملاً ديوانياً .

٥ — شارك في الحركة والتنظيمات القومية العربية في زمن الدولة العثمانية من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٨ .

٦ — ساهم في الحركة الوطنية وتنظيمها في فلسطين في سنتي ١٩١٨ — ١٩١٩ .

٧ — ساهم في الحركة العربية في زمن الحكم العربي في دمشق ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، وكان عضواً في المؤتمر السوري المنعقد بدمشق وسكرتيراً له .

٨ — شارك في الحركة الوطنية والثورية وتنظيمها في فلسطين من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٣٧ ، ثم استمر في مساهمته وهو في سورية ١٩٣٧ — ١٩٣٩ ، وكذلك في سنة ١٩٤٦ — ١٩٤٨ .

٩ — كان يشغل مراكز بارزة في معظم أدوار مساهماته هذه .

١٠ — اعتقل أكثر من مرة وحوكم ، وحكم عليه ، وسجن من قبل الانكليز ثم الافرنسيين في كل من فلسطين ودمشق ، ونزح أثناء الحرب العالمية الثانية إلى تركيا ١٩٤١ — ١٩٤٥ ثم عاد إلى دمشق بعد إنتهاء الحرب ومازال يقيم فيها حتى الآن .

١١ — في سنة ١٩٤٨ أجريت له عملية في المرارة وأصبح بعدها غير قادر على المساهمة الفعلية في النضال الوطني ولكنه ظل يشارك بلسانه وقلمه ، مع انصرافه إلى القراءة والتأليف في الدرجة الأولى وما يزال على ذلك بفضل الله وتوفيقه ، وقد ثقل سمعه منذ سنة ١٩٣١ حتى صار صمماً ، وكان هذا مما ساعده على ذلك الانصراف .

آثاره العلمية ومؤلفاته المطبوعة حسب سني طبعها :

١ — رواية وفود النعمان على كسرى أنو شروان ، طبعت في بيروت سنة ١٩١١ . صفحاتها / ٧٠ / .

٢ - مختصر تاريخ العرب والإسلام كان مقرراً للمدارس المتوسطة ، جزآن طبعا مرتين في القاهرة في سنتي ١٩٢٥ ، ١٩٢٧ . عدد صفحاتهما / ٤١٦ / وقد طبعا في المطبعة السلفية .

٣ - القسم النظري من « كتاب دروس في فن التربية » مترجم من الافرنسية . نشر ملحقاً لمجلة التربية والتعليم في بغداد ثم صدر كتاباً مستقلاً . عدد صفحاته ٢٣٢ .

٤ - دروس التاريخ العربي كان مقرراً للمدارس الإبتدائية ، طبع ثماني مرات في فلسطين وبغداد في سنتي ١٩٣٢ - ١٩٤٠ عدد صفحاته ٢٩٢ كانت آخر طبعاته في بغـــداد .

٥ - دروس التاريخ المتوسط والحديث كان مقرراً للمدارس المتوسطة ، طبع ثلاث مرات في فلسطين ودمشق في سنتي ١٩٣٢ - ١٩٣٨ عـــدد صفحاته ٢٣٩ وطبعت آخر طبعاته في مطبعة الترقي بدمشق .

٦ - دروس التاريخ القديم كان مقرراً للمدارس الإبتدائية ، طبع مرتين في فلسطين في سنتي ١٩٣٢ ، ١٩٣٤ عدد صفحاته ٢٠٨ وطبع في مطبعة دار الأيتام الإسلامية في القدس .

٧ - تركيا الحديثة طبع في بيروت سنة ١٩٤٦ وعدد صفحاته ٣٥٥ طبع في دار الكشاف .

٨ - بواعث الحرب العالمية الأولى ، مترجم عن التركية والافرنسية ، طبع في بيروت سنة ١٩٤٦ وعدد صفحاته ١٤٩ وطبع في دار الكشاف .

٩ - عصر النبي ﷺ وبيئته من القرآن الكريم وحالتهما المعاشية والإجتماعية والثقافية والدينية طبع في دمشق لأول مرة في دار اليقظة العربية سنة ١٩٤٦ وكان عدد صفحاته ٥٠٧ ثم طبع في دمشق أيضاً طبعة ثانية موسعة (اي زيد فيه) في نفس الدار في سنة ١٩٦٠ وصارت صفحاته ٨٤٨ .

١٠ - سيرة الرسول ﷺ من القرآن الكريم ، جزآن طبعا في القاهرة لأول مرة في سنة ١٩٤٨ وجاءت صفحاتهما ٧١٨ ، ثم طبعا مرة ثانية في القاهرة في سنة ١٩٦٥

في مطبعة الاستقامة بالتزام المكتبة التجارية الكبرى وطبع في دار إحياء الكتب العربية وجاءت صفحاتهما ٨٣٢ .

١ — القرآن واليهود ، أخلاقهم ومواقفهم وأحوالهم في زمن النبي ﷺ . طبع في دمشق سنة ١٩٤٩ وصفحاته ٤٦٧ .

١٢ — القرآن والمرأة ، رسالة طبعت في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٥١ وصفحاتها ٦٤ ، ثم وسعت (أي زيد فيها) وطبعت ثانية في صيدا عـــام ١٩٦٧ بعنوان (المرأة في في القرآن والسنة) وجاءت صفحاتها ٢٧٣ .

١٣ — القرآن والضمان الإجتماعي ، رسالة طبعت في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٥١ وصفحاتها ٣٤ .

١٤ — القرآن المجيد ، بحوث في مختلف مواضيع القرآن ، طبع في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٥٢ وصفحاته ٣٠٥ .

١٥ — حول الحركة العربية الحديثة ، انبعاث هذه الحركة وآثارها والحكم العربي في دمشق وسورية ولبنان ، في عهد الانتداب الافرنسي ، وفلسطين في عهد الانتداب الانكليزي وبعده ، ستة أجزاء طبعت في المطبعة العصرية في صيدا تباعا في سنتي ١٩٥١ ، ١٩٥٢ وجاءت صفحاتها ١٣٣١ ، والسادس يبحث في قضايا العرب الرئيسية وقد أعيد طبع الأجزاء ٣ ، ٤ ، ٥ في سنة ١٩٦١ وجاءت صفحاتها أكثر من الطبعة الأولى ٣٥ صفحة ، والثالث طبع لحدته والرابع والخامس طبعا معا في مجلد واحد ، وعنونت كمية من الطبعة الجديدة بعنوان (القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها) وجعل الثالث هو الجزء الأول والرابع والخامس معاً الجزء الثاني لهـــذا العنوان .

١٦ — مشاكل العالم العربي الاقتصادية والإجتماعية والسياسية ، طبع في دار اليقظة العربية في دمشق سنة ١٩٥٢ ونال جائزة من الجامعة العربية . وعدد صفحاته ٢٦٧ .

١٧ — الدستور القرآني في شؤون الحياة ، وفيه شرح لما احتواه القرآن من أحكام ومبادئ وتشريعات وقواعد وتقنينات في مختلف شؤون الحياة السياسية والاقتصادية

والإجتماعية والشخصية ، طبع لأول مرة في دار احياء الكتب العربية في القاهرة سنة ١٩٥٦ وجاءت صفحاته ٦٠٣ . ثم أعيد طبعه سنة ١٩٦٧ في القاهرة أيضاً في نفس الدار موسعاً بعنوان (الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة) وصار جزئين وصدر الأول وصفحاته ٥٨٤ في سنة ١٩٦٧ والثاني وصفحاته ٤٩٨ في سنة ١٩٦٩ .

١٨ — الوحدة العربية ، مباحث في أحوال البلاد العربية والعرب وضرورة الوحدة وتوافر عناصرها وعقباتها ومعالجاتها ، طبع في بيروت سنة ١٩٥٨ بواسطة المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر في مطابع دار الكشاف وعدد صفحاته ٧٢١ ونال الجائزة التشجيعية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الإجتماعية سنة ١٩٦١ .

١٩ — تاريخ بني اسرائيل ، من أسفارهم ، طبع في مطبعة نهضة مصر في القاهرة سنة ١٩٥٨ . وعدد صفحاته ٣٣٤ وطبع مرة ثانية في القاهرة طبعة شعبية في سنة ١٩٦١ من قبل اللجنة القومية للتأليف والنشر في ثلاث حلقات وهي ٨١ ، و ٨٣ ، و٨٥ . ثم طبع طبعة ثالثة بواسطة المكتبة العصرية في صيدا ألحق بها رسالة : اليهود في القرآن الكريم — احوالهم وأخلاقهم ومواقفهم من الدعوة الإسلامية والجزاء الذي تلقوه منه ﷺ .

٢٠ — تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة ، ويربط حلقات — تاريخ هذا الجنس — وموجاته من جزيرة العرب وتأثرها في مهاجرها ببعض — في سلسلة واحدة ، صدر منه ثمانية أجزاء طبعت تباعاً في صيدا في المطبعة العصرية في سني ١٩٥٨ — ١٩٦٤ وعدد صفحاتها « ٣٢٦٢ » والأجزاء الأربعة الأولى في تاريخ الجنس العربي ؛ في طور العروبة غير الصريحة في الجزيرة وبلاد الشام والعراق ووادي النيل ، والخامس في تاريخه في طور العروبة الصريحة قبل الإسلام في هذه الأقطار ، والسادس والسابع والثامن في تاريخه في طور العروبة الصريحة بعد الإسلام تحت راية النبي ﷺ ثم تحت راية الخلفاء الراشدين ثم تحت راية الدولة الأموية .

٢١ – العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي ، وهو موسوعة في تاريخ الدول والإمارات والمشيخات والاقطاعيات والقبائل العربية في مدى هذه الحقبة التي امتدت أحد عشر قرنا ، في العراق وجزيرة الفرات وسورية ولبنان والأردن وفلسطين ومصر والسودان والصومال وليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى . وطبعت أجزاؤه في دار اليقظة العربية بدمشق في سنتي ١٩٦٠ ، ١٩٦١ وعدد صفحاتها « ٢٠٤٢ » والأجزاء الثلاثة يصح أن تعد من حلقات تاريخ الجنس العربي . وتتمة لهذه الحلقات ، وقد اتفق على إعادة طبع أجزاء هذا الكتاب طبعة جديدة مع المكتبة العصرية في صيدا .

٢٢ – مأساة فلسطين ، رسالة طبعت في دار اليقظة العربية في دمشق ١٩٦٠ وعدد صفحاتها « ١٣٢ » .

٢٣ – جهاد الفلسطينيين ، طبع في القاهرة سنة ١٩٦١ وصفحاته « ١٠٦ » في دار الكتاب العربي .

٢٤ – عروبة مصر ، قبل الإسلام وبعده ، طبع الكتاب لأول مرة طبعة شعبية في مصر من قبل – لجنة التأليف والنشر القومية – في سنتي ١٩٦٠ ، ١٩٦١ في حلقتين ، ثم طبع في كتاب مستقل طبعة جديدة في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٦٣ وجاءت صفحاته « ١٩٩ » .

٢٥ – التفسير الحديث ، وهو تفسير كامل للقرآن الكريم مرتب السور حسب روايات النزول وأسلوبه حديث ، يجمع بين المأثور والرأي . أجزاؤه اثنا عشر . طبعت في دار احياء الكتب العربية في القاهرة تباعاً في سنتي ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ وعدد صفحاتها « ٣٥٧٦ » . وقد تم تنقيح الأجزاء وتهيئتها لطبعة جديدة موسعة وستكون صفحاتها نحواً من ٥٠٠٠ ، كما تم الاتفاق مع المكتبة العصرية على طبع الأجزاء المنقحة بتشجيع من سماحة مدير الشؤون الدينية في دولة قطر وبوشر بالطبع فيه .

وبذلك يكون عدد الكتب المطبوعة الصادرة « ٢٥ » كتاباً ومفرداتها « ٥٣ » وصفحاتها في طبعاتها الأولى – ١٦٦٥٠ – وفي طبعاتها الثانية نحو – ١٨١٥٠ – .

وللمؤلف في المطبعة العصرية في صيدا كتاب جديد تحت الطبع عنوانه : الإسلام والإشتراكية ، ويقدر عدد صفحاته بنحو ٣٠٠ ، وفي المطبعة المذكورة تحت الطبع نسخة موسعة لكتابي تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم ، والقرآن واليهود . في مجلد واحد ، ويقدر عدد صفحاته بنحو ٤٥٠ .

٢٦ ـ المرأة في القرآن والسنة ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٦٧ وعدد صفحاته ٢٦٠ .

٢٧ ـ الإسلام والإشتراكية نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٦٨ وعدد صفحاته ٢٥٠ .

٢٨ ـ الجذور القديمة لسلوك وأخلاق بني اسرائيل ، نشرته مكتبة أطلس في دمشق سنة ١٩٦٨ وعدد صفحاته ١٠٠ .

٢٩ ـ قصة الغزو الصهيوني ، نشرته مجلة الوعي الإسلامي في الكويت بملحق لها سنة ١٩٧٠ وعدد صفحاته ٧٠ .

٣٠ ـ نشأة الحركة العربية الحديثة ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٧٢ وعدد صفحاته ٥١٢ .

٣١ ـ القرآن والمبشرون ، نشره المكتب الإسلامي في دمشق في سنة ١٩٧٢ وعدد صفحاته ٤٦٨ .

٣٢ ـ القرآن والملحدون ، نشره المكتب الإسلامي في دمشق في سنة ١٩٧٣ وعدد صفحاته ٤٣٠ .

٣٣ ـ في سبيل قضية فلسطين ، مجموعة مقالات ورسائل ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٧٣ وعدد صفحاته ٥١٠ .

٣٤ ـ الجهاد في سبيل الله في الحديث والسنة ، نشرته دار اليقظة العربية في دمشق سنة ١٩٧٥ وعدد صفحاته ٤٣٢ .

٣٥ ـ عبرة من تاريخ فلسطين القديم ، مجموعة مقالات ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٧٨ وعدد صفحاته ١٢٠ .

ومفردات هذه الكتب « ٦٥ » وصفحاتها نحو « ٢١٠٠٠ » .

* — وهناك مخطوطات عديدة منها ما هو تحت الطبع ومنها ما هو قيد النظر والتركيز والطبع وهي : —

١ — في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ، مجموعة مقالات ورسائل في صدد الوحدة مع ترجمة مفصلة . لصاحب الترجمة .

٢ — الجزء الأول والثاني من كتاب (العدوان الاسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث ومراحل الصراع بين أهل البلاد والمعتدين ومصير هذا الصراع) .

٣ — رسالة نقدية لكتاب أنيس الصائغ (فلسطين والقومية العربية) فيها تصحيح أغلاط وتوضيح غـــوامض في سير القضية الفلسطينية .

وهذه الكتب الثلاثة تحت الطبع .

٤ — مذكرات عنوانها (تسعون عاماً في الحياة) في نحو « ١٥٠٠٠ » ورقة .

٥ — تاريخ العروبة والإسلام تحت راية العباسيين .

٦ — تاريخ العروبة والإسلام في الأندلس .

٧ — تاريخ العروبة والإسلام في جزيرة العرب .

٨ — مجموعة مقالات في شؤون إسلامية متنوعة .

٩ — مجموعة مقالات في صدد القضية الفلسطينية .

١٠ — مجموعة تعليقات على كتب قرأها .

١١ — مجموعة محاضرات أخلاقية وإجتماعية ألقاها في مدرسة النجاح وأندية فلسطين .

تم بعون تعالى والحمد لله رب العالمين ،،،